صفحات من تاريخ مصر (٢٢)

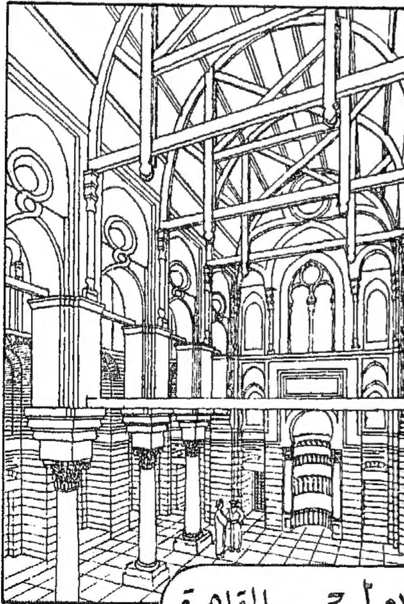
السلطان المنصور قلاوون

(تاريخ - أحوال مصر في عهده - منشآته المعمارية)

تأليف

الدكتور محمد حمزة إسماعيل الحداد

كلية الآثار - جامعة القاهرة





الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

السلطان المنصور قلاوون

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صفحات من تاريخ مصر
(٢٢)

السلطان المنصور قلاوون

(تاريخ - أحوال مصر في عهده - منشآته المعمارية)

تأليف
الدكتور محمد حمزة إسماعيل الحداد
كلية الآثار - جامعة القاهرة

مكتبة مدبولي
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة
الأمانات الفنية
٩ ش حسن صبري ـ الزمالك
الإدارة العامة للشعب واللجان

إلى من يهمه الأمر

تشهد الأمانات الفنية بالمجلس الأعلى للثقافة أن السيد الأستاذ / محمد حمزة إسماعيل الحداد مدرس مساعد بكلية الآثار جامعة القاهرة .

قد تقدم إلى مسابقة لجنة التاريخ والآثار وموضوعها « مجموعة قلاوون بشارع المعز لدين الله دراسة تاريخية وأثرية » وقد فاز سيادته بالمركز الأول في هذه المسابقة وهذه شهادة بناء عن طلب سيادته .

تحريراً في ٣١/٥/١٩٨٩

مدير عام الشعب واللجان
عواطف عبد الصمد

محتويات البحث

المقـــدّمَة

يعتبر السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون من أعظم شخصيات عصر سلاطين المماليك بصفة عامة ، وعصر المماليك البحرية بصفة خاصة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى عدة أمور فمن جهة كان هذا السلطان رأس أسـرة حكمت مصر والشام وغيرها أكثر من قرن من الزمان : إذ يبدأ حكم أسرة قلاوون به هو نفسه في سنة ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م وينتهي بالسلطان حاجـي سنة ٧٨٤ هـ/١٣٨٢ م ولم يحكـم في هذه الفترة من خارج أسرة قلاوون غير ثلاثة سلاطين ، هم كتبغا ولاجين وبيبرس الجـاشنكير ، وكـانت فترة حكمهم جميعـاً خمس سنوات فقط ، وكـانوا كلهم من مماليك قلاوون نفسه .

ومن جهة ثانية يرجع الفصل إليـه ـ أي قلاوون ـ في تكـوين وظهور الـدولة المملوكية الثانية وهي دولة المماليك البرجية أو الجراكسة ، ذلك أنه كان مغرماً بشراء أعداد كبيرة من المماليك ، انتقـى منهم نحو ثلاثـة آلاف وسبعمائـة من الجركس والآص أسكنهم أبراج القلعة وسماهم البرجية واعتنى بتربيتهم وإعدادهم حتى صار يعتمد عليهم في الحرب والإدارة ، وكان برقوق أول سلاطين المماليك البرجية من أفراد هذه الطائفة .

وهكذا نجد أن السلطان قلاوون قد ترك طابعه على جميع السـلاطين الذين جاءوا بعده سواء من البحرية أو البرجية .

ويضاف إلى ما سبق أن السلطان قلاوون استطاع خلال فترة حكمه أن يحقق كثيراً من الإصطلاحات الداخلية والانتصارات الخارجية على المغول والصليبيين ،

كذلك تبودلت الرسل فيما بينه وبين الملوك والحكام المعاصرين له في كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا .

كذلك انتعشت أحوال البلاد الداخلية واستقرت الأوضاع الاجتماعية في عهد السلطان قلاوون .

وفي مجال النشاط العمراني كان السلطان قلاوون مغرماً بالإنشاء والتعمير فدفع بحاسته المرهفة حركة الإنشاء والتعمير دفعة قوية نشطة ، إذ أمر بإنشاء الكثير من المنشآت المعمارية في الشام ومصر ، وتعد مجموعته المعمارية الباقية بشارع المعز لدين الله بالقاهرة هي درة منشآته جميعها سيتضح لنا في سياق هذا البحث .

ولما كان موضوع هذا البحث يختص بدراسة مجموعة السلطان قلاوون بشارع المعز لدين الله دراسة تاريخية وأثرية ، لذلك رأيت أن أتناول هذا البحث في بابين ، يتناول الباب الأول دراسة تاريخية لسيرة السلطان قلاوون وأحوال مصر في عهده ، وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول ، يتناول الفصل الأول منها قلاوون والسلطنة ، والفصل الثاني يتناول أحوال مصر في عهد السلطان قلاوون ، والفصل الثالث يتناول العلاقات الخارجية الودية والحربية في عهد السلطان قلاوون .

أما الباب الثاني فيتناول دراسة مجموعة السلطان قلاوون الباقية بشارع المعز لدين الله ، وينقسم هذا الباب إلى أربعة فصول ، يتناول الفصل الأول منها البيمارستان المنصوري ، والفصل الثاني يتناول القبة المنصورية ، والفصل الثالث يتناول المدرسة المنصورية ، أما الفصل الرابع والأخير فيتناول دراسة تحليلية لما تضمنته مجموعة السلطان قلاوون من وحدات وعناصر معمارية وزخرفية .

وقد اعتمدت في هذا البحث على عدد كبير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية .

فبالنسبة للمصادر العربية نجد من أهمها تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ، تذكرة البنية لابن حبيب ، تاريخ ابن الفرات ، السلوك ، والخطط للمقريزي ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، بدائع الزهور لابن أياس ، هذا فضلاً عن بعض مصادر الرحالة ومنها رحلة ابن بطوطة ، رحلة البلوي ورحلة الحسن الوزان المعروف بليون الأفريقي .

أما المراجع العربية الحديثة فمن أهمها مؤلفات كل من أ . د جمال الدين سرور وبخاصة دولة بني قلاوون ، أ. د سعيد عاشور وبخاصة المجتمع

المصري ، العصر المماليكي ، الأيوبيون والمماليك ، مصر في العصور الوسطى ، ومؤلفات أ . د سعاد ماهر محمد وبخاصة موسوعة مساجد مصر وأولياؤها الصالحون التي صدرت في خمسة أجزاء متتالية ، ومؤلفات أ . د كمال الدين سامح وخاصة تطور القبة في العمارة الإسلامية ، والعمارة الإسلامية في مصر . ومؤلفات أ . د محمد محمد أمين وبخاصة الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ووثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري ، ومؤلفات الأستاذ حسن عبد الوهاب وبخاصة تاريخ المساجد الأثرية ، ومؤلفات الدكتور محمد سيف النصر وبخاصة منشآت الرعاية الاجتماعية ، مدرسة السلطان قلاوون ـ دراسة أثرية في ضوء وثيقة جديدة ، إلى غير ذلك من المراجع والدوريات العربية المدونة في ثبت المراجع بنهاية البحث .

أما المراجع الأجنبية فمن أهمها ما كتبه كل من هرتز باشا وفان برشم ، هوتكيروفييت وريشموند ، وكريزول وغيرهم عن مجموعة قلاوون سواء من حيث تخطيطها وعناصرها المعمارية والزخرفية أو من حيث الكتابات التسجيلية المسجلة عليها .

وبعد فإذا كنت قد وقفت فيما قصدت إليه فلله الحمد وهو من وراء قصدي خير معين ، وإن كنت قد قصرت فحسبي أن يكون هذا البحث لبنة صغيرة في مجال الدراسات الأثرية والتاريخية .

والله أسأل أن يحتل هذا البحث مكانه اللائق بين الأبحاث العلمية الجادة والمميزة وعلى الله قصد السبيل .

الباب الأول

الدراسة التاريخية
السلطان قلاوون وأحوال مصر في عهده
٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م

الفصـــل الأول

قلاوون والسلطنة

أولاً : قلاوون قبل السلطنة :

لا تكاد تتميز سيرة قلاوون ـ قبل أن يتبوأ عرش السلطنة المملوكية ـ عن سيرة كثير من الأمراء المماليك بصفة عامة ومن ارتقى منهم العرش بصفة خاصة . ذلك أنه من المعروف أن تاريخ المراحل الأولى من حياة هؤلاء الأمراء قد اتسم بالغموض والإبهام : إذ تضاربت روايات المؤرخين ، وتباينت أقوالهم حول أصلهم ونشأتهم الأولى . وربما يرجع ذلك إلى أن هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا على الروايات الشفهية التي تتعرض للتغيير والتبديل من وقت لآخر بل وبمجرد انتقالها من قسم لآخر .

وفي ضوء ذلك لا ننتظر إجماعاً على رواية واحدة عن نشأة قلاوون في المصادر التاريخية المختلفة ، وإن كانت أغلب هذه المصادر قد اتفقت على أمر واحد ، وهو أن قلاوون تركي الجنس ومن مواليد القبيلة المعروفة ببرج أغلى ببلاد القفجاق أو القبجاق في جنوب روسيا[١] .

ولم يرد في المصادر ذكر تاريخ مولده ، وكل ما ورد بشأن هذه المرحلة الأولى من حياته ، هو أنه جلب إلى مصر صغيراً[٢] ، وذلك بعد أن استولى المغول ـ التتار ـ على بلاده ٦٤٠ هـ/١٢٤٢ م[٣] .

---

(١) بيبرس الدوادار : ت ٧٢٥ هـ/١٣٢٤ م
زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ـ ج٩ ـ تحقيق زبيدة عطا ـ (رسالة دكتوراه ـ مخطوط ـ حامعة القاهرة ١٩٧٢ م) . ص ١٧٠ .
المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي) . ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م
السلوك لمعرفة دول الملوك ـ تحقيق د . زيادة ج ١ ق ٣ . ط ٢ ـ القاهرة ١٩٧٠ م ـ ص ٦٦٣ .

(٢) المقريزي : المصدر نفسه ـ والصفحة نفسها .

(٣) بيبرس الدوادار: المصدر السابق والصفة نفسها .

وفي قول آخر إنه جاء إلى مصر كبيراً ومن ثم كان « معجم اللسان لا يكاد يفصح بالعربية »[1] .

ويمكننا أن نتوصل إلى بعض الحقائق عن الأمير قلاوون في ضوء الألقاب التي كانت تطلق عليه ـ شأنه في ذلك شأن غيره من أمراء المماليك في ذلك العصر ـ فهو سيف الدين قلاوون بن عبد الله التركي الألفي العلائي الصالحي النجمي .

ولقب سيف الدين يسمى في مصطلح الألقاب بلقب التعريف الخاص أو اللقب المضاف إلى الدين . وكان اتخاذ هذا اللقب شائعاً بين أفراد الطبقة العسكرية ، وذلك لاشتماله على لفظة سيف ، وكان قلاوون فعلاً من أفراد هذه الطبقة[2] .

وقلاوون اسمه ويقال إنها لفظة تركية معناها البط ولذلك شاعت رسوم البط في زخارف التحف التطبيقية التي صنعت في عصر دولة ابن قلاوون ولا سيما التحف المعدنية التي ترجع إلى عهد الناصر محمد بن قلاوون[3] .

وعبارة ابن عبد الله تشير إلى أن قلاوون كان مجهول الأب ، وكان هذا شأن معظم المماليك لأنهم كانوا يسترقون أطفالاً ويباعون بعيداً عن أوطانهم الأولى ، ولذلك كان يقال للواحد من هؤلاء «ابن عبد الله» فإن أباه أياً كان لا بد وأن يكون عبداً لله[4] .

والتركي نسبة إلى الجنس التركي ، وكان قلاوون كما سبق القول ينتمي إلى هذا الجنس .

---

(١) ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف) : ت ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ج٧ ـ تحقيق محمد رمزي ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ سلسلة تراثنا ص ٣٢٥ .

(٢) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ـ ط٢ ـ القاهرة ١٩٧٨ م ـ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٥ .
سيف الدين قلاوون ـ بحث في كتاب القاهرة ـ مؤسسة الأهرام ١٩٧٠ م ـ ص: ١٣٤ .

(٣) ومن أشهر هذه التحف المعدنية كرسي الناصر محمد بن قلاوون المحفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ويرجع إلى سنة ٧٢٨ هـ/١٣٢٨ م .
حسين عليوه : كرسي الناصر ـ بحث في كتاب القاهرة ـ مؤسسة الأهرام ١٩٧٠ م ص ٥٣٢ ، ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

(٤) حسن الباشا : الألقاب ـ ص ٣٩٦ ـ سيف الدين قلاوون ـ ص ١٣٤ .

والألفي نسبة إلى الألف دينار ، وكان قلاوون قد اشترى بألف دينار ، وهذا اللقب يشير إلى أنه كان مملوكاً يتمتع بمواصفات ومميزات خاصة لا تتوفر في غيره ، ويذكر بيبرس الدوادار أن الأمير علاء الدين اشترى قلاوون « بألف دينار وغالى في قيمته لجنسه وصورته فعرف بالألفي لذلك »[١] .

والعلائي : نسبة إلى الأمير علاء الدين أقسنقر[٢] الذي اشترى قلاوون بالمبلغ الضخم السابق الإشارة إليه .

والصالحي النجمي : نسبة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م) .

وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين الأيوبيين في مصر ، ومن المعروف أنه عندما توفي الأمير علاء الدين ، المشار إليه سابقاً سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م ، انتقل مماليكه ومنهم قلاوون إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فعرفوا بالعلائية ، ثم أن السلطان الصالح جعل قلاوون من جملة المماليك البحرية الذين أسكنهم قلعة الروضة ونسبوا إليه فقيل لهم الصالحية[٣] .

وعندما قتل السلطان المعز أيبك التركماني الأمير فارس الدين أقطاي ٦٥٢ هـ/١٢٥٤ م . زعيم المماليك البحرية في ذلك الوقت ، خرج الأمير قلاوون من مصر فيمن خرج من المماليك البحرية في ذلك الوقت ، ويقال إن عددهم بلغ نحو السبعمائة فارس[٤] .

---

(١) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ـ ص ١٧٠ .

(٢) اختلفت المصادر بشأن هذا الأمير فمنهم من ذكر أنه الأمير علاء الدين أقسنقر الكاملي أحد مماليك الكامل محمد الأيوبي ، ومنهم من ذكر أنه الأمير علاء الدين أقسنقر الساقي العادلي أحد مماليك العادل أبي بكر بن أيوب .
بيبرس الدوادار: المصدر السابق ، ص ١٧٠ ، المقريزي : السلوك ـ ص ٦٦٣ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .
ابن إياس : (محمد بن أحمد بن إياس) ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٣ م .
بدائع الزهور في وقائع الزهور ـ ج ١ ق ١ ـ تحقيق محمد مصطفى ـ القاهرة ١٩٨٢ م ـ ص ٣٤٧ .

(٣) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ـ ص ١٧١ .
المقريزي : السلوك ـ ص ٦٦٣ .

(٤) المقريزي : الخطط ـ ج ١ ص ٣٨٣ .
وتجدر الاشارة إلى أن هؤلاء المماليك البحرية ، قد خرجوا ليلاً من باب القراطين ـ أحد أبواب =

وسار هؤلاء المماليك البحرية إلى الملك الناصر يوسف[١] صاحب حلب ، فما كان منه إلا أن « قبلهم وأنعم عليهم وأقطعهم إقطاعات واستكثر منهم » . ولما علم المعز أيبك بخروجهم إلى الشام أوقع الحوطة على « جميع أموالهم ونسائهم وأولادهم وعامة تعلقاتهم وسائر أسبابهم وتتبعهم ونادى عليهم في الأسواق بطلب البحرية وتحذير العامة من اخفائهم فصار إليه من أموالهم ما ملأ عينيه »[٢] .

وظل قلاوون ـ هو ومن معه من المماليك البحرية ـ في البلاد الشامية ، إلى أن قتل الملك المعز أيبك وخلع ابنه المنصور علي وتسلطن الأمير قطز فعاد قلاوون هو والأمير بيبرس البندقداري ومن معهما[٣] .

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المماليك البحرية قد أسهموا بدور جليل الشأن في المعركة الفاصلة بين المغول والمماليك والتي دارت رحاها في عين جالوت ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م[٤] .

وعقب مقتل السلطان المظفر قطز في أواخر أكتوبر ١٢٦٠ م ، خلا الجو للمماليك البحرية ولزعيمهم في ذلك الوقت الأمير بيبرس، الذي جلس على عرش السلطنة المملوكية ، ويعتبر بحق هو المؤسس الحقيقي لها[٥] .

= القاهرة الشرقية ـ ولما وجدوه مغلقاً كما هي عادة أبواب القاهرة في الليل ألقوا النار في الباب حتى سقط من الحريق وخرجوا منه ، فقيل له من ذلك الوقت الباب المحروق وعرف به ، المقريزي : نفس المصدر والصفحة .

(١) تقلبت الأحوال بهؤلاء المماليك البحرية ـ وهم بلاد الشام ـ فعندما تم الصلح بين الناصر يوسف والمعز أيبك انتقلوا إلى المغيث عمر صاحب الكرك وأطمعوه في ملك مصر ، كذلك جرت لهم في هذه الفترة أمور كثيرة .
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس (أعلام العرب ـ رقم ١٤ ـ القاهرة ١٩٦٣ م ـ ص ٢٨ ـ ٢٩) .

(٢) المقريزي : الخطط ـ ج ١ ص ٣٨٣ .

(٣) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ـ ص ١٧١ ، المقريزي : الخطط ـ ج ١ ـ ص ٣٨٣ .
وأشار بيبرس الدوادار إلى أن الأمير قلاوون والأمير بيبرس ذهبا إلى مدينة الخليل ، وقابلا الشيخ علي المعروف بالبكا الذي أخبر قلاوون بأنه سيتولى السلطنة . نفس المصدر والصفحة .

(٤) عن تفاصيل هذه المعركة وأهميتها ـ انظر :
سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ـ ط١ ـ القاهرة ١٩٦٥ م ـ ص ٣٢ ـ ٣٨ .
الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ـ القاهرة ١٩٦٩ م ـ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣ .

(٥) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص ٣٤ ، ٣٧ .

وخلال عهد الظاهر بيبرس ارتفعت منزلة الأمير قلاوون ، وفي ذلك يذكر بيبرس الدوادار أن الأمير قلاوون « ارتقت في دولة الظاهر مرتبته ، وارتفعت درجته وعظمت لديه منزلته ، ووفر في نفس الملك الظاهر ، أن الملك بعده إليه سائر ، فأراد الاعتضاد لولده به والمظافرة »[1] .

وتفصيل ذلك أن السلطان بيبرس ، عندما أحس بازدياد نفوذ الأمير قلاوون ، وعظم مكانته ، خشي أن يهدد ذلك مشروعاته المقبلة بخصوص حفظ منصب السلطنة من بعده لإبنه الملك السعيد ، لذلك لجأ بيبرس إلى حيلة قوية ، ظناً منه أنها تضمن بقاء العرش من بعده لأبنائه ، وهي أنه زوج ابنه الملك السعيد بركة من غاذية خاتون ابنه الأمير قلاوون ٦٧٤ هـ/١٢٧٥ م ، وبذلك ظن بيبرس أن قلاوون لن يطمع في انتزاع الملك من زوج ابنته[2] .

ويعلق بيبرس الدوادار على هذه المصاهرة بقوله : «فما أجمل السعيد معه ـ أي مع قلاوون ـ الصحبة ، ولا رعى له حق القرية ، فقطع ما بينهما بقلة إنصافه ، وعامله بما كان سبباً لانحرافه»[3] .

وتفصيل ذلك أنه عندما توفي الظاهر بيبرس بدمشق ٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م ، جدد الأمراء البيعة لابنه الملك السعيد بركة خان ، كذلك بايعه سائر العسكر والقضاء والأعيان ، ودعا له الخطباء على منابر الجوامع في مصر والقاهرة .

وقد قرب الملك السعيد إليه جماعة من المماليك الأحداث ، وسرعان ما ازداد نفوذهم ، وصاروا يتدخلون في تعيين نواب السلطنة وعزلهم ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل تدخل مماليك السلطان الخاصكية في توزيع الإقطاعات وأدى ذلك إلى قيام النزاع بين الملك السعيد ونائب السلطنة سيف الدين كوندك الساقي الذي تمكن من ضم جماعة من كبار الأمراء إليه . وكان من أثر تحيز السلطان لمماليكه وإطلاقه يدهم في إدارة شئون الدولة وإغداقه الأموال الوفيرة عليهم ، أن استاء منه الأمراء الصالحية وخاصة الأمير قلاوون ، والأمير سنقر الأشقر ، والأمير سنجر الحلبي ، وهؤلاء كانوا جميعاً يأنفون من تولية الظاهر بيبرس سلطاناً عليهم ، ويرون أنهم أحق منه بالملك .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ـ ص ١٧١ .
(٢) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ـ ص ٢٥١ .
(٣) بيبرس الدوادار : ذبدة الفكر ـ ص١٧١ .

ولما ازداد النفور بين السلطان والأمراء ، عوّل على التخلص منهم ، فسجن بعضهم ، وكان لعمله هذا أسوأ الأثر في نفوس زملائهم ، فاجتمعوا مع أجنادهم ، وأتباعهم ومن انضم إليهم بإيوان قلعة الجبل ، وبعثوا إلى السلطان بكتاب هددوه فيه بالإقلاع عن هذه السياسة [١] .

ومما جاء في هذا الكتاب « إنك قد أفسدت الخواطر ، وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع عما أنت عليه ، وإلا كان لنا ولك شأن »[٢] .

وهكذا ظلت العلاقة بين الملك السعيد وكبار الأمراء تهدأ حيناً وتسوء أحياناً ، حتى انتهى الأمر بأن حاصر الأمراء القلعة ١٢٧٩ م ، وقطعوا عنه الماء ، وأصروا على أن يخلع نفسه من السلطنة ، وعندما لمس السلطان خطورة موقفه ، طلب من الأمراء أن يعطوه الكرك فأجابوه إلى ذلك[٣] .

ويضيف العيني على ذلك فيذكر أن الأمير سيف الدين قلاوون طلع القلعة ومعه الأمراء وأنه « تصرف في التدبير في أمر المملكة من الأمر والنهي والأخذ والعطاء ، ولم يسفك في هذه الحركة إلا دم رجل واحد . . . »[٤] .

ولما رحل الملك السعيد إلى الكرك ، عرض كبار الأمراء على الأمير سيف الدين قلاوون السلطنة وقالوا له « أنت أولى بتدبيرها ، وأحق بتقليد أمورها ، فأبى وقال : أنا لم أخلع الملك السعيد شرهاً إلى السلطنة ، وحرصاً على المملكة لكن حفظاً للنظام ، وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليهم الأصاغر ويمتهنوا منهم الأعيان والأكابر ، ويضيعوا مصالح العسكر ، والأولى أن يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر . . . »[٥] .

ويدل هذا التصرف من الأمير قلاوون ، على أنه كان يتمتع بقدر من الذكاء ، وبعد النظر ، ذلك أنه رأى أن أغلبية الجيش كانت من الظاهرية ، أنصار الظاهر بيبرس ، فخشي قيامهم بالثورة ضده ، كما أن أكثر البلاد ، كان يتولى إدارتها أمراء

---

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة ابن قلاوون في مصر ـ القاهرة ١٩٤٧ م ـ ص: ١٩ ـ ٢٠ .
(٢) المقريزي : السلوك ـ ج ١ ق ٢ ص ٦٤٥ .
(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص ٦٦ .
(٤) العيني (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م .
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ـ ج٢ ـ تحقيق محمد محمد أمين القاهرة ١٩٨٨ م ـ ص ٢٢٢ .
(٥) العيني المصدر نفسه ـ ص ٢٢٣ .

موالون لأسرة بيبرس ، لذلك عوّل على عدم قبول منصب السلطنة ، إلا بعد إقصاء هؤلاء الأمراء عن مناصب الدولة ، وحبذ الأمراء الموالون له هذا الرأي ، واتفقوا على تولية الأمير بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس ـ وعمره سبع سنين ـ سلطنة مصر ، ولقبوه بالملك العادل ، واختير الأمير قلاوون أتابكاً له[1] .

واستغل قلاوون صغر سن الملك العادل ، وأخذ يمكن لنفسه ، وفي ذلك يقول العيني أنه « أحضر من كان من البحرية الصالحية منسياً ، وقرب من كان منهم مبعداً مقصياً ، فأعطاهم الإقطاعات وأحسن إليهم ما استطاع، ومنهم من عين له جامكية ، ومنهم من رتب له جراية ، وجازى المماليك الظاهرية بسوء أفعالهم ، وأذاقهم وبال أمرهم ، وأمر وبالهم ، وقبض على أعيانهم الذين سعوا في تخريب بيت مخدومهم وبيوتهم ، وأرسلهم إلى الثغور ، فأدعوا السجون ، ومع ذلك لم يقطع عنهم براً ، ثم أفرج عنهم واحداً بعد واحد على أحسن حال ، وأعاد على بعضهم أمرته »[2] .

ويكفي للدلالة على ازدياد نفوذ قلاوون في تلك الفترة ، ما ذكره المؤرخون من أن السكة ـ النقود ـ ضربت بوجهين « وجه عليه اسم سلامش ووجه عليه اسم قلاوون »[3] كذلك دعي له على المنابر مع السلطان في خطبة الجمعة[4] ، ويعلق المقريزي على ذلك فيذكر أن قلاوون « تصرّف تصرف المملوك مدة ثلاثة شهور »[5] .

وأخيراً استقر الرأي على خلع السلطان ، ونفيه إلى الكرك ، وتولية قلاوون عرش السلطنة ووردت بهذا الشأن روايتين : الأولى ذكرها المقريزي وقال إن قلاوون جمع الأمراء وتحدث معهم في صغر سن الملك العادل ، وقال لهم : « قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل »[6] .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ـ ص ٢١ ـ ٢٢ .
(٢) العيني : عقد الجمان ـ ج ٢ ص ٢٢٥ .
(٣) ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي) : ت ٦٧٤ هـ/ ١٣٦٢ م فوات الوفيات ج ٢ حققه وضبطه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٥١م ـ ص.٢٦٩ .
(٤) السيوطي (جلال الدين) ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ـ ج٢ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ج٢ ـ ط١ ـ القاهرة ١٩٦٨ م ـ ص ١٠٦ .
(٥) المقريزي : السلوك ـ ج ١ ق ٣ ـ ص ٦٦٣ .
(٦) المقريزي : السلوك ـ ج ١ ق ٢ ـ ص ٦٥٨ .

ومن ثم اتفق على خلع السلطان الملك السعيد ونفيه إلى الكرك وتولية قلاوون السلطنة كما سبق القول .

والرواية الثانية ذكرها العيني فقال أنه « لما أحكم قلاوون الأمور ، وأحسن سياسة الجمهور ، اجتمع أكابر الأمراء ، وأماثل ذوي الآراء على أنه لا فائدة في بقاء ذلك الصبي لانتشار السمعة في البلاد ، وامتهان الحرمة في أنفس الحواضر والبواد ، وأن الرأي جلوس المخدوم ـ أي قلاوون ـ في الدست استقلالاً ليزداد الملك بهجة وجلالاً ، فأجابهم بالاستبداد بالأمور ، ولقب الملك المنصور وخلع سلامش من السلطنة . . . »[1] .

وهكذا لم يبق سلامش في السلطنة أكثر من ثلاثة شهور ، وأرسل مع أخيه خضر إلى قلعة الكرك ، منفى أبناء السلاطين المعزولين في عصر المماليك[2] .

ثانياً : قلاوون والسلطنة :

جلس قلاوون على تخت الملك في شهر رجب ٦٧٨ هـ/١٢٧٩ م ، وحلف له الأمراء وأرباب الدولة وتلقب بالملك المنصور ، ويضيف المقريزي فيذكر أن الملك المنصور ، أمر أن يكتب « في صدر المناشير والتواقيع والمكاتبات لفظ الصالحي ، فكتب بذلك في كل ما يكتب عن السلطان ، وجعل على يمين البسملة تحتها بشيء لطيف جداً ، وخرج البريد بالبشائر إلى الأعمال ، وجهزت نسخة اليمين إلى دمشق وغيرها ، وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما وقلعة الجبل ، وأقيمت له الخطبة بأعمال مصر »[3] .

وكان من الطبيعي أن يعمل السلطان قلاوون على تدعيم قوته بإسناده المناصب الكبرى إلى خشداشيته[4] أي زملائه فعين بعضهم في المناصب الكبرى مثل نيابة السلطنة ، وأنعم على بعضهم الآخر بتقادم ألوف وغير ذلك[5] ، كذلك رفع السلطان

---

(١) العيني : عقد الجمان ـ ج ٢ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٢) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ٢٥٤ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٣ ـ ص ٦٦٣ .

(٤) عن معنى هذا المصطلح ومترادفاته المختلفة خلال العصر المملوكي راجع :
أحمد عبد الرازق : العلاقات الأسرية في المصطلح المملوكي (المجلة التاريخية المصرية ـ في ٢٣ ـ ١٩٧٦ م) ص ١٥٥ ، ١٦٧ ـ ١٧١ .

(٥) المقريزي : المصدر السابق ـ ص ٧٥٥ ، ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ـ ق ١ ـ ص ٣٤٨ .
وتجدر الإشارة إلى أن السلطان قلاوون ، ضرب مثلاً في الوفاء لبعض خشداشيته عندما قرب إليه الأمير بلبان ، فصار يرعى له حق الخشداشية ويعوده ، أثناء مرضه في بيته . أحمد عبد الرازق : المرجع السابق ـ ص: ١٦٩ .

قلاوون من « قدر عتائقه وألزامه ، وصيرهم ولاة الأمور ، وقادة العساكر ، ونواباً في الممالـك »[1] .

ولم يلبث السلطان قلاوون أن تعرض في أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي تعرض لها غيره من سلاطين المماليك ، ونقصد بهذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على السلطان الجديد لأنهم يأنفوا الخضوع لواحد منهم ، أو لاعتقادهم أنهم أجدر منه بالسلطنة[2] .

وتفصيل ذلك أنه لم يكد السلطان قلاوون « يبلع ريقه » على حـد قول ابن تغري بردي[3] حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر نائب الشام ، الذي رفض الاعتراف بخلع الملك العادل سلامش ، وتولية قلاوون سلطنة مصر ، فدعا أهـل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل ، وخطب له على منبر الجامع الأموي بها ، ولم تقتصر دعوته على بلاد الشام بل كاتبه بعض الأمراء الصالحية والظاهرية ، ولما علم قلاوون بخروج سنقر عليه ، أرسل إليه كتاباً أنحى فيه عليه باللائمة ،كما حث أمراء مصر على طاعته خشية الفتنة[4] .

ولم يكتف السلطان قلاوون بذلك ، بـل أنفذ أكبر حملة ضد سنقر الأشقر الذي كتب إلى إيلخان المغول أبغا بن هولاكو يحثه على غزو الشام ، وكتب معه أيضاً الأمير عيسى بن مهنا بمثـل ذلك[5] ، وأخيـراً خضع سنقـر الأشقر وطلب الأمـان ٦٨٦ هـ/١٢٨٧ م ، وبذلك دانت بلاد الشام للسلطان قلاوون[6] .

وقـد استـطاع السلطان قـلاوون خـلال فتـرة حكمـه ، أن يحقق كثيـراً من الاصلاحات الداخلية والانتصارات الخارجية ، فضلاً عما كان يمتاز به من الصفات الطيبة والخصال الحميدة .

كذلك انتعشت في عهـده أحوال مصـر السياسيـة والاقتصاديـة والاجتماعيـة

---

(١) العيني : المصدر السابق ـ ٢٢٧ .
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٦٧ .
(٣) ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٢٩٢ .
(٤) محمد جمال الدين سرور : دولة ابن قلاوون ـ ص: ٢٣ .
(٥) أحمد عبد الكريم سليمان : المغول والمماليك في عهد دولـة بني قلاوون ـ ط١ ـ القـاهرة ـ ١٩٨٤ م ـ ص: ١٤ .
(٦) سعيد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ٦٧ .

والفنية ، وهذا هو ما سنوضحه فيما يستقبلنا من صفحات الفصلين التاليين .

ثالثاً : صفاته وشخصيته :

لم يخل مصدر من المصادر التاريخية التي أرخت للعصر المملوكي بعامة ، وعصر المماليك البحرية ودولة بني قلاوون بخاصة ، من الإشادة بالسلطان الملك المنصور قلاوون ، ووصفه بأطيب الصفات ، وأروع الخصال ، وفي ضوء ذلك فسر هؤلاء المؤرخون بقاء الحكم في بيته مدة طويلة لأن الله أكرمه في ذريته وجازاه بالحسنى على طيب أفعاله[١].

ومن هؤلاء بيبرس الدوادار ووصفه بقوله : « وكان وسيماً جسيماً ، حسناً ، قسيماً تاملاً ، نبيلاً ، بهياً ، جميلاً ، من أحسن الأتراك صورة ، وأكرمهم هيبة ، تعلوه جلالة وحشمة ، وتقارنه مهابة وحرمة »[٢] .

ومنهم ابن شاكر الكتبي ووصفه بقوله : « وكان من أحسن الناس صورة في صباه ، وأبهاهم ، وكان تام الشكل ، مهيباً ، مستدير اللحية ، قد وخطه الشيب ، على وجهه هيبة الملك ، وعليه سكينة ووقار »[٣] .

ووصفه المقريزي بقوله : « وكان جميل الصورة ، مهيباً ، عريض المنكبين ، قصير العنق ، فصيحاً بلغة الترك والقبجاق ، قليل المعرفة بالعربية »[٤] .

وأورد ابن تغري بردي وصفه نقلاً عن الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام فقال : « وكان من أحسن الناس صورة في صباه ، وأبهاهم ، وأهيبهم في رجولته ، وكان تام الشكل ، مستدير اللحية ، قد وخطه الشيب ، على وجهه هيبة الملك ، وعلى أكتافه حشمة السلطنة ، وعليه سكينة ووقار »[٥] .

ووصفه ابن إياس بقوله : « وكان حسن الشكل ، قصير القامة ، دري اللون ، وكان قليل الكلام بالعربي ، عظمي اللسان »[٦] .

أما عن شخصية السلطان قلاوون ، فقد أثنى جميع المؤرخين على شجاعته

---

(١) سعيد عاشور (والرافعي) . مصر في العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٨٦ م ـ ص: ٤٦٨ .
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ـ ص: ١٧٠ .
(٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ـ جـ ٢ ـ ص: ٢٦٩ .
(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٣ ـ ص: ٧٥٦ .
(٥) ابن تغري بردي : النجوم جـ ٧ ـ ص: ٣٢٥ .
(٦) ابن أياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٦١ .

وحلمه ، وعفته ، وكرهه للأذى ، ومن هؤلاء بيبرس الدوادار ووصفه بقوله : « وكان حليماً عفيفاً في سفك الدماء ، مقتصداً في العقاب ، كارهاً للأذى »[1] .

ووصفه ابن فضل الله العمري بقوله : « وكان رجلاً مهيباً شجاعاً »[2] .

ووصفه ابن شاكر الكتبي بأنه كان « ملكاً عظيماً لا يحب سفك الدماء »[3] .

ووصفه ابن حبيب بأنه كان « ملكاً مهيباً ، حليماً ، قليل سفك الدماء ، كثير العفـو ، شجاعاً ، خيراً ، حسن السياسة ، تام الشكل ، وافر الوقار ، عليه جلالة عظيمة »[4] .

ووصفه ابن تغري بردي بأنه كان « سلطاناً كريماً ، حليماً ، شجاعاً ، مقداماً ، عادلاً ، عفيفاً عن سفك الدماء ، مائلاً إلى فعـل الخير والأمر بالمعروف »[5] .

ووصفه ابن شاهين الملطي بأنه كان « ملكاً عاقلاً ، شهماً ، جليلاً ، من أجل ملوك الإسلام »[6] .

ووصفه ابن أياس بأنه كان « شجاعاً ، بطلاً ، مقداماً في الحرب »[4] .

ويكفي للدلالة على قوة شخصية السلطان قلاوون أن تذكر ما ذكره ابن تغري بردي من أن حرمته كانت عظيمة على « مماليكه بحيث لا يستطيع الواحد منهم أن ينهر غلامه ، ولا خادمه خوفاً منه ، ولا يتجاهر أحد منهم بفاحشة ، ولا يتزوج إلا إن زوجه هو بعض جواريه هذا مع كثرة عددهم »[8] .

---

(١) نقلاً عن سعيد عاشور (والرافعي) : مصر في العصور الوسطى ـ ص: ٤٦٨ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ـ جـ ٢ ـ ص: ٢٧٠ .
(٤) ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م .
تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ـ جـ ١ ـ تحقيق د. محمد محمد أمين
مراجعة وتقديم د . سعيد عاشور ـ مطبعة دار الكتب ١٩٧٦ م ـ ص: ١٣٥ .
(٥) ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢٦ .
(٦) ابن شاهين الملطي (عبد الباسط بن خليل) .
نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السـلاطين ، تحقيق محمد كمـال الدين ط ١ ـ القـاهرة ١٩٨٧ م ـ ص: ٧٩ .
(٧) ابن إياس: المصدر السابق ـ ص: ٣٦١ .
(٨) ابن تغري بردي : النجوم ـ ج ٧ ـ ص: ٣٢٧ ـ ٢٣٨ .

ويضيف ابن تغري بردي فيقول : « إنه لو لم يكن من محاسن السلطان قلاوون إلا تربية مماليكه» ، وكف شرهم عن الناس ، لكفاه ذلك عند الله تعالى ، فإنه كان بهم منفعة للمسلمين ، ومضرة للمشركين ، وقيامهم في الغزوات معروف ، وشرهم عن الرعية مكفوف »[١] .

رابعاً : وفاته :

لم يكد يفرغ السلطان قلاوون من كافة استعداداته الحربية ، من أجل الخروج لفتح عكا ، حتى دهمه الموت فجأة وهو بمخيمه ـ وقيل بدهليزه ـ تجاه مسجد[٢] التبر ظاهر القاهرة ، وكان ذلك في ٦ ذي القعدة ٦٨٩ هـ/١٢٩٠ م[٣] .

وبعد أن تم تجهيز السلطان قلاوون ، وتغسيله وتكفينه بالقلعة ، أنزل منها في

---

(١) نفس المصدر ـ ص: ٣٢٨ .

(٢) هذا المسجد خارج القاهرة مما يلي الخندق ـ الدمرداش حالياً ـ عرف قديماً بالبئر والجميزة وعرف بمسجد تبر ، وتسمية العامة التبن وهو خطأ ، وتبر هذا من أمراء كافور الإخشيدي ، وموضعه خارج القاهرة قريباً من المطرية .
المقريزي : الخطط جـ ١ ـ ص: ٤١٣ .
السخاوي : (ابن الحسن نور الدين علي) .
تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ـ قام بتصحيحه ومراجعته والتعليق عليه محمود ربيع وحسن قاسم ـ ط ١ ـ ١٩٣٧ م ـ ص: ١٠ .
ويذكر (حسن قاسم) في تعليقاته على تحفة الأحباب (ص: ١٠ ـ هامش ١) أن هذا المسجد لا يزال موجوداً حتى اليوم بالمطرية بشارع البرنس ، ويعرف بجامع السيد إبراهيم وعليه ضريح يزار .
ونضيف فنقول إنه كان لهذا المسجد دور كبير في الأحداث المرتبطة بالعصر المملوكي أثناء ذهاب وإياب السلاطين والأمراء من وإلى القاهرة ، فضلاً عن أنه كان نقطة هامة تبدأ من عندها في بعض الأوقات زيارة القرافة كما أشار بعض مؤرخي كتب المزارات .
محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ـ رسالة ماجستير ـ مخطوط جامعة القاهرة ١٩٨٦ م ـ ص ٩٩ ، ٢١٧ .

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ـ ج ١ ص: ١٣٥ .
المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٥٤ ـ ٧٥٥ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢٥ .
ابن العماد : شذرات الذهب ـ ج. ٥ ـ ص: ٤٠٩ ـ ٤١٠ .
ابن الفرات : (ناصر الدين محمد) : تاريخ ابن الفرات ـ مجلد ٨ تحقيق قسطنطين زريق ، نجلاء عز الدين بيروت ١٩٣٩ م . ص: ٩٧ .

تابوت ، ومشى قدامه الأمراء ، وأعيان الناس إلى أن وصلوا إلى تربته ببين القصرين فدفن بها[1] .

وهكذا انتهت حياة السلطان قلاوون ، بعد أن حكم أحد عشر عـاماً وأشهـر قلائل ، حقق خلالها الكثير من الاصلاحات الداخلية ، والانتصارات الخـارجية ، وهو ما سنوضحه فيما يستقبلنا من صفحات الفصلين التاليين .

---

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ـ جـ ٢ ـ ص: ٢٧٠ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢٦ .
ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٦١ .
ابن الفرات : المصدر السابق ـ ص: ٩٧ .

الفصـــل الثـانــي

أحوال مصر الداخلية في عهد السلطان قلاوون

كانت أحوال مصر الداخلية في عهد السلطان قلاوون حسنة ومزدهرة ، بدليل الانتعاش الذي شمل مختلف أنماط الحياة الدينية والعلمية والعمرانية والاجتماعية والاقتصـاديـة ـ كما سيتضح لنا في سياق هذا الفصل ـ ويكفي عهد السلطان قلاوون خلوه من حدوث الأزمات الاقتصادية الناجمة عن ظهور الأوبئة والطواعين أو توقف زيادة النيل وما يتبعهما من حلول الجدب والفناء وكثرة الموشي[1] .

أولاً : السلطان قلاوون والمظالم :

ومما يحسب للسلطان قلاوون خلال فترة حكمه أنه رغب في أن يخفف الأعباء عن كاهل رعيته ، فأبطل الكثير من المظالم ومنها :

---

(١) لم يرد في المصادر التاريخية المختلفة (التي اطلعت عليها والمدونة في هذا البحث) ، ولا في المـراجع العربية الحـديثة التي تنـاولت الحديث عن الأزمـات الاقتصاديـة في العصـر المملوكي ، أية إشارة عن حدوث أي نوع من أنواع الأزمات الاقتصادية ـ والتي غالباً ما كان يصاحبها نتائج خطيرة في حياة المجتمع المصري ـ خلال عهد السلطان قلاوون .

ومن أهم هذه المصادر (علاوة على المصادر المدونة في البحث) : المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ تقـديم د. بدر الدين السباعي ـ ١٩٥٦ .

أما المراجع العربية فمن أهمها :

سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٣٢٥ ـ ٣٢٨ .

حامد زيان : الأزمات الاقتصـادية والأوبئـة في مصر (عصـر سلاطين الممـاليك) القـاهرة ١٩٧٦ م .

قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م ـ ص: ٥٣ وما يليهـا.

: دراسـات في تاريـخ مصر الاجتمـاعي (عصـر سـلاطين الممـاليـك) ط ١ ـ ١٩٧٩ م . ص: ١٤٧ ـ ١٩١ .

١ - «زكاة الدولبة»[١] وكانت مما أجحفت بالرعية[٢] «ومن ثم رسم السلطان بإبطالها « ورسم بأن يوضع ارتفاعها من وجوه الأملاك وكتب بذلك إلى سائر الأعمال »[٣] .

وقد أمدنا ابن إياس بتفاصيل أكثر عن هذه الزكاة ، فذكر أنه كانت توجد وظيفة قديمة تسمى ناظر الزكوات وموضوعها « أن يؤخذ ممن له مال زكاته في كل سنة ، حسبما تقرر عليه في الدفاتر القديمة ، فإن مات صاحب المال أو عدم ماله ، يؤخذ ما تقرر عليه ، في الدفاتر من أولاده وأولاد أولاده وأقاربه ، ولو بقي منهم واحد فأبطل قلاوون ذلك ، وسطر أجر ذلك في صحيفته إلى يوم - أي تى عهد ابن إياس »[٤] .

٢ - ومنها أنه أبطل سنة ٦٧٨ هـ/١٢٧٩ م « مقرر النصارى»[٥] وكان له منذ أحدث ثمان عشرة سنة[٦] أي أنه حدث في عهد الظاهر بيبرس البندقداري وبالتحديد سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦١ م .

٣ - ومنها أنه أبطل ما كان يؤخذ « من أهل مصر للمبشرين إذا حضروا ببشارة فتح حصن ، أو بنصرة عسكر ، أو بسلامة الحجاج أو ما أشبه ذلك ، فيجبي من أهل مصر على قدر طبقاتهم في السعة ، ويعطي للمبشر ، فأبطل ذلك »[٧] .

---

(١) ذكرها المقريزي في خططه باسم زكاة الدولة « هو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبداً ولو عدم منه وإذا مات يؤخذ من ورثته » .
المقريزي : الخطط - ج: ١ - ص: ١٠٦ .
ويضيف الدكتور « زيادة » فيقول إنها كانت بمثابة ضريبة على الآلات المستعملة بمعنى أن هذه الزكاة كانت تفرض على من يستخدم الدواليب أي الآلات والعجلات في الري أو الغزل أو صناعة السكر وغيرها .
زيادة : السلوك - جـ ١ ق ٣ - ص: ٦٦٤ هامش ١ .

(٢) المقريزي : السلوك - جـ ١ ق ٣ - ص: ٦٦٤ .

(٣) العيني : عقد الجمان - جـ ٢ - ص: ٢٣٠

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور - جـ ١ ق ١ - ص: ٣٦٣ .

(٥) أوضح المقريزي في خططه مقرر النصارى بأنه ما كان يجبى من أهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الأجناد في كل سنة » .
المقريزي : الخطط - جـ ١ - ص: ١٠٦ .

(٦) المقريزي : السلوك - جـ ١ - ق ٣ - ص: ٦٦٤ ، ابن الفرات : المصدر السابق .

(٧) المقريزي : الخطط - جـ ١ - ص: ١٠٦ . مجلد ٧ ص ١٥٢ .
ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ - ق ١ - ص: ٣٦٣ .

٤ ـ ومنها أيضاً أنه أبطل مقرر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة وكان يؤخذ من جميع تجار القاهرة ومصر من كل تاجر دينار[١] .

٥ ـ ومنها أنه أبطل ما كان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل المبارك وذلك « ثمن حلوى وفاكهة وأغنام للشوي برسم السماط الذي يصنع في المقياس يوم وفاء النيل » فأبطل ذلك عن الناس ، وجعل مصروفه من بيت المال[٢] .

وعلاوة على ما سبق أبطل السلطان قلاوون « أشياء كثيرة من هذا النمط » لم يشر إليها كل من المقريزي وابن أياس[٣] .

ثانياً : السلطان قلاوون وأهل الذمة[٤]:

كان أهل الذمة يكونون أقلية ضخمة ذات أهمية في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي حتى قدرهم بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر في ذلك

---

(١) المقريزي : الخطط ـ ج ١ ـ ص: ١٠٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٦٣ .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن المقريزي قد نقض نفسه فيما يخص ركوب السلطان قلاوون إلى المقياس وتخليق العمود وكسر الخليج ، ففي حوادث ٧٨٥ هـ يذكر « أنه لم يعهد بعد الظاهر بيبرس ملك ركب حتى خلق المقياس وفتح الخليج سوى الظاهر برقوق» .

نقلاً عن سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١٧٢ هامش ٢ .

وفي حوادث ٢٦ ربيع الأول ٦٧٩ هـ/١٢٨٠ م ، يذكر أنه عندما وفّى النيل ستة عشر ذراعاً « ركب السلطان إلى المقياس ، وخلق العمود ، ثم ركب في الحراقة وكسر الخليج الكبير ، فكان يوماً مشهوداً .

المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٦٨٠ .

(٣) المقريزي : الخطط ـ جـ ١ ـ ص: ١٠٦ .

ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٦٣ .

(٤) أهل الذمة اصطلاح عرفه الفقه الإسلامي يطلق على من يجوز عقد الذمة معهم ، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، كما اعتبر المجوس أهل ذمة وأخذت منهم الجزية ، واعتبر السامرة والصابئة أهل ذمة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى في أصل عقيدتهم . ومعنى الذمة التزام تقرير « توطين » أهل الكتاب في ديار الإسلام وحمايتهم مقابل الجزية ففي قوله تعالى :﴿حتى يعطوا الجزية﴾ جعلها غاية ما يطلب منهم لقاء ذلك .

قاسم عبده قاسم : أهل الذمة في مصر العصور الوسطى « دراسة وثائقية » ط ٢ ـ ١٩٧٩ م ـ ص: ٢٣ .

العصر بعشرين ألفاً من القاهرة وحدها ، تصفهم من الأقباط ، والنصف الآخر من اليهود[1] .

وقد توفرت عدة عوامل جعلت أهل الذمة يتعرضون إلى بعض الاضطهادات العنيفة خلال العصر المملوكي[2] لا سيما في أوقات الشدة والاضطربات والفتن ، وفيما عدا ذلك تشهد كثير من الكتابات المعاصرة على أنهم تمتعوا في عصر المماليك بكل ما تمتع به إخوانهم المسلمون من حقوق وامتيازات[3] .

وفيما يخص علاقة السلطان قلاوون بأهل الذمة ، نجد أن سياسته قد اتسمت بالشدة والقوة ، وإن كانت لم تخلُ أحياناً من اللين وتخفيف الأعباء عن كاهلهم .

وقد سبق القول أنه عقب توليه منصب السلطنة في رجب ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م ، أبطل مقرر النصارى ، ولكنه في نفس هذا العام وبالتحديد في ٢٤ شوال أمر بصرف كتاب الجيوش المنصورة من النصارى وأن يستخدم بدلاً منهم كتاب مسلمون ، كما رسم في نفس اليوم « بهدم دير الخندق[4] الذي بظاهر القاهرة المحروسة خارج باب

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ـ ط ١ ـ ١٩٦٢ م ـ ص: ٤٠ .

(٢) عن هذه العوامل راجع : سعيد عاشور : نفس المرجع ـ ص: ٤٢ .
قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ـ ص: ٦٣ ـ ٦٤ ، ٨٨ ، ٩١ .

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ٤٢ ، ٤٧ .

(٤) يذكر كل من المقريزي وابن تغري بردي أن هذا الدير كان أولاً داخل القاهرة قبالة حوض الجامع الأقمر قريباً من بئر العظام (وعند العامة بئر العظمة)، وعندما اختط جوهر الصقلي القصر وحفر أساسه هدم هذا الدير ، ونقلت العظام إلى الدير الجديد الذي عمره جوهر بالخندق ومن ثم عرف منذ ذلك الوقت بدير الخندق ، أما الدير القديم فقد عرف موضعه بالركن المخلق .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٥٠٧ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٤ ـ ص: ٣٤ ـ ٣٥ .
ويضيف المقريزي :فيذكر أنه بعد أن هدم السلطان قلاوون الدير ، تم تجديد الدير بعد ذلك ، وعمل كنيستين بعد سنة ٨٠٠ هـ ، وإحداهما على اسم غبربال الملاك والأخرى على اسم مرقوريوس وعرفت برويس وكان راهباً مشهوراً ، وعند هاتين الكنيستين يقبر النصارى موتاهم وتعرف بمقبرة الخندق عوضاً عن كنائس المقس .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٥١١ .
ويذكر الأستاذ محمد رمزي في تعليقاته على النجوم الزاهرة أن كنيسة أنبارويس أقيمت في محل الدير الأصلي وهي لا تزال موجودة بجبانة الأقباط بالدمرداش والكنيسة الثانية تقع بالجهة البحرية من الأولى وتعرف اليوم باسم دير الملاك البحري غربي محطة الدمرداش . =

الفتوح في آخر الحسينية وكان يوماً مشهوداً اجتمع عليه من العالم ما لا يحصى كثرة »[1] .

وفي سنة ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م كانت واقعة النصارى فقد ألزمهم الأمير سنجر الشجاعي « وكانت حرمته وافرة في أيام الملك المنصور قلاوون » بأن يركبوا « الحمير بزنانير في أوساطهم » ووصل الأمر إلى أنه كان « لا يجسر نصراني يحدث مسلماً وهو راكب وإذا مشى فبذله ولا يقدر أحد منهم أن يلبس ثوباً مصقولاً »[2] .

وعلاوة على ما سبق رسم السلطان قلاوون في شعبان ٦٨٨ هـ/١٢٨٩ م « ألا يستخدم أحداً من الأمراء وغيرهم في دواوينهم أحداً من النصارى واليهود ، وحرض على ذلك فامتثل ذلك الأمراء جميعهم »[3] .

ويستدل من نسخة تقليد الشيخ المهذب أبو الحسن المتطبب برئاسة اليهود في ٨ ربيع الآخر ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م على أن السلطان قلاوون قد تعهد بمصالح الرعية « وإن اختلفت مللهم وآراؤهم وتفرقت مذاهبهم وأهواؤهم »[4] .

وفي ضوء ذلك أصدر أمرة بتقليد الشيخ المشار إليه رئيساً لليهود بمختلف طوائفهم وأمره بـ « إصلاح فاسدهم ، وتقويم مايدهم ، وأن يحملهم على منهج دينهم الذي يدينونه ، ويسلك بهم سنن معتقدهم الذي يعتقدونه ، وأن يحسن السيرة فيهم بما يقضي باستقامة أحوالهم ، ويفضي إلى انتظام شملهم ، وتألف أفعالهم وأقوالهم . . . »[5] .

وبالنسبة لرهبان دير سانت كاترين ، فقد أصدر السلطان قلاوون ـ وغيره من سلاطين المماليك ـ مرسوماً ينص على إعفائهم « . . . من الحقوق والرسوم

= ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٤ ـ ص: ٣٥ ـ هامش ١ .

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٥٨ (الجزء المفقود من ابن عبد الظاهر نقلاً عن ابن الفرات) .
المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٦٦٧ ـ ٦٦٨ .

(٢) المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٤٩٧ .

(٣) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٥٣ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢٤ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٢١٦ .

(٥) نفس المصدر ـ ص: ٢١٧

والمقاسمات والأعشار كسابق عادتهم . . . »[1] .

وأخيراً ينبغي أن نشير أيضاً إلى ما اشترطه السلطان قلاوون في حجة وقفة المتعلقة بالبيمارستان[2] المنصوري ، من أنه « ليس للناظر في هذا الوقف أن ينزل بهذا البيمارستان من المرضى ولا من المختلين ولا من الأطباء ولا من المباشرين ولا من أرباب الوظائف بهذا البيمارستان يهودياً ولا نصرانياً ، فإن فعل شيئاً من ذلك أو أذن فيه ففعله مردود وإذنه فيه غير معمول به ، وقد باء بسخطة وإثمه »[3] .

ثالثاً : الإدارة ونظم الحكم والقضاء :

من المعروف أن دولة سلاطين المماليك في مصر ، كانت دولة إقطاعية[4] حربية بكل معاني الكلمة ، ويمثل السلطان قمة الهرم الإقطاعي ، وهو في ذات الوقت رئيس الجهاز الحكومي في البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها .

---

(١) مرسوم قلاوون رقم ٢٢ (عن : قاسم عبده قاسم : أهل الذمة ـ ص: ٧٤) .

(٢) البيمارستان : ويقال له المارستان والبيمرستان والمرستان ، هو مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم، وهو لفظ فارسي مركب من بيسار أي مريض ، وستان أي محل، ويقال له بالتركية خسته خانه أي محل المرضى ، ويطلق البيمارستان أيضاً على المحل المعد لإقامة المجانين .
زيادة : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧١٦ هامش ٦ .
أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ـ ط ٢ ـ بيروت ١٩٨١ م ص: ٤ .
طوبيا العنيسي : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه ـ القاهرة ٦٤ ـ ١٩٦٥ م ـ ص: ١٦ .

(٣) محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري (ملحق تذكرة النبية لابن حبيب ـ جـ ١ ـ القاهرة ١٩٧٦ م) ص: ٣٦٧ ـ سطر ٢٩٤ ـ ٢٩٧ .

(٤) يمثل العصر المملوكي قمة التنظيم الإقطاعي الحربي ، الذي نشأ في عصر البويهيين وطوره السلاجقة على يد نظام الملك ، وورثه الأتابكة فالأيوبيون فالمماليك . عن نشأة هذا النظام وتطوره ولا سيما في العصر المملوكي
(انظر: السيد الباز العريني : الإقطاع في الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي . دراسة مقارنة ـ فصله من حوليات كلية الآداب ـ العدد الرابع ـ ينابر ١٩٥٧ م)
مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٧ م . ص: ١٣٠ ـ ١٤٨ .
الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م ص ٣ ـ ٢٦ .
إبراهيم طرخان : النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٨ م ،
محمد رجائي : الإقطاع العسكري في العهدين المملوكي والعثماني ـ الدارة العدد ٢ السنة ١٤ ـ ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨ م ص: ١٥ ـ ٢٧ .

ومع أن السلطان المملوكي تمتع بنفوذ واسع في الدولة ، وبخاصة فيما يتعلق ببعض الأمراء ، وملء المناصب الكبرى ، وتوزيع الإقطاعات ، إلا أنه لم يستغن في أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة في الكثير من المسائل والأمور الهامة.[1]

ومن الطبيعي أنه كان يعاون السلطان عدداً من كبار الموظفين ، مهمتهم مساعدة السلطان في شئون الحكم والإدارة[2] . هذا فضلاً عن مجموعة من الدواوين الكبيرة ، لإدارة مرافق الدولة العديدة[3] .

وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس ، قد وضع النظام الإداري لدولة المماليك في مصر ، ونظم كثيراً من قواعد الحكم ، فضلاً عن استحداثه بعض النظم الإدارية والوظائف الجديدة التي لم تكن معروفة من قبل[4] ، فإنه يمكن القول بأن السلطان قلاوون قد حذا حذو سلفه بيبرس ، فاستحدث بعض الوظائف الجديدة التي أشارت إليها المصادر التاريخية ومنها:

وظيفة كاتب السر :

على الرغم من أن هذه الوظيفة كانت معروفة فيما قبل العصر المملوكي بوقت طويل[5] ، فإن بعض المصادر التاريخية أشارت إلى أنها لم تعرف إلا في

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٣٤٨ ـ ٣٥١ .

(٢) ومن هؤلاء نائب السلطنة والأتابك والوزير والولاة وغيرهم .
راجع : عاشور : العصر المماليكي ـ ٣٥٤ ، ٣٥٩ .
علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ـ ط ٣ ـ ١٩٦٧ م ، ص: ٢٧٥ ـ ٣٠٧ .

(٣) ومن هذه الدواوين ، ديوان الجيش ، ودبوان الإنشاء ، وديوان الأحباس ، وديوان النظر وغيرها .
راجع : عاشور : المرجع السابق ـ ص: ٣٥٩ ـ ٣٦٦ .
علي إبراهيم حسن . المرجع السابق ـ ص: ٣٠٨ ـ ٣٤٠ .

(٤) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١٣٠ ـ ١٣٣ .

(٥) ظهرت هذه الوظيفة في العصر العباسي (وإن كان من المعتقد أن لها أصل في السنة النبوية المطهرة) وبالنسبة لمصر عرفت في العصر الطولوبي ، وفي العصر الفاطمي في عهد المستنصر وبالتحديد ٤٥٤ هـ/١١٥٩ م حين أطلقت على أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي بعد أن صرف عن الوزارة وأفرد له ديوان الإنشاء ، واستمرت هذه الوظيفة خلال العصر الأيوبي أيضاً ، ومن أشهر من تولى هذه الوظيفة خلال هذا العصر القاضي الفاضل .
حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ـ جـ ٢ ـ القاهرة ١٩٦٦ م ص: ٩٢٢ ـ ٩٢٣ .

العصر المملوكي وإلى أن السلطان قلاوون هو الذي « استحدث وظيفة كتاب السر وسمي صاحبها بكاتب السر »[١] .

ويبدو أن الذي دفع هؤلاء المؤخين (وبخاصة ابن[٢] تغري بردي) إلى إطلاق حكمهم هذا ، هو أن صيغة كاتب السر قد اختفت في بداية العصر المملوكي وحل محلها صيغة كاتب الدست أو كاتب الدرج . واستمر الأمر على ذلك إلى أن ولي ابن عبد الظاهر في عهد السلطان قلاوون ديوان الإنشاء فلقب بكاتب السر ، واستمر هذا لقباً على من ولي الديوان إلى نهاية العصر المملوكي ، وقد حرف هذا اللقب إلى كاتم السر[٣] .

وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن السلطان قلاوون هو الذي أحيا صيغة « كاتب السر » من جديد بعد أن تلاشى اسمها قبل عهده .

وكان سبب استحداث هذه الوظيفة (أو إحياء هذه الصيغة) ما ذكره ابن تغري بردي نقلاً عن الصفدي من أن السلطان الظاهر بيبرس اتفق أنه قال يوماً لمحيي الدين بن عبد الظاهر « اكتب إلى فلان مرسوماً ، أن يطلق له من الخزانة العالية بدمشق عشرة آلاف درهم نصفها عشرون ألفاً ، فكتب المرسوم كما قال له ، وجهزه إلى دمشق ، فأنكروه وأعادوه إلى السلطان وقالوا : ما نعلم هل هذا المرسوم بعشرين نصفها عشرة أو بعشرة نصفها خمسة ؟ فطلب السلطان محيي الدين وأنكر عليه ذلك ، فقال : يا خوند ، هكذا قال لي الأمر سيف الدين بلبان الدوادار ، فقال السلطان : ينبغي أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم منه شفاهاً »[٤] .

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٢٩٣ ، ٣٣٢ .
السيوطي : حسن المحاضرة ـ جـ ٢ ـ ص: ١١٠ .
ابن إياس: بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

(٢) نفى المؤرخ ابن تغري بردي بشدة وأكد عدم ظهور هذه الوظيفة قبل عهد السلطان قلاوون .
ـ ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٢٩٣ ، ٣٣٣ .

(٣) حسن الباشا : المرجع السابق ـ ص:٩٢٣
علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ـ ص: ٣٠٩ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .
وتجدر الإشارة إلى ما ذكره (د. علي إبراهيم حسن) من أن السلطان السعيد بركة خان هو الذي رأى أنه ينبغي أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم منه شفاهاً» .
علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ـ ص: ٣٠٩ .
والواقع أن نص ابن تغري بردي السابق ذكره في الملك (وهو الذي اعتمد عليه أيضاً د . علي =

وذكر ابن إياس (نقلاً عن الصفدي أيضاً) سبباً آخر يدور حول يدور حول هذا المعنى ، وهو أن السلطان بيبرس « رفع إليه مرسوم بـالقبض على بعض النواب ، فأنكر السلطان ذلك ، وقال أنا لم أرسم بذلك وطلب الموقع ، وسأله عن ذلك ، فقال إن الأمير بلبان الدوادار رسم بذلك على لسان السلطان ، فقال السلطان : ينبغي أن يكون للملك كاتب سر يتلقى الكلام شفاهاً عن لسان السلطان »(١) .

وتضيف الروايتين السابقتين على ذلك ، فتذكر أن الأمير قلاوون كان حاضراً هذا المجلس من جملة الأمراء الحاضرين ، وأن هذه الكلمة وقعت في أذنه ، ومن ثم عندما تبوأ عرش السلطنة استحدثت هذه الوظيفة(٢) .

وكان أول من تولى هذه الوظيفة في عهد قـلاوون القاضي محيـي الـدين بن عبد الظاهر(٣) وذلك سنة ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م وقيل بل ابنه فتح الدين(٤) .

هذا وقد عنى الكتاب في عصر المماليك بوظيفة كاتب السر واختصاصاتها ، ومدى سلطاتها وتطورها ، وبالرجال الذين شغلوها ، وبمـراسم كتاب السر وألقابهم وأوردوا كثيراً من تقاليدهم وتوقيعاتهم وأوامر تعيينهم ووصاياهم وطـريقة مكـاتباتهم وأسلوب مخاطباتهم والموظفين الذين يعملون معهم وتاريخ حياتهم(٥) .

ونكتفي هنا بما أورده ابن أياس عن مهام متولي هذه الوظيفة ، فيذكر أنه يقوم « بقراءة الكتب الواردة من البلاد ، وكتابة أجوبتها ، وتصريف المراسيم إلى سائـر الآفاق لقضاء حوايج الناس ، كما كان كاتب السر يجلس بحضرة السلطان لقـراءة القصص »(٦) .

= إبـراهيم حسن) وأيضاً نص ابن آيـاس يشير إلى السلطان الـظاهر بيبـرس وليس ابنه الملك السعيد .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

(٢) ابن تغري بردي : المصدر السابق ـ ص: ٣٣٣ .
ابن إياس : المصدر السابق ـ ص: ٣٤٩ .

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٤٨ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٢٩٣ ، ٣٣٣ .
حسن الباشا : المرجع السابق ـ ص: ٩٢٣ .
علي إبراهيم حسن : المرجع السابق ـ ص: ٣٠٩ .

(٥) حسن الباشا : المرجع السابق ـ ص: ٩٢٥ .

(٦) ابن إياس: المصدر السابق ـ ص: ٣٤٩ .

=

وأشار ابن إياس إلى عدد من الوظائف استحدثت في عهد المنصور قلاوون ، إلا إنها كانت قبل ذلك « مفدوقة بديوان الوزارة من أيام الخلفاء(. أي الفاطميين) فانقسمت إلى عدة فروع في دولة الأتراك ، لما تلاشى أمر الوزارة في تلك الأيام »[1] .

ومن هذه الوظائف :

١ ـ **وظيفة نظر الجيش** : وموضوعها النظر في أمر الإقطاعات : ما يخرج منها وما يدخل إليها وتحرير جزئياتها .

٢ ـ **وظيفة ناظر الخزانة** : وموضوعها أن يستوعب ما يخرج من بيت المال ، وما يدخل إليه ، وما يصرف في أمور المملكة ، وما يرد من البلاد الشامية وغيرها وكانت وظيفة كبيرة جليلة .

٣ ـ **وظيفة وكالة بيت المال** : وكانت وظيفة جليلة ، ولا يليها إلا من هو من ذوي العدالة المبرزة .

٤ ـ **وظيفة نظر الإصطبلات** : وموضوعها التحدث في الإصطبل الشريف ، وعليق الخيول وأمر مناخات الجمال وما أشبه ذلك .

٥ ـ **وظيفة نظر كتابة المماليك** : وموضوعها معرفة أسماء الجند وأنسابهم وقت العرض للأسفار ، وعند تفرقة الجوامك والنفقات وما أشبه ذلك[2] .

هذا وقد أشار المقريزي إلى بعض الوظائف السابقة ، وإلى المهام المنوط بمتوليها القيام بها إلا أنه لم يشر إلى أول من استحدثها من سلاطين المماليك ، باستثناء وظيفة ناظر الإصطبلات حيث ذكر أن أول من استجدها هو الناصر محمد بن قلاوون[3] وليس السلطان قلاوون كما ذكر ابن إياس[4] .

= ولمزيد من التفاصيل عن مهمام هذه الوظيفة انظر :
المقريزي : الخطط جـ ٢ ـ ص: ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٣٦١ ـ ٣٦٢ .
علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ـ ص: ٣٠٨ ـ ٣١٢ .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٥٠ .
(٢) ابن إياس : المصدر السابق ص: ٣٤٩ .
(٣) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .
(٤) ابن إياس : المصدر السابق ـ ص: ٣٤٩ .

القضاء :

من المعروف أن القضاء شمل جانباً كبيراً من اهتمام وعناية سلاطين المماليك . وكان أهم تطور حدث في النظام القضائي خلال هذا العصر ، ما قام بـه السلطان الظاهر بيبرس ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٥ م من تعيين أربعة من قضاة القضاء يمثلون المذاهب الأربعة بعد أن كان الوضع منذ أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي ، أن يقتصر ذلك المنصب على قاضي قضاة واحد هو الشافعي[(١)] .

ولم يكتف السلطان بيبرس بذلك ، بل أباح لهؤلاء القضاة الأربعة أن يولوا نواباً عنهم في أنحاء البلاد وسائر الأعمال المصرية ، ورغم ذلك ظل قاضي القضاة الشافعي محتفظاً بمكانة ممتازة يليه الحنفي فالمالكي فالحنبلي[(٢)] .

وعندما تولى السلطان قلاوون عرش السلطنة المملوكية في رجب ٦٧٨ هـ ، أجرى في ٢٧ شوال من نفس العام (أي ٦٧٨ هـ) تعديلاً على النظام القضائي السابق ، إذ جعل قاضي القضاة الشافعي « هو الذي يولي في أعمال مصر قضاة ينوبون عنه في الأحكام » أما قضاة المذاهب الثلاثة الأخرى (الحنفي والمالكي والحنبلي) فيحكمون « بالقاهرة ومصر خاصة بغير نواب في البلاد »[(٣)] .

ويضيف المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) فيذكر أن هذا النظام ظل معمولاً به حتى وقته [(٤)] ومما لا شك فيه أن هذا التعديل قد رفع من منزلة ومكانة قاضي القضاة الشافعي ونوابه على حساب قضاة المذاهب الثلاثة الأخرى .

ولاية العهد :

لم يؤمن المماليك مطلقاً بمبدأ وراثة العرش ، وإنما آمنوا إيماناً راسخاً بفكرة الخشداشية أي الزمالة ، فهم جميعاً زملاء لا فضل لمملوك على آخر ، إلا بما تمتع به من مواهب وقوة وصفات خاصة . وقد أدت هذه الفكرة بالمماليك إلى بغض مبدأ وراثة

---

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١٤٨ ـ ١٤٩ .
الأيوبيون والمماليك ـ ص: ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١٤٩ .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ (الجزء المفقود من المخطوط نقلاً عن ابن الفرات) .
المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٦٦٨ .

(٤) المقريزي : المصدر نفسه ، ص: ٦٦٨ .

العرش لأنهم ما داموا جميعاً سواسية وزملاء، فليس هناك ما يدعو لأن يحتكر أحدهم الملك في ذريته ، فالملك لأقوى الأمراء بعد وفاة السلطان الحاكم أو مقتله .

وإذا وجدت حالات نجح فيها بعض سلاطين المماليك في تأسيس بيوت احتفظت بالحكم مدة طويلة ـ كما حدث في بيت قلاوون ـ فإن هذه الحالات كانت خروجاً على تلك القاعدة وذلك المبدأ[1] .

وعلى ضوء ذلك يعتبر بيت قلاوون مثلاً فريداً في عصر المماليك ، لبقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن (٦٧٨ ـ ٧٨٤ هـ/ ١٢٧٩ م ـ ١٣٨٢ م) ، ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك في حقبة معينة بمبدأ وراثة الملك ، وإنما هي مجرد الصدف والظروف التي أحاطت بذلك البيت وبعض أفراده فضلاً عن أحوال البلاد عندئذٍ ، والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينقادوا لبيت قلاوون طوال ذلك القرن ، وإنما قامت محاولات لعزل بعض سلاطين بني قلاوون من الحكم ، ونجح بعض الأمراء في تولي السلطنة فعلاً في تلك الأثناء ولكن التيار القلاووني كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل . والواقع أن السلطان قلاوون نفسه لم يكن يتصور أن السلطنة ستظل في أعقابه طول هذه المدة ، لأنه كان مملوكاً قبل أن يكون سلطاناً ، وحطم بنفسه مبدأ وراثة العرش عندما عزل سلامش ابن الظاهر بيبرس من السلطنة ليتولى هو الحكم بدلاً منه[2] .

وكانت غريزة الأبوة أقوى من أن يتعظ قلاوون بما حدث على يديه لأبناء السلطان الظاهر بيبرس ، ففي يوم الاثنين ١٧ جمادى الآخرة ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م ، فوض السلطان قلاوون ولاية عهده وكفالة السلطنة لولده الأكبر علاء الدين علي ونعته بالملك الصالح .

وركب الملك الصالح بأبهة الملك وشعار السلطنة وشق القاهرة وخوطب بالسلطان وولي العهد ، وخطب له على سائر المنابر بعهد والده وكتب تقليده[3] .

وقد قضى الملك علي ثماني سنوات سلطاناً في حياة أبيه ، ويتضح ذلك من نسخة تذكرة سلطانية[4] كتب بها عن السلطان الملك الصالح علي بن قلاوون ، كتبها

---

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٩٩ ـ ١٠١ .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٧٧ .

(٤) يذكر ابن الفرات أن هذه التذكرة «نافعة للخيرات جامعه يعتمد عليها المجلس العالي الأميري الزيني كتبغا المنصوري نائب السلطنة في مهمات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها وما =

أبو عبد الله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الكاتب للأمير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة في ذي الحجة ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م[١] ، وقد جاء فيها « يرتب المجردون[٢] حول المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين على العادة وكذلك جهة القرافة وخلف القلعة وجهة البحر وخارج الحسينية ، ولا يهمل ذلك ليلة واحدة ، ولا يفارق المجردون مراكزهم إلا عند السفور وتكامل الضوء»[٣] .

وقد شاءت الظروف أن يموت الملك الصالح علي سنة ٦٨٧ /١٢٨٨ م أي في حياة أبيه واشتد حزن السلطان عليه ، وقد ضاعف من هذا الحزن ، أن الابن الثاني ـ وهو الخليل ـ كان مكروهاً من الأمراء ، لما عرف عنه من قوة وعدم تمسك بقواعد الدين ، بل لقد اتهمه البعض بأنه هو الذي دس السم لأخيه علاء الدين علي .

ومن الثابت تاريخياً أن ولاية العهد للأمير خليل كتبت فعلاً في حياة أبيه ، وأن السلطان قلاوون لم يوقعها . وسواء كان عدم توقيع السلطان لكتاب ولاية العهد لابنه خليل راجعاً إلى عدم ارتياح قلاوون لأن يخلفه ابنه خليل في حكم المسلمين ـ كما قال بعض المؤرخين ـ أو إلى انشغال قلاوون بأمر الصليبيين حتى دهمه الموت

= يترتب بها وما يبت ويفصل في القاهرة ومصر المحروستين وسائر أعمال الديار المصرية وما تستخرج به المراسم الشريفة المولوية السلطانية الملكية الصالحية أنفذها الله تعالى في أمورها وقضاياها وولايتها وولاتها وحمولها وخضرها وحفظها ومتجدداتها . . . » .
ابن الفرات : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) .
تاريخ ابن الفرات ـ المجلد السابع ـ تحقيق د .قسطنطين زريق ـ بيروت ١٩٤٢ م ـ ص: ١٩٦ .

(١) جاء في القلقشندي أن النسخة كتب بها عن السلطان الملك الصالح على ابن قلاوون ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م.
القلقشندي : صبح الأعشى ـ جـ ١٣ ـ ص ٩٤ .
وقد أورد هذا التاريخ أيضاً د . حسن الباشا حيث أنه اعتمد على نص القلقشندي .
حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ـ جـ ٣ ـ ص: ١٠٢٣ .
والواقع أن تاريخ ٦٩٩ هـ/١٢٩٩ م يقع في فترة سلطنة الناصر محمد الثانية (٦٩٨ ـ ٧٠٨ هـ) (١٢٩٩ ـ ١٣٠٨ م) ، وفي ضوء ذلك فإن التاريخ الوارد في القلقشندي غير صحيح وإن ما ذكره ابن الفرات هو الأصح .

(٢) استخدم هذا اللفظ في العصر المملوكي للدلالة على الحرس الليلي الذي كان يكلف بالحراسة خارج المدن .
حسن الباشا : المرجع السابق ـ ص: ١٠٢٣ .

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ـ ص: ١٩٧ .
القلقشندي : المصدر السابق ـ ص: ٩٤ .

فجأة ، فالمهم هو أن السلطان قلاوون توفي دون أن يعتمد ولاية العهد لابنه خليل .

ومهما يكن من أمر فإن ما قام به السلطان قلاوون في حياته من إعلان ابنه علاء الدين سلطاناً في حياته وموافقة الأمراء ، وما أعقب ذلك من كتابة ولاية العهد لابنه الثاني خليل بعد وفاة أخيه علاء الدين ، كل ذلك جعل خليل لا يصادف صعوبة في المناداة به سلطاناً عقب وفاة أبيه ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م ، لا سيما وأن الموقف كان يتطلب قيام سلطان جديد بسرعة ليقود الحملة التي كان السلطان قلاوون ، قد أعدها للثأر من الصليبيين عكا ، وهكذا أقسم الأمراء الأيمان للسلطان خليل ولقب بالملك الأشرف ، وبدأ يتأهب للخروج على رأس الحملة إلى الشام[١] .

رابعاً: الجيش :

لم يستطع المماليك المحافظة على ملكهم إلا بفضل ما وضعوه من نظم حربية كفلت لهم جيشاً قوياً فتياً استطاعوا به أن يحققوا الكثير من الانتصارات الخالدة على الصليبيين والمغول وغيرهم ، واستطاعوا أيضاً أن يمدوا أطراف مملكتهم في آسيا وأفريقيا ، وأن يبسطوا سلطانهم على جزيرتي رودس وقبرص ، وأضحى النظام الحربي عندهم محور الارتكاز الذي قامت عليه سائر نظمهم الإدارية والاقتصادية والاجتماعية[٢] .

ويتكون الجيش المملوكي من ثلاث طوائف أساسية وهي طائفة المماليك السلطانية وطائفة مماليك الأمراء وطائفة أجناد الحلقة[٣] .

والمماليك السلطانية هم العمود الفقري للجيش المملوكي ، بفضل ما يمتازون به على سائر طوائف الجيش من نزول معظمهم بالطباق[٤] ، وتلقيهم بها التعليم

---

(١) سعيد عاشور (والرافعي) : مصر في العصور الوسطى - ص: ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٢) السيد الباز العريني : الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك القاهرة ١٩٥٦ م - ص: ٣ .

(٣) السيد الباز العريني : المرجع السابق ص: ٣ - ٤ .
علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية - ص: ٣٤٥ - ٣٤٧ .
إبراهيم طرخان : النظم الإقطاعية - ص: ١٤٨ .
سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك - ص: ٣٧٥ .

(٤) المقصود بها طباق المماليك بالقلعة وهي ثكناتهم ، ولم تكن هذه الطباق كما يفهم من اللفظ فوق بعضها بارتفاع كبير ، بل إنها كانت متجاورة أو على ارتفاع دورين علو الاصطبلات ، وكان يجاورها عادة ميضأة ومصلى .

الديني والحربي ، وقربهم من السلطان ، ووفرة ما بأيديهم من الإقطاعات ، ومنهم يتعين الأمراء على اختلاف مراتبهم . والواقع أن تاريخ الدولة المملوكية هو تاريخ المماليك السلطانية فلا تضارعهم طائفة عسكرية أخرى في النفوذ الحربي أو السلطان السياسي .

وتشمل المماليك السلطانية عدة فئات يهمنا منها هنا فئة المماليك السلطان القائم في الحكم وهم المعروفون بالمشتروات أو الأجلاب أو الجلبان ، وكان السلطان يشتريهم أثناء حكمه ويتولى تربيتهم في الطباق ثم يعتقهم فيصبحون جنده وعدته الذين يعتمد عليهم في حكمه[1] .

وفيما يخص السلطان قلاوون نجد أنه كان مغرماً بشراء المماليك فاستكثر منهم حتى « جمع خلقاً عظيماً لم يجمعهم أحد قبله »[2] .

ويضيف ابن تغري بردي فيذكر أنه كان من محاسن السلطان قلاوون أنه « لا يميل إلى جنس بعينه ، بل كان ميله لمن يتخيل فيه النجابة كائناً من كان ، ولهذا طالت مدة مماليكه وذريته باختلاف أجناس مماليكه »[3] .

وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم بشأن أعداد هؤلاء المماليك ، ففي قول «اثني عشر ألف مملوك » صار منهم الأمراء الكبار والنواب ، وجلس بعضهم على عرش السلطنة[4] .

وفي قول « سبعة آلاف » وقيل « ستة آلاف وسبعمائة »[5] .

وربما يؤكد هذا القول ما ذكره العيني من أن عدة المماليك المنصورية الذين

= عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق في خدمة الآثار (المؤتمر الثاني للآثار ـ بغداد ١٩٥٧ ـ القاهرة ١٩٥٨ م . ص: ٢١٢ هامش ١) .

(١) السيد الباز العريني : المرجع السابق ـ ص: ٤ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢٧ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم جـ ٧ ص: ٣٢٧ .

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ ١ ـ ص: ١٣٥ ، ابن الفرات المصدر السابق جـ ٨ ص: ٩٧ .
المقريزي : السلوك جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٥٥ ـ ٧٥٦ .
ابن تغري بردي: النجوم جـ ٧ ـ ص: ٣٢٧ .
ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٦١ .

(٥) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٥٥ ، الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٢١٤ . وقد رجح المقريزي أن عددهم كان سبعة آلاف مملوك .

اشتراهم « بأنفس الأثمان » بلغت في آخر دولته « ما ينيف على ستة آلاف مملوك ، أرباب إقطاعات ، وأصحاب جامكيات ، وأمراء طبلخانات »[١] .

ويستدل من هذه الروايات (على الرغم مما يبدو في بعضها من مبالغة واضحة) ، على أن السلطان قلاوون حرص في البداية على شراء أعداد كبيرة من المماليك من مختلف الأجناس ، حتى يستطيع أن يضع يده على العنصر أو الجنس الذي يستطيع أن يكون فرقته الجديدة منه .

وفي ذلك يذكر العيني أن السلطان قلاوون اهتم بـ «استجلاب المماليك الترك والتتار إلى هذه الديار ، قصداً في الاستظهار والاستكثار وبذل الأموال لمن يحضرهم من التجار في المغاور والبحار ، ورغبهم بالمسامحات تحقيق الإيراد والإصدار ، فجلبوا إليه منهم العدد الكثير والجم الفقير ، حتى أنه اقتنى منهم عدة لم يسبقه إلى مثلها أحد من أشكاله »[٢] .

وقد قام السلطان قلاوون بعملية فرز وانتقاء لهؤلاء المماليك حتى استقر رأيه على عنصر بعينه ، ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي من أن السلطان قلاوون قد أفرد عدداً من مماليكه بلغ «ثلاثة آلاف وسبعمائة من الآص والجركس جعلهم في أبراج القلعة وسماهم البرجية »[٣] .

ويستدل من ذلك على أن معظم المماليك الذين آثرهم السلطان قلاوون كانوا من الجركس وقد جيء بهم من بلاد القسم الشمالي الغربي من القوقاز ، أي حوض نهر قوبان ، وقسماً من الشاطىء الشرقي للبحر الأسود إلى أطراف بلاد الأبخاز جنوباً ومن فروعهم السركس ، والأركس والكسا ، والآص[٤].

وعلى الرغم مما اشتهرت به هذه القبائل من الشجاعة والفروسية فإن بعثرتها بين مناطقها الجبلية ووديانها سهل خضوعها للمغول الذي اشتدت غاراتهم على هذه البلاد منذ أواخر ق ٧ هـ/ ١٣ م .

---

(١) العيني : عقد الجمان ـ جـ ٢ ـ ص: ٢٣٠ ، ٣٨٥ .
(٢) العيني : المصدر السابق ـ ص: ٣٨٥ .
(٣) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٥٦ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٣٠ .
وتجدر الإشارة إلى أن ابن تغري بردي ذكر (لفظ الأمراء) بدلاً من لفظ الآص .
(٤) حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية ـ القاهرة ١٩٦٧ م ـ ص: ١٢ .

ولذا امتلأت معظم أسواق المماليك بالعنصر الجركسي . ويبدو أن اختيار قلاوون لهذا العنصر ليكون نواة لفرقته الجديدة كان من أسبابه وفرتهم في الأسواق فضلاً عن رخص ثمنهم بالنسبة للعناصر التركية[1] .

وقد اعتنى السلطان قلاوون عناية خاصة بتربية مماليكه وإعدادهم وتعليمهم ، فيروى عنه أنه قال « كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسواراً وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك »[2] .

ويذكر العيني أن السلطان قلاوون ربي مماليكه « تربية الأولاد برسم الجهاد ، وغزو الأعداء والأضداد ، ولم يزل مشفقاً عليهم محسناً إليهم ، ناقلاً لهم على التدريج من الجامكيات إلى الإقطاعات ، ومن المغاردة إلى إمرة العشرات ، ثم إلى الطبلخانات ، ومنهم من انتقل إلى تقدمة الألوف وإمرة المئين ، فكانوا جميعاً عنده كبنيه بل أعز من البنين »[3] .

كذلك اعتنى السلطان قلاوون بأمر طعام مماليكه فكان « يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة (بالقلعة) عند استحقاق حضور الطعام للمماليك، ويأمره بعرضه عليه ، ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فمتى رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار ونهرهما وحل بهما منه أي مكروه »[4] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل نجد السلطان قلاوون يحرص على أن يشهد بنفسه تدريب مماليكه على استخدام الرماح ورمي النشاب[5] .

يضاف إلى ما سبق أنه أمر بتغيير زي مماليكه إلى زي آخر أحسن منه تسهل معه حركتهم[6] .

---

(١) حكيم أمين عبد السيد : المرجع السابق ـ ص: ١٢ .
وتجدر الإشارة إلى أنه تراوح ثمن الواحد من الجراكسة ما بين ١١٠ ، ١٢٠ ديناراً في حين كان ثمن التركي ما بين ١٣٠ ، ١٤٠ ديناراً .
نفس المرجع والصفحة ـ هامش (٥) (نقلاً عن هايد) .

(٢) المقريزي : الخطط جـ ٢ ـ ص: ٢١٣ .

(٣) العيني : المصدر السابق ـ ص: ٣٨٥ .

(٤) المقريزي : المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٥) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ١٣٦ .
حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية ـ ص: ١٣ .

(٦) راجع : ص: ٦٣ من هذا الفصل.

ويمكن القول بأن هذه الفرقة الجديدة قد استطاعت بفضل وفرة أعدادها ، وحسن تدريبها ، وشدة تماسكها أن تشق طريقها في غير صعوبة كبيرة نحو السلطان[١] .

وبالنسبة لطائفة أجناد الحلقة في الجيش المملوكي ، نجد أن السلطان قلاوون حرص على ألا يدخل ابن أحد الأمراء الحلقة إلا بعد أن يبلغ سن الرشد ، وبعد أن يشترك في الحروب والوقائع[٢] .

ومن المعروف أن المناشير الصادرة بإقطاعات أجناد الحلقة ، لا تكون إلا من السلطان كما هو شائع في مناشير الأمراء ، وإقطاعات الحلقة وقف عليها دون غيرها من طوائف الجيش ، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى السلطان قلاوون إذ أعطى مملوك والي القاهرة الأمير سنجر الخياط إقطاعاً بالحلقة تقديراً ومكافأة استثنائية له لأنه قبض على اثنين من العابثين ، وذلك على حين أن قلاوون نفسه أبى أن يعطي ولدي الأميرين طرنطاي وكتبغا إقطاعات بالحلقة يوم سألاه ذلك وقال جملته المشهورة : والله لو رأيتهما في مصاف القتال يضربان بالسيف ، أو كانا معي في زحف قدامي أستقبح أن أعطي لهما أخبازاً من الحلقة خشية أن يقال : « أعطى الصبيان الأخباز ، ولم يجب سؤالهما هذا »[٣] .

وأخيراً ينبغي أن نشير إلى طائفة البحرية التي استجدها السلطان قلاوون ، وقد تشكلت هذه الطائفة من بين أولاد طائفة المماليك البحرية الصالحية ، الذين تشتتوا عقب مقتل زعيمهم أقطاي ٦٥٢ هـ كما سبق القول ، وأصبحت أحوال أولادهم بمصر سيئة ولذلك بادر السلطان قلاوون بجمع هؤلاء الأولاد ورتب لهم « الجوامك والعليق واللحم والكسوة ، ورسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة وسماهم البحرية ، وإلى اليوم (أي حتى زمن المقريزي المتوفى ٨٤٥ هـ) طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية »[٤] .

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ١٣٧ .
وتجدر الإشارة إلى أنه تكونت من بين أفراد هذه الطائفة الدولة المملوكية الثانية التي اشتهرت باسم دولة المماليك الجراكسة أو دولة المماليك البرجية ، وقد امتد حكمها فيما بين ٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م .
(٢) السيد الباز العريني : الإقطاع الحربي ـ ص: ٩ .
(٣) المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٢١٦ ..
إبراهيم طرخان : النظم الإقطاعية ـ ص: ١٤٩ .
(٤) المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٢١٧ .

خامسا: الحياة العلمية والدينية :

أصبحت مصر على عصر سلاطين المماليك محوراً لنشاط علمي كبير ، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شرقيها وغربيها ، وخير دليل على هذا النشاط ، ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم في مختلف العلوم والفنون .

ومما جعل مصر محوراً للنشاط العلمي ، ما أصاب المسلمين في ق ٧ هـ/ ١٣ م من كوارث على أيدي المغول في العراق والشام ، وعلى أيدي المسيحيين في الأندلس ، إذ تحول كثير من علماء الأقطار إلى مصر ، واختاروها محلاً لإقامتهم ونشاطهم، كذلك كان لإحياء الخلافة العباسية بمصر ٦٥٩ هـ/ ١٢٦٠ م أثر كبير إذ هيأ القاهرة لأن ترث بغداد وتصبح مركز النشاط العلمي والديني في العالم الإسلامي(١) .

وليس أدل على النشاط العلمي الكبير في عصر المماليك من كثرة المدارس التي أمر بإنشائها السلاطين والأمراء والتي ما يزال الكثير منها باقياً حتى اليوم بمدينة القاهرة .

وبالرغم من زيادة عدد المدارس خلال هذا العصر ، فإنه لم توجد سياسة تعليمية للدولة أو للسلاطين .

وكانت الدوافع الدينية والسياسية هي الدافع لإنشاء المدارس والمكاتب (الكتاتيب) ، والمساجد (التي قامت أحياناً بوظيفة المدارس)(٢) .

ولذلك كان للأوقاف أهمية خاصة بالنسبة للتعليم سواء كان بالمدارس أو بالمكاتب التي عرفت باسم كتاب السبيل ، فالأوقاف هي التي تثبت أركان المدرسة

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ـ ص: ١٤١ .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ص: ١٤٣ ، العصر المماليكي ـ ص: ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ـ ط ١ ـ القاهرة ١٩٨٠ م ص: ٢٤٠ .

ولمزيد من التفاصيل عن الدوافع وراء إنشاء المدارس انظر :

عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري (دكتوراه ـ مخطوط جامعة القاهرة ـ ١٩٥٦ م) ص: ٧٤ .

سعاد ماهر : القاهرة القديمة وأحياؤها ـ (المكتبة الثقافية ـ العدد ٧٠ ـ ١٩٦٢ م) ص: ٨١ ـ ٨٢ .

دولت عبد الله : معاهد تزكية النفوس في مصر ـ ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م ـ ص: ٦٨ .

ودعمت نظامها ، ومكنتها من القيام برسالتها في العصر المملوكي ، وكان الريع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة شهرياً أو سنوياً ، نقداً أو عيناً ، هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة حسب شروط الوقف[١] .

هذا ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم ، على أنها المورد المالي للمؤسسة التعليمية فحسب ، بل تعدى الأمر ذلك إلى كافة جوانب العملية التعليمية ، حتى يمكننا القول ، بأن وثيقة الوقف أو كتاب الوقف كان بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية والتي تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي يجب أن تتوافر في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة وما إلى ذلك من التنظيمات المالية والإدارية[٢] .

وينبغي أن نشير ـ قبل أن نتحدث عن النشاط العلمي في عهد قلاوون بعامة ومنشآته بخاصة ـ إلى أن النشاط العلمي في ذلك العصر لا يمكن فصله عن النشاط الديني ، لأن التعليم كان مرتبطاً إلى حد كبير بالعلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه ، وبالتالي كان معظم الأساتذة والطلاب من رجال الدين .

وبالنسبة للنشاط العلمي في عهد قلاوون ، فيمكن القول بأنه لم يتوقف في المدارس التي أنشئت قبل عهد السلطان قلاوون سواء المدارس الأيوبية[٣] ، أو المدارس المملوكية[٤] .

---

(١) محمد محمد أمين : المرجع السابق ـ ص: ٢٤٠ .

(٢) نفس المرجع : ص: ٢٤٢ .

(٣) من هذه المدارس الأيوبية ، المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص، والمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعي ، والمدرسة بجوار المشهد الحسيني ، وغيرها من المدارس التي أمر بإنشائها السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ومن المدارس الأيوبية أيضاً المدرسة الكاملية والمدارس الصالحية النجمية .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٦٣ ـ ٣٦٥ ، ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

Creswell, the Muslim Architecture, Vol 2, PP. 80-83, 94-100

(٤) ومن هذه المدارس التي أنشئت قبل عهد قلاوون مدرسة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري التي ما تزال بقاياها موجودة في مواجهة مجموعة السلطان قلاوون بشارع المعز لدين الله .
المقريزي : المصدر السابق ـ ص: ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .
سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ـ جـ ٣ ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ م ـ ص: ٢٧ ـ ٣١ .

Creswell, the Works of Sultan Bibars, le Caire, PP. 131-143.

وتزخر المصادر التاريخية المختلفة بالعديد من أسماء الفقهاء الذين تولوا التدريس بهذه المدارس خلال عهد السلطان قلاوون[١] .

كذلك لم تتوقف الخانقاوات عن أداء رسالتها خلال عهد السلطان قلاوون ، وقد أورد ابن الظاهر نسخة تقليد الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ جمال الدين أبي بكر بن محمد الفارسي الأيكي مشيخة الشيوخ بخانقاه[٢] سعيد السعداء ، وكان ذلك في ذي الحجة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٦ م[٣] .

ويتضمن هذا التقليد أن يكون الشيخ شمس الدين « شيخ المشايخ الصوفية والناظر عليهم وعلى جميع أوقافهم بالخانقاة الصلاحية المعروفة بدار سعيد السعداء ، وخانقاة الفيوم ، وخانقاة المشطوب بالقرافة ، على عادة من تقدمه ، ومستقر قاعدته ، وضعاً للشيء في محله وصنعاً للمعروف في أهله ، وجمعاً لشمل هذه الطائفة المباركة »[٤] .

وعليه (أي الشيخ شمس الدين) أن يتخلق بأخلاق التصوف ، وأن يمعن النظر في أمور الأماكن الموقوفة على هذه الجهات ، ويصلح منها ما أمكنه ، وأن يراعي من أمر ما يحب أن يراعى ، وأن يشيد منها ما تهدم أو تداعى إلى أن تعود إليها عمارتها وترجع لها نضارتها ، وعليه أن ينظر في مصالح الصوفية وما شرطه الواقفون لهم من مطعم ومشرب وحلوى وملبوس ، وما تمتد إليه الأطماع وتشرئب إليه النفوس ، إلى غير ذلك من الشروط التي جاء ذكرها في نسخه هذا التقليد[٥] .

---

(١) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٠٠ ، ٧٢٢ .

(٢) هي أول خانقاة أقيمت بمصر على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م . ووقف عليها أوقاف كثيرة .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤١٥ .
سعاد ماهر : المرجع السابق ـ ص: ١٢ .
دولت عبد الله : المرجع السابق ـ ص: ٧٥ ـ ٧٧ .
هذا ولا تزال بقايا هذه الخانقاة موجودة حتى اليوم بشارع الجمالية على يسار المتجه إلى خانقاه بيبرس الحاشنكير وباب النصر ، وتعرف باسم جامع سعيد السعداء .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٢٣٢ (نقلاً عن ابن الفرات) جـ ٨ ص: ٢٩ ـ ٣٢ .

(٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ـ ص: ٢٣٤ .

(٥) نفس المصدر : ص: ٢٣٥ .

ومن الخانقاوات التي أقيمت بالقاهرة في عهد السلطان قلاوون الخانقاة البندقدارية ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م ، وقد وقفها منشئها الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري « مسجداً وخانقاة ورتب فيها صوفية وقراء »[١] .

أما عن النشاط العلمي في منشآت السلطان قلاوون ، فنوجز الحديث عنه في النقاط التالية :

١ ـ النشاط العلمي في المدرسة المنصورية :

أوقف السلطان قلاوون مدرسته لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ، وكان يتولى أمر هذه الدروس أجل الفقهاء المعتبرين[٢] .

وعين لكل مذهب « مدرس له في كل شهر مائتا درهم ، وثلاثة معيدين لكل منهم خمسة وسبعون درهماً ، وخمسون طالباً لجميعهم في كل شهر سبعماية وخمسون درهماً[٣] .

ويضيف النويري على ذلك ، فيذكر أن السلطان قلاوون رتب بمدرسته « إمام شافعي المذهب له في كل شهر ثمانون درهماً ، ورتب بها متصدر لإقراء كتاب الله عز وجل ، رتب له في كل شهر أربعون درهماً . . . »[٤] .

هذا وتتضمن حجة الوقف إشارات كثيرة ، تتعلق بتنظيم العملية التعليمية داخل المدرسة من حيث مقر الدراسة بالمدرسة ، وجلوس أهل المذاهب الأربعة بها ، وأماكن سكن المدرسين الفقهاء والمتفقهين وغير ذلك .

---

(١) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٢٢ .
هذا وما تزال بقايا هذه الخانقاة موجودة حتى اليوم بشارع السيوفية بالقاهرة ، وتعرف باسم زاوية الآبار . وقد قام بدراستها أثرياً كل من :
سعاد ماهر : المرجع السابق ـ ص: ٥٧ ـ ٥٩ .
دولت عبد الله : المرجع السابق ـ ص: ٧٨ ـ ٨٣ .

Creswell,OP-Cit PP. 185-189.

(٢) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٨٠ .
(٣) النويري : نهاية الأرب ملحق السلوك للمقريزي رقم ٩ ـ ص: ١٠٠١ .
ابن الفرات : المصدر السابق ـ جـ ٨ ـ ص: ١٠ .
(٤) النويري : المصدر السابق ـ ص: ١٠٠١ .
ابن الفرات : المصدر السابق والصفحة نفسها .

وبادىء ذي بدء تذكر الوثيقة أن السلطان قلاوون وقف مدرسته على « الفقهاء والمتفقهة على مذاهب الأئمة الأربعة رضي الله تعالى عنهم ، وعلى المدرسين والمعيدين بالمدرسة المذكورة على مذاهب الأئمة الأربعة المذكورة ، يقيمون بها ، ويسكنون في بيوتها ، وعلى المترددين للمدرسة المذكورة للصلوات وسماع العلم الشريف وقراءة القرآن العظيم . . . »[١] .

وأشارت الوثيقة كذلك إلى أن يكون الإيوان القبلي (الجنوبي الشرقي) بكماله ورواقاته مسجداً لله تعالى على حكم المساجد الإسلامية[٢] .

أما عن مقر الدراسة ، فقد أشارت الوثيقة إلى أن إيوان القبلة (الجنوبي الشرقي) تدرس به ثلاثة مذاهب وليس مذهب واحد ، ولعل هذا ينفي ما ورد في بعض المؤلفات بشأن ارتباط عدد الإيوانات بعدد المذاهب التي تدرس بالمدرسة[٣] .

واختص الرواق الأوسط من إيوان القبلة (وهو الذي بصدره المحراب) بجلوس طائفة الفقهاء الحنفية ، واختص الرواق الأيمن من إيوان القبلة (الرواق الجنوبي الشرقي) بجلوس طائفة الفقهاء المالكية ، واختص الرواق الأيسر من إيوان

---

(١) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

(٢) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن تخطيط هذا الإيوان من النماذج الفريدة في العمارة الإسلامية في مصر فهو ينقسم إلى ثلاثة أروقة أوسطها أوسعها ، ومن ثم نجد أن بعض علماء الآثار يطلقون على هذه المدرسة اسم المدرسة الجامع ، ذلك لأنها جمعت بين طراز الجوامع باحتوائها على أعمدة وأروقة وبين المدرسة باشتمالها على أيوانات .

سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٣ ـ ص: ٦٩ .

(٣) اعتقد بعض علماء الآثار الأجانب ، أن عدد الإيوانات بالمدرسة مرتبط بعدد المذاهب التي تدرس بها ، فالمدرسة ذات الإيوان الواحد خصصت لتدريس مذهب واحد ، وذات الإيوانين لتدريس مذهبين ، وذات الأربعة إيوانات لتدريس المذاهب الأربعة .

Berchem, Materiaux pour un Corpus, P. 265.

Creswell, OP-Cit, PP. 119-121.

والواقع أن التخطيط المعماري للمنشأة لا يرتبط بالوظيفة التي تقوم بها ، لأن ذلك يتوقف أساساً على رغبة الواقف فهو الذي يحدد وحده ويقرر الوظائف التي تقوم بها منشأته ، وقد نصت على ذلك معظم حجج الوقف التي تعج بها دور المحفوظات بالقاهرة (ومنها حجة قلاوون السابق الإشارة إليها في المتن) .

محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ـ (ماجستير مخطوط ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٨٦ م) ـ ص: ١٩٨ .

القبلة (الرواق الشمالي الشرقي) بجلوس طائفة الفقهاء الحنابلة[1] .

أما المذهب الرابع وهو المذهب الشافعي فقد اختص به الإيوان البحري (الإيوان الشمالي الغربي) المقابل لإيوان القبلة[2] .

وتذكر الوثيقة أن على كل مدرس من المدرسين الأربعة أن يجلس في المكان الذي عين لجلوسه من المدرسة ، ويتولى إلقاء « فروع مذهب إمامه وما تيسر له إلقاؤه من تفسير وأصول وغير ذلك »[3] .

كذلك حددت الوثيقة أماكن سكنى المدرسين والفقهاء والمتفقهة، فبالنسبة للمدرسين الأربعة يتم سكناهم في قاعة المدرسة والطبقات الثلاث على أن يسكن كل منهم في المكان الذي يعينه الناظر له ويخصه به .

وبالنسبة للفقهاء والمتفقهة يتم سكناهم في البيوت العلوية بالمدرسة وعدتها سبعة وعشرين بيتاً[4] .

هذا وقد أورد ابن عبد الظاهر نسخه تقليد القاضي تقي الدين بن شاس المالكي وظيفة تدريس المذهب المالكي بالمدرسة المنصورية ، وكان ذلك في العشر الأوسط من رمضان ٦٨٤ هـ/١٢٨٥م[5] .

ويتضمن هذا التقليد الشروط والواجبات التي يجب عليه اتباعها ومنها :

ـ أن ينتصب لإقراء مذهبه المبارك ، وتقرير قواعد الخمس، وليعلم أن تفقه رجل واحد من طلبته عليه ، خير له مما طلعت عليه الشمس ، وليجعل آيات مذهبه ظاهرة مبينة ، وأسباب أدائه قوية مكينة وليؤيد رأيه ولينصر دينه .

ـ أن يلقى طلبته بوجه طلق وثغر باسم ، وليقسم له من تهديهم وتلهيهم ما

---

(١) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

(٢) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

(٣) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

(٤) أوقاف رقم ٦٠٧ جديد (نشر د. محمد سيف النصر أبو الفتوح ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة صنعاء ـ اليمن ١٩٨٤ م) ـ ص: ١١٤ ـ ١١٥ سطر ٨٢ ـ ٨٣ ، ٩٣ ـ ٩٥ .

(٥) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٢٢٥ (نقلاً عن ابن الفرات جـ ٨ ص: ٢٧ ـ ٢٨ .

ينسيهم أشهب[1] وابن القاسم[2] .

ـ أن يتعهدهم بملازمة دروسهم ، وحفظ ماضيهم ، وليحسن في استعادتهم ما حفظوه تقاضيهم .

ـ أن ينصف كبيرهم في بحثه ، وأن يسعف صغيرهم بحضه على الاشتغال وحثه ، وأن يحسن التلطف مع الطلبة والإيناس ، وأن يستعمل في تعليمهم الذكر والفكر والحواس .

ـ أن يجتهد في أن يكون المتفقهون عليه كثيراً من الناس ، فلا سمعه أحسن من أن يقال عنه بعده عن حاكم أو مُفْتٍ : هذا من طلبة ابن شاس[3] .

٢ ـ النشاط العلمي في القبة المنصورية :

لم تكن القبة المنصورية قبة للدفن فحسب[4] ، وإنما قامت كذلك بوظيفة المسجد والمدرسة ، وهذه الوظائف لم تعهد في أي من القباب المدافن قبل ذلك .

وتذكر الوثيقة أن السلطان قلاوون وقف الرواق القبلي الذي بصدره المحراب « مسجداً لله تعالى على حكم مساجد الإسلام » ، أما باقي القبة ورواقاتها ، فإنه وقف ذلك « لقراءة القرآن العظيم ، وتلاوة الذكر الحكيم ، ولتدريس الأخبار النبوية ، وإلقاء الأحاديث المحمدية ولإقامة من يرى الناظر إقامته فيها من الواردين عليها إليها ،

---

(١) هو أشهب بن عبد العزيز أبو عمرو وفقيه ديار مصر ، انتهت إليه الرئاسة بمصر بعد ابن عبد القاسم ، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا جلش فيه ، وقال ابن عبد البركان : فقيهاً حسن الرأي والنظر وهو مدفون بمدافن السادة المالكية بالقرافة .
النابلسي : (عبد الغني بن إسماعيل) ت ١١٤٣ هـ/ ١٧٣٠ م .
الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز ـ تقديم وإعداد د. أحمد هريدي ـ مركز تحقيق التراث ـ القاهرة ١٩٨٦ م ـ ص: ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٢) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقي المصري أبو عبد الله الفقيه، رواية المسائل عن مالك ، كان صبراً فاضلاً تفقه على مذهب مالك ، وكانت وفاته في مصر سنة ١٩١ هـ ، ودفن بمدافن السادة المالكية بالقرافة .
النابلسي : نفس المصدر ـ ص: ١٩٠ .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٢٢٦ ـ ٢٢٧ (نقلاً عن ابن الفرات) .

(٤) لم تصبح القبة المنصورية قبة دفن إلا منذ أن دفن بها السلطان قلاوون في المحرم سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩٠ م ـ انظر الفصل الثاني من الباب الثاني .

والمصلين والمتطوعين والأئمة والمؤذنين والقومة والخدام ، يقيمون بها ويقرأون القرآن فيها ، ويجتمعون للاشتغال فيها بالأحاديث النبوية ، وأما الخزائن التي بالقبة المذكورة ، فإنه وقفها لحفظ الكتب المتعلقة بالقبة المذكورة . . . »[١] .

أما عن أرباب الوظائف المختلفة بالقبة ، فقد ذكرهم النويري فقال إنه رتب بالقبة المباركة المنصورية « خمسون مقرئاً يقرأون كتاب الله تعالى ليلاً ونهاراً بالنوب وجعل لكل منهم في كل شهر عشرون درهماً ، ورتب بها إمام على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، وله في كل شهر ثمانون درهماً من أصل الوقف وفي كل سنة في ليلة ختم صلاة قيام رمضان خلعه من خزانة السلطان كاملة مسخية مقتدرة ورتب بها رئيس ومؤذنون يعلنون الأذان بالمئذنة الكبرى ، ويقيمون الصلاة ، ويبلغون خلف الإمام وهم سبعة نفر : الرئيس وله في كل شهر أربعون درهماً ، والمؤذنون ستة لكل منهم في كل شهر ثلاثون درهماً ، ورتب بها درس تفسير لكتاب الله تعالى ، فيه درس يلقيه مدرس ، رتب له في كل شهر أربعون درهماً ، وطلبة عدتهم ثلاثون لهم في كل شهر ثلاثمائة درهم ، ودرس حديث يذكر فيه حديث رسول الله ﷺ ، له مدرس ومعيد وطلبة ، لهم في كل شهر نظير ما لمدرس التفسير ومعيده وطلبته ، وزيادة على ذلك قارىء يقرأ الحديث بين يدي المدرس في أوقات الدروس ، ويقرأ ميعاداً للعوام بين يديه أيضاً في صبيحة كل يوم أربعاء رتب له في كل شهر ثلاثون درهماً .

ورتب لخازن كتبها في كل شهر أربعون درهماً ، وخزانة كتبها من الختمات الشريفة والربعات المنسوبة الخط وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعر شيء كثير ، ورتب بها الخدام اللازمة يقيمون بالقبة لحفظ حواصلها ومنع من يعبر إليها في غير أوقات الصلوات وهم ستة ، لكل منهم في كل شهر خمسون درهماً ، وغير هؤلاء من القومة والفراشين والبوابين »[٢] .

ويضيف المقريزي على ذلك ، فيذكر أن بهذه القبة « دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة وتعرف بدروس وقف الصالح »[٣] . وكان لا يليها إلا قضاة

---

(١) حجة أوقاف البيمارستان (أوقاف ١٠١٢) .

(٢) النويري : المصدر السابق ـ ص: ١٠٠٠ ـ ١٠٠١ .
ابن الفرات : المصدر السابق ص: ٩ ـ ١٠ .

(٣) هو الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون، وكان يريد بناء مدرسة ولكنه مات قبل أن يحقق غرضه ، فقام الأمير أرغون العلائي زوج أمه بوقف «قرية تعرف بدهمشا الحمام من الأعمال الشرقية عن أم الملك الصالح ، فأثبته بطريق الوكالة عنها ، ورتب ما كان الملك =

القضاة ، هذا بالإضافة إلى وجود قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار .

وفضلاً عما سبق كان يوجد بهذه القبة « إمام راتب يصلي بالخدام والقراء وغيرهم الصلوات الخمس ، ويفتح له باب فيما بين القبة والمحراب يدخل منه من يصلي من الناس ثم يغلق بعد انقضاء الصلاة »(١) .

٣ ـ النشاط العلمي في مكتب السبيل :

إذا كانت المدارس في عصر المماليك تمثل المعاهد العليا أو الجامعات ، فإن المكاتب نهضت عندئذٍ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم ، ويبدو أن الهدف الأساس من إنشاء معظم المكاتب كان تعليم أيتام المسلمين ، ولذلك أقبل الخيرون على إقامتها وحبس الأوقاف عليها ورغبة في الثواب(٢) .

وقد جرت العادة ببناء المكاتب بجوار المسجد أو المدرسة فوق السبيل ، ولذلك عرف باسم مكتب السبيل أو كتاب السبيل ، وإن كان هذا لم يمنع من إنشاء مكاتب منفصلة عن السبيل ورغم ذلك أطلق عليها أيضاً اسم مكتب السبيل(٣) .

ومن أمثلة ذلك مكتب السبيل الذي أمر بإنشائه السلطان قلاوون ملحقاً بمجوعته المعمارية الضخمة ، إلا أنه لسوء الحظ اندثر ، ولكن على ضوء ما ورد بالوثيقة نستطيع أن نحدد موضعه بأنه كان يعلو « باب القيسارية(٤) المستجدة »(٥) .

ومن المعروف أن هذه القيسارية كانت تشغل المساحة الواقعة فيما بين الواجهة

= الصالح إسماعيل قرره في حياته لو أنشأ مدرسة ، وجعل ذلك الأمير أرغون مرتباً لم يقم به في القبة المنصورية ، وهو وقف جليل يتحصل منه كل سنة نحو الأربعة آلاف دينار ذهباً» .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٨٠ .

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٣٣٥ .

(٣) محمد محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٤) القيسارية وجمعها قياسر هي السوق المسقوفة ، وأطلقت أيضاً على الخان أو الوكالة وتحتوي على غرف ومخازن للتجار ، ويعلو ذلك طباق للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة .
عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر النوري ـ رسالة دكتوراه ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٥٦ م ، معجم المصطلحات الفنية ـ ص: (و) .

(٥) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

الجنوبية الغربية للمدرسة أو الجهة الشمالية الشرقية لحمام البياطرة (وهو الحمام المعروف حالياً بحمام قلاوون أو حمام النحاسين ويوجد على يسار الداخل إلى مستشفى قلاوون الرمدي) ، وهذا يعني أن كل من القيسارية والمكتب علو بابها ، كان يشغلان الطريق الموصل حالياً لداخل مستشفى قلاوون الرمدي والذي أنشىء ١٩١٠[١] .

هذا وقد وقف السلطان قلاوون مكتب السبيل ليتعلم فيه « أولاد المسلمين الأيتام وغيرهم كتاب الله الكريم كتابة وتلقيناً وكتابة الخط العربي »[٢] .

وقد خصص السلطان قلاوون جزءاً من ريع وقفه لأجل « معلوم فقيه وعريف وجراية أيتام وكسوتهم وثمن ألواح ومحابر وأقلام وثمن حصر بالمكتب المذكور »[٣] .

وقد أمدنا النويري بتفاصيل أكثر عن هذا المكتب فذكر أن السلطان رتب فيه « فقيهان يعلمان من كان صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، ورتب لهما جامكية في كل شهر وجراية في كل يوم ، وهي لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهماً ، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال ، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف ، ورتب للأيتام لكل منهم في كل يوم رطلان خبزاً وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف »[٤] .

٤ ـ النشاط العلمي في البيمارستان :

لم يقتصر دور البيمارستان المنصوري على تقديم الرعاية الصحية والاجتماعية

---

(١) محمد سيف النصر أبو الفتوح : مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين بالقاهرة (دراسة أثرية في ضوء وثيقة جديدة) ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة صنعاء ـ اليمن ١٩٨٤ م ـ ص: ١٠٩ .

(٢) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .
وتجدر الإشارة إلى أن الخط العربي ، كان من المواد الأساسية التي تدرس في مكاتب الأيتام باعتباره لوناً من ألوان التربية الجمالية وله أهمية في تربية الذوق السليم وتكوين الإحساس الغني عند هؤلاء الأطفال .
محمد محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ٢٧٠ .

(٣) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

(٤) النويري : المصدر السابق ـ ص: ١٠٠١ .
ابن الفرات : المصدر السابق ص: ١٠ . وتجدر الإشارة إلى أن ابن الفرات ذكر أن عدد الأيتام يبلغ «ستين صغيراً من أيتام المسلمين» .

فحسب[١] ، بل تعدى الأمر ذلك إلى تدريس الطب والاهتمام به ، ولعل هذا الوضع يشبه إلى حد كبير وضع كليات الطب الموجودة في المستشفيات الحديثة اليوم ، حيث تتاح للطلاب ممارسة الطب السريري (الإكلينيكي) في مستشفى الجامعة[٢] .

وقد حرص السلطان قلاوون ، في وثيقة الوقف ، على توضيح أهمية تدريس الطب في البيمارستان ، إذ اشترط « الانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به »[٣] .

ونصت الوثيقة أيضاً على تعيين شيخ للاشتغال بالطب يكون مدرساً من الحكماء الأطباء عارفاً بالطب وأوضاعه عالماً بأسباب الأمراض وعلاجاتها ، وكان يجلس هو وطلبته على المسطبة الكبرى بالبيمارستان[٤] .

ونصت الوثيقة في موضع آخر على أن « يصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخاً للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه ، يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه ، في الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه إليه ، وليكن من جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد »[٥] .

هذا وقد أشارت بعض المصادر التاريخية أيضاً إلى تدريس الطب في البيمارستان المنصوري[٦] ، وأشارت مصادر أخرى إلى الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان ، ومن قام منهم بتدريس الطب فيه[٧] .

---

(١) انظر : الفصل الأول من الباب الثاني .

(٢) حياة ناصر الحجي : البيمارستان المنصوري (المجلة العربية للعلوم الإنسانية ـ العدد ٢٩ ـ المجلد ٨ ـ الكويت ١٩٨٨ م ـ ص: ٢٢ .

(٣) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ص: ١٣٨ ـ (سطر ٢٩٩) .
محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري ـ ص: ٣٥٩ ـ (سطر ٢٢٠) .

(٤) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

(٥) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ـ ص: ١٧٠ .

(٦) النويري : المصدر السابق ـ ص: ٩٩٩ .
المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٤٠٦ .

(٧) أحمد عيسى : المرجع السابق ـ ص: ١٥٩ ـ ١٦٦ .
حياة الحجي : المرجع السابق ـ ص: ٢٢ ـ ٢٣ .

وورد في بعض المصادر نسخة تقليد الحكم مهذب الدين وظيفة تدريس الطب في البيمارستان المنصوري في رمضان ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥[١] ، ويتضمن هذا التقليد الشروط والواجبات المنوط به القيام بها ومنها :

- بذل الجهد المخلص في شفاء المرضى من أسقامهم وآلامهم .

- الإشراف على طلبة الطب وتقريبهم من المهنة التي يرغبونها .

- إعطاء الطلبة كل ما يعرف من علم ومعرفة من أجل تخريج مجموعة من الأطباء المختصين في الجراحة والعيون والعظام والأمراض الباطنية ، وكذلك مجموعة من الصيادلة لتحضير الدواء اللازم لكل داء ، ويغرس فيهم روح البحث ، والسعي وراء الجديد في العلاج والدواء ، فإن اشتهروا بعد ذلك مستقبلاً ، وذاع صيتهم ، فهذا تشريف له لارتباطهم باسمه وتفوقهم بجهده[٢] .

مما سبق يتضح مدى ازدهار النشاط العلمي والديني في عهد السلطان قلاوون وقد سار على هذا النهج معظم السلاطين الذين أعقبوا السلطان قلاوون سواء كانوا من أبنائه وأحفاده الذين تولوا العرش من بعده أو من أمرائه الذين اغتصبوا العرش من أولاده وأحفاده لفترات محدودة .

سادساً : الحياة الاجتماعية في عهد السلطان قلاوون :

شهدت القاهرة في عصر سلاطين المماليك نشاطاً اجتماعياً على نطاق واسع حيث بالغ الناس ـ خاصتهم وعامتهم ـ في الاحتفال بالأعياد والمواسم والمناسبات المختلفة[٣] ، ولم يقف هذا النشاط عند حد مدينة القاهرة فقط ، بل امتد إلى القرافة

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٢٢٨ ـ ٢٣٠ (نقلاً عن ابن الفرات ، والقلقشندي) .

(٢) حياة الحجي : المرجع السابق ـ ص: ٢٢ .

(٣) حظيت مظاهر الحياة الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك بعناية واهتمام بعض العلماء والباحثين نذكر من بينهم على سبيل المثال:

سعيد عاشور : المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك ـ القاهرة ١٩٦٢ م .

عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ـ جـ ٢ دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه ـ القاهرة ١٩٦٧ م .

قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (عصر سلاطين المماليك) القاهرة ١٩٧٩ م .

التي شهدت هي الأخرى (خلال ذلك العصر) نشاطاً اجتماعياً واسعاً في حياة البزخ وحياة الفرح على حد سواء[1] .

ومما لاشك فيه أن الحديث عن كافة مظاهر الحياة الاجتماعية خلال العصر المملوكي ، يخرجنا عن الإطار المرسوم لهذا البحث ، ومن ثم سوف نسلط الأضواء فقط على بعض الجوانب الاجتماعية (سواء المتعلقة بالأعياد والمناسبات المختلفة أو المتعلقة بالملابس وهي مظهر اجتماعي مميز) التي كان للسلطان قلاوون فضل كبير في ظهورها أو تلك التي ارتبطت باسمه على اعتبار أنه رأس الأسرة التي حكمت مصر زهاء قرن من الزمان .

ـ اللعب بالرمح عند دوران المحمل :

من المعروف أن الاحتفال بدوران المحمل ، كان يحدث مرتين في السنة ، المرة الأولى في رجب بعد النصف منه[2] ، ويكون دورانه في يوم الاثنين أو الخميس لا يتعداهما ، ويبيت المحمل في ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم ، ويحمل بعد الصبح ويسير إلى تحت القلعة ، ثم يذهب إلى الفسطاط ـ مصر القديمة الآن ـ ، فيمر في وسطه ثم يعود إلى تحت القلعة ، ثم يحمل إلى جامع الحاكم ، ويوضح في مكان هناك إلى شوال .

والمرة الثانية تحدث في نصف شوال ، ويحدث فيها ما حدث في المرة الأولى ، باستثناء أن الموكب لا يتوجه هذه المرة إلى الفسطاط ، وإنما يرجع من تحت القلعة إلى باب النصر ويخرج إلى الريدانية (العباسية الآن) للسفر[3] .

---

(١) محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة في عصر سلاطين القاهرة ـ ماجستير ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٨٦ م ـ ص: ٢١٤ ـ ٢٥٤ .

(٢) أطلق على هذه الدورة اسم دورة المحمل الرجبي وأول من استحدثها السلطان الظاهر بيبرس ٦٧٥ هـ ، وقد قيل إن الغرض من تدوير المحمل في هذا الوقت المبكر من السنة هو إعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن ، وأن من شاء الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق .
سعيد عاشور : المجتمع المصري ـ ص: ١٨١ .
وقيل أيضاً إن الغرض من دوران المحمل هو عرض الكسوة على أنظار الناس لحثهم على الحج .
عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ـ جـ ٢ ـ ص: ١٤٥ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ـ جـ ٤ ـ ص: ٥٧ ـ ٥٨ .

وكان الاحتفال بدوران المحمل من أجل الاحتفالات التي ينتظرها النـاس ، فينـادى قبل مـوعده بثـلاثة أيـام ، أن يزين النـاس حوانيتهم ودورهم ، وفي الليلة المحددة للاحتفال يحرق النفط ، وتعمل الصواريخ ، فيخرج الناس من كل مكان للفرحة وربما قضوا ليلتهم في الطريق ، حتى النساء كن يبتن في الحـوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد[١] .

ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان قلاوون هو الذي أحدث اللعب بالرمح أيام دوران المحمل[٢] ، وتفصيل ذلك ذكره أبو المحاسن ابـن تغري بردي في حوادث ٦٨١ هـ فيقول إن مماليك السلطان قلاوون لعبوا أمام كسوة الكعبة بالرماح والسلاح ، ويعلق ابن تغري بردي على ذلك بقوله: « وأظن هذا هو أول ابتداء سـوق المحمل المعهود الآن (أي حتى زمن ابن تغري بردي ت ٨٧٤ هـ) فإننا لم نقف فيما مضى على شيء من ذلك ، مع كثرة التفاتنا إلى هذا المعنى ، ولهذا غلب على ظني من يوم ذاك بدأ السوق المعهود الآن ، ولم يكن إذ ذاك على هيئة يومنا هذا ، وإنما ازداد بحسب اجتهاد المعلمين ، كما وقع ذلك في غيره من الفنون والملاعيب والعلوم ، فإن مبدأ كل أمر ليس كنهايته ، وإنمـا شرع لكـل معلم في اقتراح نـوع من أنواع السوق ، إلى أن انتهى إلى ما نحن عليه الآن ولا سبيل إلى غير ذلك . . . »[٣] .

هذا وتجدر الإشارة إلى ما قام به السلطان جقمق من إبطال لعب الرماحة في دوران المحمل ، وعظم إبطاله على الناس ، لأنه كان من أجل الاحتفـالات التي ينتظرها الناس للفرجة[٤] .

ولم يستمر هذا الأمر طويلاً ، فسرعان ما عاد الأمر كما كان في عهد السلطان خشقدم وبالتحديد ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣ م ، عندما خرج السلطان إلى القرافة الكبرى عند ضريح أبي العباس[٥] الحرّار ومعه جماعة كبيرة من الأمراء ، ولعبت الرماحة أمامه ،

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ١٨١ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣١١ .
السيوطي : حسن المحاضرة ـ جـ ٢ ـ ص: ١١٠ .
سعيد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ١٨٢ .

(٣) ابن تغري بردي : المصدر السابق ـ ص: ٣١١ .

(٤) جرجس ميخائيل : السلطان جقمق وحالة مصر في عصره (ماجستير ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٧٤ م) ـ ص: ١١ .

(٥) هو الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي بكر التجيبي الإشبيلي المنشأ من عرب الأندلس وكان ينسج =

وقام الأمير قايتباي الظاهري (السلطان قايتباي بعد ذلك) أحد أمراء الألوف بسوق الرماحة ولعبهم بين يدي السلطان فخلع عليه السلطان[1] .

- تغيير زي المماليك :

من المعروف أن المجتمع المملوكي كان مجتمعاً طبقياً قام على أساس طبقات وعناصر متمايزة ، شجع على التفرقة والفصل بينها النظم المماليكية نفسها ، وفي المظاهر الأساسية للفصل بين الفئات المتباينة التي تكون منها المجتمع في ذلك العصر ، الحرص على التفرقة بينها في الزي ونوع الدابة التي يركبها وحجم العمامة وغير ذلك ، هذا فضلاً عن الألقاب التي اعتبرت أساساً هاماً لمعرفة مكانة الفرد في المجتمع والدلالة على حيثيته[2] .

وفي ضوء ما سبق نجد أن الملابس قد اختلفت وتباينت حسب مكانة الشخص ومركزه الاجتماعي حتى أصبح من السهل على أي زائر يمر بالقاهرة أن يحكم على كل شخص يراه ، ويحدد في سهولة ويسر طبقته الاجتماعية وحرفته أو عمله ، وديانته إن كان مسلماً أو ذمياً ، وذلك بمجرد النظر إلى هيئته العامة وملبسه ، ومن هنا اتخذ المؤرخون الزي أساساً للتعبير عن مهنة الشخص وعمله في المجتمع فيقال: فلان تفقه ، ثم ترك ذلك وتزيا بزي الفقراء ، وبعد مدة عاد وتزيا بزي الفقهاء[3] .

ولما كان موضوع هذه الفقرة ، يختص بملابس المماليك ، وما لحق من تغيير على يد السلطان قلاوون ، لذلك سنوجه اهتمامنا فقط إلى الحديث عنها .

ومن خلال ما ورد في المصادر التاريخية المملوكية[4] ، نستطيع أن نجمل

= الحرير السقلاطوني فسمي الحرار ، دفن بالقرافة ، وكانت المماليك تلعب الرماحة أثناء دوران المحمل في الفضاء الواسع أمام قبره .
السخاوي : تحفة الأحباب - ص: ٢٧٢ .
ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة - تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس - القاهرة ١٩٦٩ م - ص: ٢٠٠ .
محمد حمزة : قرافة القاهرة - ص: ٢٣٠ .

(١) ابن تغري بردي : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور - جـ ٣ - حررها وليام ببر ١٩٣٢ م - ص: ٤٥٥ ، ٤٥٧ .
(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري - ص: ٢٠٦ .
(٣) نفس المرجع : ص: ٢١٠ .
(٤) المقريزي : الخطط - جـ ٢ - ص: ٩٨ . =

السمات العامة لزي المماليك (قبل عهد السلطان قلاوون) في النقاط التالية :

ـ **لباس الرأس** : كان المماليك يلبسون على رؤوسهم « كلّوتة[١] صفراء مضربة تضريباً عريضاً ولها كلاليب[٢] بغير عمامة فوقها » وكانت شعورهم « مضفورة مدلاة بدبوقة وهي في كيس حرير إما أحمر أو أصفر[٣] » .

ـ **أحزمة الوسط** : كان المماليك يشدون على أوساطهم (خواصرهم) « ببنود[٤] من قطن بعلبكي مصبوغ عوضاً عن الحوائص[٥] »[٦] .

ـ **الأقبية**[٧] : وكانت «ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج »[٨] ، وهي إما

=
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٣٠ ـ ٣٣١ .
السيوطي : حسن المحاضرة ـ جـ ٢ ـ ص: ١١٠ ـ ١١١ .
ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٦٢ .

(١) كلوتة بتشديد اللام ، كلمة فارسية تعني الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن ، وكانت غطاء الرأس في الدولتين الأيوبية والمملوكية .
محمد رمزي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٣٠ ـ هامش ١ .

(٢) ذكر ابن تغري بردي والسيوطي لفظ آخر وهو «كلبندات» ومفردها كلبندة ، وهي كلمة فارسية تعني لباس الرقبة أو كوفية الرقبة ، وتربط تحت الذقن ، لحفظ ما فوق الرأس من الحركة ، وعلى ذلك فاللفظين يؤديان نفس المعنى .
محمد رمزي : المصدر نفسه ـ ص: ٣٣٠ ـ هامش ١ ، ٢ .

(٣) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٩٨ .

(٤) البنود (مفردها بند) ، وهو عبارة عن شريط عريض من القطن المصبوغ الملون ، وأحياناً كان يصنع من الحرير الأصفر ، ويستخدم حينئذٍ في المناسبات الرسمية .
ماير : الملابس المملوكية ـ ترجمة صالح الشيتي ـ القاهرة ١٩٧٢ م ص: ٤٩ .

(٥) الحوائص : (ومفردها حياصة) ، هي الأحزمة ، وكانت تصنع من معدن ثمين ، مثل الفضة المطلية بالذهب ، وأحياناً تصنع من الذهب الخالص المرصع بحجر اليشم ، وقد كانت تعرف قبل ذلك بالمناطق ومفردها منطقة .
ماير : المرجع السابق ـ ص: ٤٧ ـ ٤٨ .

(٦) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٩٨ .

(٧) الأقبية (مفردها قباء) وهو ثوب يلبس فوق الثياب .
محمد رمزي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٣١ ـ هامش ٣ .
وكانت هذه الأقبية على أنواع منها : الأقبية التترية ، والأقبية الإسلامية ومنها نوع نسب للأمير المملوكي سلار فقيل له القباء السلاري .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٩٩ .
مايز : المرجع السابق ـ ص: ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ .

(٨) يذكر (ماير) أن هذه اللفظة تعني بوضوح النسبة إلى البندقية (بندقي) وهذا راجع إلى أن البنادقة=

بيضاء أو مشجرة أحمر أو أزرق ، ومن فوق القباء ، « كمران[١] بحلق وإبزيم[٢] وصوالق[٣] بلغاري كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف وييه غلة ، مغروز فيه منديل[٤] طوله ثلاثة أذرع . . . »[٥] .

الأخفاف : كان المماليك يلبسون في أرجلهم خفين : الأول من الجلد البلغاري الأسود ، يعلوه خف ثان يقال له سقمان[٦] .

ويضيف ابن إياس على ذلك فيذكر أن هؤلاء المماليك كانوا « يربون لهم

= كانوا معروفين تماماً في أنحاء السلطنة المملوكية أكثر من أي شعب أوروبي آخر .
ماير : المرجع السابق ـ ص: ٤١ .

(١) ذكرها ابن تغري بردي «كمرات» ومفردها كمر ، وهي كلمة فارسية ، تعني الحزام المفرغ من وسطه لحشو النقود أو نحوها .
محمد رمزي : المصدر السابق ـ ص: ٣٣١ ـ هامش ٦.

(٢) الإبزيم : حديدة تكون في طرف الحزام يدخل فيها الطرف الآخر .
محمد رمزي : المصدر السابق ـ ص: ٣٣١ ـ هامش ١ .

(٣) صوالق (مفردها صولق) : هي مخلة أو حقيبة من الجلد ، يعلقها الشخص في حزامه من جهة اليمين .
سعيد عاشور : المجتمع المصري ـ ص: ٢١٢ هامش ٣ .
علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ـ ص: ٤٧٢ ـ ٤٧٣ .
عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ـ جـ ٢ ـ ص: ٧٤ .
ويتضح من هذا النص (ومما أورده كل من ابن تغري بردي وابن إياس) أن هذه الصوالق كانت كبيرة لدرجة أن كل صولق منها يسع نصف وييه وقيل وييه كاملة ، وأضاف ابن إياس فذكر أنه كان يعلق في هذا الصولق أيضاً معلقة خشب كبيرة ، وسكين كبيرة .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٣١ .
ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٦٢ .
أما السيوطي فقد ذكر لفظ آخر يؤدي نفس المعنى وهو «جلواز كبير يسع نصف وييه أو أكثر» .
السيوطي : المصدر السابق ـ جـ ٢ ـ ص: ١١١ .

(٤) يذكر ابن إياس أن كل منديل منها قدر فوطة كبيرة ، وأن هذه المناديل كانت من الخام والطرح ، ويمسح فيها المماليك أيديهم .
ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ـ ق ١ ـ ص: ٣٦٢ .

(٥) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٩٨ .

(٦) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٩٨ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٣١ .
ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٦٢ .

شوارب قدر السلفة الكتان »[1] .

وعندما تبوأ السلطان قلاوون عرش السلطنة لم يعجبه الزي السابق ، ومن ثم أبطله وأبدله بزي آخر أحسن منه ، وقد عد ذلك من محاسنه[2] .

وقد اعتبر (ماير) هذا التغيير إصلاح في الزي بدأه السلطان قلاوون وأكمله من بعده كل من ولديه الأشرف خليل والناصر محمد بن قلاوون[3] .

- وينحصر التغيير الذي حدث في عهد السلطان قلاوون في أمرين اثنين :

- توسيع أكمام الأقبية بعد أن كانت ضيقة وشبيهة بزي الفرنج .

- إضافة إلى الشاشات[4] إلى لباس الرأس بعد أن كانت غير موجودة في الزي السابق .

ويضيف المقريزي على ذلك فيذكر أنه « اقترح كل أحد من المنصورية ملابس حسنة »[5] .

وأدخلت على الزي بعد ذلك تعديلات كثيرة أشار إليها المقريزي وغيره من المؤرخين ، وليس هنا مجال الحديث عنها .

- مراسم تنصيب الأمراء في القبة المنصورية :

تعد مراسم تنصيب الأمراء في القبة المنصورية ، وأدائهم اليمين عند قبر السلطان قلاوون ، مظهر آخر من المظاهر الاجتماعية ، التي ارتبطت باسم السلطان قلاوون على اعتبار أنه رأس الأسرة التي حكمت مصر زهاء قرن من الزمان كما سبق القول .

---

(١) ابن إياس : المصدر السابق جـ ١ - ق ١ - ص: ٣٦٢ .
(٢) المقريزي : المصدر السابق - ص: ٩٨ .
ابن تغري بردي : المصدر السابق - ص: ٣٣١ .
السيوطي : حسن المحاضرة - جـ ٢ ص: ١١٠ - ١١١ .
ابن إياس : المصدر السابق - ص: ٣٦٢ .
(٣) ماير : الملابس المملوكية - ص: ٤١ - ٤٢ ، ٥٢ وما بعدها .
(٤) الشاشات : هي القماش الرقيق الذي يلف حول العمامة .
سعيد عاشور : المجتمع المصري - ص: ٢٢١ - هامش ٥ .
(٥) المقريزي : الخطط - جـ ٢ - ص: ٩٨ - ٩٩ .

وبادىء ذي بدء ، نـذكر أن هـذا التقليد بـدأ منذ قيـام الدولـة المملوكية ، وبالتحديد في عهد المعز أيبك ، وكان يتم إذ ذاك في قبة الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت مراسم الاحتفال تبدأ بأن ينزل الأمير من القلعة وعليه التشريف والشربوش ، وتوقد له شوارع القاهرة ، إلى أن يصـل إلى المدرسـة الصالحيـة بين القصرين ، ويحلف عند قبر الصالح نجم الدين أيوب بالقبة بجوار هذه المدرسة ، وكان يحضر تحليفه صاحب (حاجب) الحجاب وخاصكية السلطان ، ثم يمد السماط السلطاني لمن حضر وشارك الاحتفال بتنصيب الأمير في موكب من القبة الصالحية إلى القلعة .

وقد نقلت مراسم هذا الاحتفال بعد ذلك إلى القبة المنصورية ، وظلت تجري فيها حتى انقرضت دولة بني قلاوون .

هذا وقد كان أهل الأغـاني يجلسون في طـول الطريق من القلعـة إلى القبة المنصورية ، ليزفون الأمير في نزولـه وصعوده ، وقـد عدّ هـذا الاحتفال من جملة متنزهات القاهرة[٢] .

وكان سلاطين بيت قلاوون ، قد أدخلوا تقاليد وقواعد جديدة على مراسم هذا الاحتفال (بعد أن نقل إلى القبة المنصورية) منها ركوب الأمير فرسه تحت السنجق يحف بـه الأمراء ، ومنهـا طلوع الأمير إلى حضـرة السلطان بـالقلعـة حيث يبـوس الأرض ، ثم يقبل يد السلطان[٣] .

ونكتفي هنا ، بذكر وصف أورده المقريزي لمراسم الاحتفال بتنصيب أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون أميراً في ذي الحجة ٧٣١ هـ ، فيذكر أن السلطان الناصر محمد كان قد عزم على « أن يؤمر ولده أحمد المحضر من الكرك ، فركب الأمير بكتمر الساقي وسائر الأمراء وجميع الخـاصكية إلى القبـة المنصوريـة وعلى رأسه سنجق ، وأمرّ معه أيضاً ثلاثة أمراء عشراوات في يوم الاثنين سادس عشرية ، وألزم الأمير ناصر الدين بن المحسني والي القاهرة جميع أرباب الحـوانيت بالقـاهرة أن

(١) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٨٠ ـ ٣٨١ .
السيد الباز العريني : الفارس المملوكي (المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد ٥) ـ ١٩٥٦ م ص: ٥٨ .

(٢) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٨١ .

(٣) السيد الباز العريني : المرجع السابق ـ ص: ٥٨ .

يـوقدوا الشمـوع والقناديـل ، ويزينـوا القاهـرة ، فزينـوا الأسواق وأشعلوا الشمـوع والقناديل ، وجلس أربـاب الملهى في عدة أمـاكن يضربـون بآلاتهم فـرحاً بتـأمير أحمد بن السلطان »[1] .

سابعاً : الحالة الاقتصادية في عهد السلطان قلاوون :

كانت حالة مصر الاقتصادية مزدهرة في العصر المملوكي بدليل الانتعاش الذي شمل جميع مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة .

ـ الزراعة :

اهتم معظم سلاطين المماليك بالزراعة ، لأنها مصدر ثروة البلاد ، ومن ثم وجهوا عنايتهم إلى إنمائها ، وإكثار محصولها ، وكان من مظاهر هذا الاهتمام إنشاء الجسور (سواء السلطانية أو البلدية) في كافة أرجاء البلاد ، وأيضاً تطهير الترع ، وشق ترع جديدة لتوفير مياه الري للأراضي التي يتعذر وصول الماء إليها ، كذلك عنوا بأمر مقاييس النيل[2] .

وفيما يخص السلطان قلاوون في هذا الشأن ، نجد أنه أمر في سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م بحضر الخليج المعروف بالطيرية[3] (أو الطبرية) مما عاد بالنفع الكبير ، وكان سبب ذلك أن بلاد البحيرة التي كانت « مستغل الديار المصرية ومصيرتها »[4]

---

(١) المقريزي : السلوك ـ جـ ٢ ق ٢ ـ ص: ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ٢٨٧ .
علي إبراهيم حسن : ـ مصر في العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٤ م ص: ٤٩٤ .
ـ تاريخ المماليك البحرية ـ ص: ٤١٤ .
سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

(٣) الطيرية «أو الطبرية» ترعة تخرج من النيل قرب قرية تعرف بهذا الاسم من أعمال البحيرة وهي من البلاد القديمة بمركز كوم حمادة (أحد مراكز محافظة البحيرة الآن) .
محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ م ـ جـ ٢ ـ ق ٢ ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ م ـ ص: ٣٣٣ .
ويذكر (د. زيادة) أن هذه الترعة هي المعروفة بترعة الحاجر (نقلاً عن عمر طوسون) .
زيادة : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧١٣ هامش ٢ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ـ ص: ٢٥ .

استولى عليها «الشراقي[1] والبور الخرس[2] وصارت مراعي لجمال العربان ولمواشيهم وأهملت»[3] .

وعندما علم السلطان قلاوون أن المكان المعروف بالطبرية قد «عمي واستد على طول الزمان ، ولا بقي يقدر على عمله والٍ ولا رعية ، وأنه متى عمل على التراخي لم يفرغ منه في سنه ، فيجيء النيل وهو لم ينجز ، فيتربى الطين فيه وتبطل المصلحة»[4] .

وعلى الفور ، أمر السلطان قلاوون ولاة الوجه البحري ، بإحضار الرجال والعمَّالين والأبقار ولم يكتف السلطان بذلك ، وإنما خرج بنفسه لإنجاز هذا العمل الحيوي الهام ، وبصحبته الملك المنصور صاحب حماة وأولاده وجميع الأمراء والخواص والعساكر المصرية ، وبالفعل أنجز هذا المشروع ، وتم حفر الخليج في مدة عشرة أيام[5] .

وقد أشاد المؤرخون بقيمة هذا المشروع الحيوي الهام ، ومن بين هؤلاء ، ابن عبد الظاهر ، فذكر أن الله «بلغ بعمل ذلك المنافع ، وروى الشراقي ، ورغب الناس في الحضور إلى الزرع ، فجاؤوا من كل جهة ، وعمرت بذلك بلاد ، واتسعت

---

(١) الشراقي : وهي الأراضي التي لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها أو لسد طريق الماء عنها .
سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٧٥ .

(٢) الخرس : وهو عبارة عن الأرض التي فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع ، وتستخدم مراعي للدواب .
سعيد عاشور : نفس المرجع والصفحة .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ـ ص: ٢٥ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) أشار ابن عبد الظاهر إلى أن جملة ما حفر من هذا الخليج خلال تلك المدة اليسيرة بلغ «ستة آلاف وخمسمائة قصبة طولاً ، وثلاثة أقصاب وأربعة عرضاً ، وقصبتان وأكثر نزولاً على قدر الأماكن» .
ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ص: ٢٦ .
أما بيبرس الدوادار والمقريزي فقد أشاروا إلى أن طوله «ستة آلاف وخمسمائة قصبة وعرضه ثلاث قصبات وعمقه أربع قصبات بالقصبة الحاكمية (طولها حوالي ٣٨٥ سم)» .
بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ـ ص: ٢٦٣ .
المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧١٣ .

مزدرعات وذلك ببركة هذه الحركة اللطيفة »[1] .

وذكر بيبرس الدوادار أن الله بلغ به « المنافع وروى به في البحيرة كثير من الأراضي والبلاد الشراقي ، وصارت بعد الضياع تعد من الضِياع ، وتميز بها الارتفاع وخرج أكثرها في الأقطاع »[2] .

وذكر ابن حبيب أنه حصل به « الري العظيم لتلك الجهة »[3] .

وذكر المقريزي أنه حصل بسببه « نفع كبير ، وروي منه ما لم يكن قبل ذلك يروى »[4] وهكذا ساهم السلطان قلاوون في إحياء هذه الجبهة بعد أن كانت قد أصبحت من الموات .

وفي عهد المنصور قلاوون أيضاً غرس الناس بجزيرة الفيل[5] « الغروس وصارت بساتين وسكن الناس من المزارعين هناك »[6] .

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ـ ص: ٢٦ .

(٢) بيبرس الدوادار · زبدة الفكرة ـ ص: ٢٦٣ .

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ـ جـ ١ ـ ص: ٨٠ .

(٤) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧١٣ .

(٥) هي المعروفة اليوم بجزيرة بدران بشبرا بالقاهرة .
سعاد ماهر محمد : مساجد مصر ـ جـ ٥ ـ القاهرة ١٩٨٣ م ـ ص: ١٧ .

(٦) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ١٨٥ .
ويذكر المقريزي أن سبب ذلك هو أن السلطان صلاح الدين كان قد أوقف هذه الجزيرة على المدرسة الصلاحية بجوار قبر الشافعي بالقرافة ، ولما كثرت أطيان هذه الجزيرة بانحسار النيل عنها في كل سنة ، أصبحت هناك زيادة في أطيانها على ما وقفه السلطان صلاح الدين ومن ثم أمر الأمير علم الدين سنجر الشجاعي «بقياس ما تجدّد بها من الرمال وجعلها لجهة الوقف الصلاحي ، وأقطع الأطيان القديمة التي كانت في الوقف وجعلها لجهة الوقف الصلاحي ، وأقطع الأطيان القديمة التي كانت في الوقف وجعلها هي التي زادت فلما أمر الملك المنصور قلاوون بعمل المارستان المنصوري وقف بقية الجزيرة عليه» .
ونتيجة لذلك قام الناس بغرس الغروس بها وسكناها .
المقريزي : نفس المصدر والصفحة .
ويضيف المقريزي على ذلك فيذكر أنه في أيام محمد بن قلاوون تتابع الناس في إنشاء البساتين بجزيرة الفيل حتى صارت تنيف على مائة وخمسين بستاناً إلى سنة وفاة الناصر محمد ٧٤٠ هـ ، بحيث لم يبق فيها مكان بغير عمارة حتى ما كان منها وقفا على المدرسة الصلاحية وعلى البيمارستان المنصوري ، فقد حكر وغرس كله بساتين .
المقريزي . نفس المصدر ـ ص: ١٨٦ .

ـ التجارة :

شاءت الظروف أن يكون قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف ق ٧ هـ/ ١٣ م، مصحوباً بازدهار طريق البحر الأحمر وموانىء مصر، واضمحلال ما عداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب . ذلك أنه لم يكد يمضي على قيام دولة المماليك سنوات معدودة ، حتى استولى المغول على بغداد ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى ، فضلاً عن بلاد فارس التي اتخذها هولاكو مركزاً لدولته وبذلك اضمحل طريق التجارة البري بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانىء البحر الأسود من جهة أخر[١] .

وقد ترتب على اضمحلال طرق التجارة الآسيوية ، تحول طرق التجارة إلى طريق البحر الأحمر ، الذي أصبح من أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب ، ومن ثم ازدهرت موانيه المختلفة ، وبخاصة الطور والسويس ، فضلاً عن انتعاش الطريق البري الذي يربط بين هذين الميناءين وبين القاهرة[٢] .

وقد أدرك سلاطين المماليك ما يمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجية من ثروة ، فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها ، وإنشاء المنشآت التجارية المختلفة كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر والأسواق وغيرها ، كذلك حرصوا على التودد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية وإلى التجار الأوروبيين المترددين على الإسكندرية ودمياط من ناحية أخرى[٣] .

ويمكن القول ، بأن السلطان قلاوون عمل على تنشيط التجارة بمختلف الطرق ، من ذلك أنه أخذ يتودد إلى القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر ، ويحسن علاقته بحكامها ، فأرسل إلى الملك يوسف الأول بن عمر ملك اليمن يسالمه ويعاهده على التحالف والمودة ، بعد أن كان السلطان بيبرس قد امتهن ملوك اليمن وأهانهم . وعندما وصلت رسل ملك اليمن إلى مصر حرص السلطان

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٨٤ ـ ٢٨٦ .

(٢) نعيم زكي عطية : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ـ القاهرة ١٩٧٣ م ـ ص: ١٢٥ ، ١٣٣ .

محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ـ وفيها تناول الباحث أثر تحول طرق التجارة إلى طريق البحر الأحمر وانتعاش الطريق البري على ازدهار القرافة وكثرة المنشآت الدينية والتعليمية والتجارية بها خلال العصر المملوكي . ص: ١٠٤ ـ ١٠٨ .

(٣) سعيد عاشور (والرافعي) : مصر في العصور الوسطى ـ ص: ٥٤١ .

قلاوون على إكرامهم ، وأرسل معهم الهدايا والتحف إلى ملك اليمن ، ومثل ذلك يقال عن سياسة قلاوون تجاه أبي نمي شريف مكة[1] .

كذلك حرص السلطان قلاوون على تأمين طرق التجارة داخل مصر حتى تصل البضائع سليمة من موانىء البحر الأحمر ـ وبخاصة عيذاب ـ إلى موانىء البحر المتوسط وبخاصة الإسكندرية ودمياط ، ولتحقيق هذا الغرض ، أمر السلطان قلاوون الشريف علم الدين صاحب سواكن أن يوفق بين عرب جهينة وعرب رفاعة ـ وكان القتال قد اشتد بينهم في صحراء عيذاب ١٢٨١ م ـ ولا يعين طائفة على أخرى خوفاً من فساد الطريق .

وفضلاً عما سبق ، اتبع السلطان قلاوون سياسة جديدة تتمثل في إغراء تجار البلاد الشرقية والأوروبية على جلب بضاعتهم إلى الموانىء المصرية في البحر الأحمر والبحر المتوسط ، فأرسل إلى نوابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد إليهم ، وترغيبهم ، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال ، بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية[2] .

ولم يكتف السلطان بذلك ، وإنما أصدر مرسوماً إلى التجار الذين يفدون إلى مصر ، أشار فيه إلى ما سيجدونه من إقامة العدل وحسن المعاملة ، ورعاية مصالحهم ، وسلامة أنفسهم وأموالهم .

كذلك عقد السلطان قلاوون معاهدة تجارية مع جنوة ، ومنح البنادقة عدة امتيازات سهلت عليهم المتاجرة مع مصر ، وتعهد لهم بحماية رعاياهم وأموالهم[3] .

وأتت سياسة السلطان قلاوون أكلها ، فتنافس بعض أمراء الدول الشرقية على كسب صداقته ورغبتهم في التبادل التجاري مع مصر ، ويتبين ذلك مما حدث بين ملك اليمن المظفر يوسف ، وملك سيلان (أبو نكبا) فقد أرسل الملك الأول إلى الثاني يعرض عليه حلفاً تجارياً ، ولكن ملك سيلان فضل المحالفة مع حكومة المماليك في مصر ، ولهذا عمد إلى إرسال سفارة إلى السلطان قلاوون ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م ، وقد جاءت هذه السفارة عن طريق الخليج الفارسي فالعراق والشام بناء

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٨٦ .

(٢) المرجع نفسه ـ ص: ٢٨٧ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ٣٣٩ ، ٣٤٣ .
(نص المرسوم ـ ص: ٣٤٣ ـ ٣٤٥) .

على أمر ملكهم حتى لا يضطروا إلى المرور ببلاد اليمن .

وكان مع رسل ملك سيلان كتاب ، لم يوجد بالقاهرة من يحسن قراءته ، وقد ذكر فيه تخليه عن صحبة ملك اليمن ، وتعلقه بمحبة السلطان ، ورغبته في أن يتبادل (أي السلطان) التجارة مع جزيرته الغنية ، كذلك طلب من السلطان أن يعين له مندوباً بعدن ، ويبعث إليه برسول من قبله .

وقد أكرم السلطان قلاوون سفراء ملك سيلان ، وأجزل عليهم العطاء ثم أنقذ معهم رداً على كتاب ملكهم[1] .

ومما لا شك فيه أنه كان لهذه السياسة التجارية الناجحة أثرها الكبير في تنشيط حركة التجارة الداخلية في مصر بصفة عامة والقاهرة بصفة خاصة .

وقد تبارى السلاطين والأمراء في إنشاء الكثير من المنشآت التجارية كالأسواق والقيساريات والفنادق والخانات والوكالات ، وكان يعلو بعض هذه المنشآت رباع[2] سكنية تستأجر بأجور زهيدة .

وقد أقيمت بالقاهرة خلال عهد السلطان قلاوون ، بعض المنشآت التجارية الهامة منها :

أ - منشآت السلطان قلاوون نفسه :

١ - سوق العنبريين : كان يوجد مكان هذا السوق في العصر الفاطمي « سجناً لأرباب الجرائم يعرف بحبس المعونة ، وكان شنيع المنظر لا يزال من يجتاز عليه يجد منه رائحة منكرة »[3] .

وعندما كان السلطان قلاوون أميراً في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، نذر إن

---

(١) المرجع نفسه - ص: ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٢) الرباع (مفردها ربع) : من المسقفات الهلالية ، وهو عمارة ضخمة للاستغلال بواسطة حوش كبير يوجد به عدة طباق متجاورة وعلو بعضها لسكن عدد كبير من الأسرات بأجرة شهرية زهيدة .

عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري (معجم المصطلحات الفنية) ص: (س) .

(٣) المقريزي : الخطط - جـ ٢ - ص: ١٠٢ .

ويضيف المقريزي فيذكر أنه كان يسجن فيه أرباب الجرائم من السرّاق وقطاع الطرق ونحوهم . - نفس المصدر - ص: ١٨٨ .

أتاه الله الملك ، أن « يبني هذا الحبس مكاناً حسناً » ، لأنه عندما كان يمر من داره إلى قلعة الجبل على هذا الحبس « يشم منه رائحة رديئة ويسمع منه صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعري والقمل»[(١)] .

وقد وفّى قلاوون بنذره ، فأمر سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م بهدم « حبس المعونة وبناه سوقاً أسكنه بياعي العنبر »[(٢)] .

ويبدو أن تجارة العنبر كانت رائجة في ذلك الوقت ، ومن ثم عول السلطان قلاوون على بناء هذا السوق، ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي من أنه كان للعنبر إذ ذاك بديار مصر «نفاق وللناس فيه رغبة زائدة، لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وإن سلفت إلا ولها قلادة من عنبر ، وكان يتخذ منه المخاد والكلل والستور وغيرها وتجار العنبر يعدّون من بياض الناس ولهم أموال جزيلة وفيهم رؤساء وأجلاء »[(٣)] .

٢ ـ **القيسارية بخط بين القصرين** : لسوء الحظ اندثرت هذه القيسارية ، إلا أنه في ضوء ما ورد بوثيقة الوقف نستطيع أن نحدد موضعها بدقة ، فقد كانت تشغل المساحة الواقعة فيما بين الواجهة الجنوبية الغربية للمدرسة المنصورية والواجهة الشمالية الشرقية لحمام البياطرة[(٤)] ، أي في نفس الموضع الذي يشغله حالياً الطريق

---

(١) نفس المصدر ص: ١٠٢ .

(٢) نفس المصدر ـ ص: ٨٩ ، ١٠٢ .
وتجدر الإشارة إلى ما ذكره المقريزي في موضع آخر من أن الناصر محمد بن قلاوون هو الذي أمر بهدم حبس المعونة وبنى قيسارية للعنبر .
نفس المصدر ـ ص: ١٨٨ .

(٣) المقريزي : المصدر السابق ـ ص: ١٠٢ ـ ١٠٣ .
وتجدر الإشارة إلى أن الناصر محمد جعل هذا السوق وما فوقه من المساكن وقفاً على الجامع الجديد الناصري بظاهر مصر بجوار موردة الحلفاء (وقد اندثر هذا الجامع) .
ونضيف على ذلك فنقول إنه بعد سنة ٧٧٠ هـ قلت رغبة الناس في استعمال العنبر ، لأنه كثر الغش فيه حتى صار اسماً لا معنى له على حد قول المقريزي نفسه وقد تقلبت الأحوال على هذا السوق إلى أن عاد إليه أهل العنبر على عادتهم في سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م .
المقريزي : نفس المصدر ـ ص: ٨٩ ، ١٠٣ .
هذا ولا يزال هذا السوق باقياً حتى اليوم بجوار مدرسة الأشرف برسباي (جامع الأشرفية) بشارع المعز لدين الله بالقاهرة .

(٤) لا يزال هذا الحمام باقياً حتى اليوم وهو المعروف بحمام قلاوون أو حمام النحاسين ، ويوجد على يسار الداخل إلى مستشفى قلاوون الرمدي .

الموصل حالياً لداخل مستشفى قلاوون الرمـدي والذي أنشىء ١٩١٠ م كمـا سبق القول[١] .

وكانت هذه القيسارية تشتمل على « حوانيت متجـاورة ومتقابلة عـدتها اثنـان وخمسون حانوتاً ، معقودات أقبياً بالطوب الآجر والجبس ، وفيما بين ذلك الحوانيت المذكورة مقاعد عدتها أربعة وثلاثون مقعداً ، وبساحة القيسارية المـذكورة معـالم حوانيت ومقاعد لم تكمل عمارتها عدتها أربعة وعشرون والمرافق والحقوق »[٢] .

هذا وتجدر الإشارة إلى أنه آل إلى ملك السلطان قلاوون بعض منشآت تجارية أوقفها على مصالح البيمارستان المنصوري ومنها قيساريتين بخط بين القصـرين[٣] وقيسارية الصبانة بالفسطاط ومنها فندق وربع الملك السعيد بركة خـان بن الظاهـر بيبرس بالفسطاط أيضاً[٤] .

وفضلاً عما سبق ، كانت توجد عدة مقاعد[٥] متجاورة على صف واحد (بخط بين القصرين أيضاً) تشغل الواجهة الجنوبية الشرقية لقبة ومدرسة السلطان قلاوون ، وكان تحت كل مقعد منها « مجرى لطيف يغلق عليه زوج أبواب لطاف » كما أنها كانت مفروشة « باطنها وظاهرها بالبلاط الكدان»[٦] .

وقد أمدنا المقريزي بتفاصيل هامة عن هذه المقاعد فذكر أنه كان يوجد تجاه شبابيك القبة المنصورية سوق القفيصـات ، وهو سـوق « معد لجلوس أنـاس على

---

(١) انظر ص: ٥٥ من هذا الفصل .

(٢) محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمـارستان المنصـوري ص: ٣٤٦ ـ ٣٤٧ سطر ١٢٨ ـ ١٣٠ .

(٣) نفس المرجع : ص: ٣٤١ ـ ٣٤٦ .

(٤) ابن دقماق : (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن إيدمر العلائي) (ت ٨٠٩ هـ) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ جـ ٤ .

(٥) كانت مثل هذه المقاعد تؤجر للباعة الذين كان يفترشون أرض الأسواق ببضاعتهم وكان يطلق عليهم في المصادر اسم «أرباب المقاعد» وكان أمثال هؤلاء الباعة يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات والخضروات أو الخواتم والأساور وغيرها من زينة النساء ، وكان سوق بين القصرين يمتلىء بأمثال هؤلاء الباعة (أرباب المقاعد) ، وكانوا يشعلون المشاعل بالليل مما يضفي على المكان جواً بديعاً ، كان يغري الناس بالمجيء إليه على سبيل الاسترواح والتنزه «فيمر هنالك من الخلاعات والمجون ما لا يعبر عنه بوصف ».
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٩٧ .
قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ـ ص: ٤٣ .

(٦) محمد محمد أمين : المرجع السابق ـ ص: ٣٥٠ ـ ٣٥٢ .

تخوت تجاه شبابيك القبة المنصورية ، وفوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك فيها الطرائف من الخواتم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك ، وهذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التي عليها مباشرة المارستان المنصوري »[(١)] .

ب ـ منشآت الملك الصالح علي بن قلاوون :

١ ـ قيسارية أمير علي : كانت هذه القيسارية بالشارع الأعظم « تجاه الجملون الكبير بجوار قيسارية جهاركس يفصل بينهما درب قيطون »[(٢)] .

٢ ـ فندق الملك الصالح : كان هذا الفندق بجوار مسجد سام[(٣)] بن نوح على يسار المار قاصداً باب زويلة ، وقد أمر بإنشائه هو وما يعلوه من الربع الملك الصالح المنصور قلاوون[(٤)] .

جـ ـ منشآت الأمراء في عهد قلاوون :

١ ـ فندق بلال المغيثي[(٥)] : كان هذا الفندق فيما بين « خط حمام خشيبة وحارة العدوية »[(٦)] ، وقد كان التجار وأرباب الأموال يودعون في هذا الفندق صناديق

---

(١) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٩٧ .
ويضيف المقريزي على ذلك فيذكر أن الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك لما تولى نظر البيمارستان ٧٢٦ هـ «عمل فيه أشياء من ماله منها خيمة ذرعها مائة ذراع نشرها من أول جدار القبة المنصورية بحذاء المدرسة الناصرية إلى آخر حد المدرسة المنصورية بجوار الصاغة فصارت فوق مقاعد الأقفاص تظلهم من حرّ الشمس وعمل لها حبالاً تمد بها عند الحر وتجمع إذا امتد الظل ، وجعلها مرتفعة في الجو حتى ينحرف الهواء» .
وقد نقلت هذه الأقفاص في جمادى الأولى ٨٣٣ هـ إلى القيسارية المستجدة تجاه الصاغة .
المقريزي : نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر ـ ص: ٣٩ ، ٨٧ .

(٣) لا يزال هذا المسجد باقياً حتى اليوم بجوار سبيل محمد علي المعروف بسبيل العقادين بشارع المعز لدين الله ، على يسار المار قاصداً بوابة المتولي (باب زويلة) .

(٤) المقريزي : المصدر السابق ـ ص: ٩٢ .

(٥) هو الأمير الطواشي أبو المناقب حسام الدين بلال المغيثي ، خدم عدة ملوك واستقر لالا الملك الصالح علي بن قلاوون ، توفي ٦٩٠ هـ ودفن بتربته بالقرافة .
المقريزي : المصدر السابق ـ ص: ٩٢ .

(٦) نفس المصدر والصفحة .
ويستفاد من هذه العبارة أن هذا الفندق كان بمنطقة الصاغة الحالية .

المال ، وذكر المقريزي أنه كان يوجد بدائر هذا الفندق « صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير لا يفضل عنها من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجل وصفه . . . »[1] .

٢ ـ فندق طرنطاي[2] : كان هذا الفندق خارج باب البحر ظاهر المقس (ميدان رمسيس الآن) ، وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام ، كما كان يعلوه ربع كبير[3] ، وقد احترق جميعه سنة ٧٢١ هـ في واقعة هدم الكنائس وحريق القاهرة ومصر[4] .

ـ الصناعة :

ازدهرت الصناعة في عصر المماليك البحرية بصفة عامة وفي عهد السلطان قلاوون وبنيه بصفة خاصة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى الرخاء الاقتصادي الذي تمتعت به مصر خلال ذلك العصر ، لمركزها التجاري الكبير كما سبق القول ، وما ترتب على ذلك في استقرار الحياة الاجتماعية ، وانتعاش الفنون والصناعات بشكل كبير لم تشهده مصر من قبل .

ومن أنواع الصناعات التي برزت خلال ذلك العصر نوعين متميزين :

١ ـ الصناعات الحربية :

وقد احتلت مكاناً بارزاً في النشاط الصناعي خلال ذلك العصر الذي اتسم بكثرة الحروب والصراعات الداخلية والخارجية ومن أهم هذه الصناعات صناعة السيوف بأنواعها وأجناسها ، والدبابيس والأطبار والبلط والمزاريق والرماح وقس الأيدي والأرجل ، والخوذ والتراس وغير ذلك مما كان يصنع ويحفظ في خزائن السلاح التي عرفت خلال هذا العصر باسم « السلاح خاناه أو الزردخاناه »[5] .

---

(١) نفس المصدر ـ ص: ٩٢ .

(٢) هو الأمير حسام الدين طرنطاي بن عبد الله المنصوري ، رباه الملك المنصور قلاوون صغيراً ورقاه في خدمته إلى أن تقلد السلطنة فجعله نائباً للسلطنة بديار مصر ، ولم يزل على مكانته إلى أن مات الملك المنصور قلاوون ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م، وقا بعده ابنه الأشرف خليل فقبض عليه وقتله في ذي القعدة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٨٦ .

(٣) نفس المصدر ـ ص: ٩٤ .

(٤) عن هذه الواقعة : انظر نفس المصدر ـ ص ٥١٢ ـ ٥١٦ .

(٥) نبيل عبد العزيز : خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك (المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد ٢٣ ـ ١٩٧٦ م) ص: ١٠٨ .

ولحسن الحظ بقيت نماذج لأنواع من هذه الأسلحة محفوظة في المتاحف المختلفة في مصر وخارجها وبخاصة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، ومتحف طوبقا بوسراي في استانبول .

وتشهد هذه النماذج بما كانت عليه هذه الصناعة من دقة الصنع وروعة الزخرف[1] .

ويرتبط بالصناعات الحربية أيضاً صناعة السفن الحربية بأنواعها المختلفة ومنها الشواني والحراريق والطرائد وغير ذلك[2] .

ـ الصناعات المدنية :

ومن أشهرها صناعة المنسوجات بأنواعها المختلفة ، وصناعة المعادن والأخشاب والزجاج والخزف والفخار ، وقد بلغت هذه الصناعات درجة عالية رفيعة المستوى في الدقة والإتقان . ولعل فيما تحتفظ به المتاحف المختلفة في مصر وخارجها من نماذج هذه التحف لخير شاهد على ذلك[3] .

ثامناً : النشاط العمراني في عهد السلطان قلاوون :

لما كان موضوع هذه الفقرة ، يختص بالنشاط العمراني في عهد السلطان قلاوون ، لذلك كان لزماً علينا أن نوضح أولاً مفهوم كلمة العمران حتى يكون واضحاً منذ البداية ما نرمي إليه من معالجتنا هذه . والعمران كما يذكر أصحاب المعاجم

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه النماذج وما تزدان به من زخارف غنية دقيقة راجع حسين عليوة : السلاح المعدني للمحارب المصري في عصر المماليك . (رسالة دكتوراه ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٤) .

(٢) عن هذه السفن راجع :
محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ٣١٤ ـ ٣١٧ .
سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٨٠ ـ ٢٨١ .
سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ـ القاهرة ١٩ م .

(٣) آثرنا عدم الحديث عن هذه الصناعات خشية الإطالة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الكثرة الكثيرة منها ترجع إلى عهد الناصر محمد بن قلاوون وما بعده ، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى المراجع الآتية وما بها من مراجع عديدة :
١ ـ زكي حسن : فنون الإسلام ـ القاهرة ١٩٤٨ م .
٢ ـ سعاد ماهر : الفنون الإسلامية القاهرة ١٩٨٦ هـ .
٣ ـ حسن الباشا (وآخرون) : القاهرة (الأهرام ١٩٧٠ م) وبخاصة الفصل الثالث من الباب الثاني .

(القواميس) اللغوية العربية من « عمر والعمارة نقيض الخراب ، ومكان عامر ذو عمارة ، وعمر الرجل بيته يعمره عمارة وعمراناً لزمه ، وأعمره المكان واستعمره فيه جعله يعمره ، وعمرت بمكان كذا أي أقمت به ، والمعمر المسكن ما دام عامراً بأهله ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾[1] أي أذن لكم في عمارتها واستعمر الله عباده في الأرض طلب منهم العمارة فيها ، وأعمره الأرض وجدها عامرة آهلة ، والعمارة بالكسر ما يعمر به المكان »[2] .

وفي ضوء ما سبق ، تعني كلمة العمران المسكن العامر بأهله أو تطلق على ما يعمر به المكان .

ويمكن القول أنه خلال عصر المماليك ، ازداد نمو القاهرة، واضطرد عمرانها بشكل كبير ذلك أنه يستدل مما جاء في المصادر التاريخية المختلفة ، ومن الوثائق التي تعج بها دور المحفوظات المختلفة ، ومن الآثار المعمارية التي ما تزال باقية حتى اليوم ، أن مدينة القاهرة شهدت نهضة المماليك وأمرائهم ومن نهج نهجهم من ذوي اليسار وأهل الجاه والنفوذ .

ومن بين هؤلاء وأولئك يبرز اسم المنصور قلاوون ، ذلك السلطان الذي كان شغوفاً بالتشييد ، ولعاً بالبناء ، فقد دفع بحاسته المرهفة ، وذوقه الغني حركة الإنشاء والتعمير دفعة نشيطة ، ما تزال آثارها باقية حتى يومنا هذا .

وإذا كان بعض المؤرخين قد أخذ على السلطان قلاوون حبه لجمع المال[3] ، فإنه يمكن القول بأن هذه الأموال ، قد استغلها السلطان قلاوون في بناء الكثير من المنشآت الضخمة التي خلدت ذكراه ، والتي كانت أشهرها مجموعته التي ما تزال ماثلة بين ظهرانينا حتى اليوم بشارع المعز لدين الله ـ وهي موضوع هذا البحث ـ هذا

---

(١) قرآن كريم : سورة هود ، الآية: ٦١.

(٢) الزمخشري : (جاد الله أبي القاسم محمود بن عمر) ت ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م أساس البلاغة ـ جـ ٢ ـ القاهرة ١٩٢٣ م ـ ص: ١٤١ .
ابن منظور : (جمال الدين محمد بن مكرم) ت ٧١١هـ/ ١٣١١ م . لسان العرب ـ جـ ٦ ـ سلسلة تراثنا (طبعة مصورة عن طبعة بولاق) ص: ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ، ٢٨٨ .
الزبيدي) (محب الدين أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني) ت ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩١ م .
شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس ـ جـ ٣ ـ القاهرة ١٣٠٦ هـ/١٨٨٩م ـ ص: ٤٢١ ـ ٤٢٢ ـ ٤٢٥ .

(٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ـ جـ ٢ ـ ص: ٢٧٠ .

فضلاً عن الحروب التي قام بها ضد الصليبيين والمغول مما كان يتطلب مزيداً من الأموال[1] .

ونستطيع أن نقسم عمائر السلطان قلاوون إلى قسمين : القسم الأول يشتمل على عمائرة ببلاد الشام ، ويشتمل القسم الثاني على عمائره بمصر وبخاصة في القاهرة وقلعة الجبل .

أولاً : عمائر قلاوون ببلاد الشام :

من المعروف أن بلاد الشام كانت مسرحاً للكثير من الحروب والمعارك (كما سنرى في الفصل الثالث) ومن ثم كانت تتعرض مدنها المختلفة بما فيها من قلاع وحصون وأبنية للهدم والتدمير والحرق وغير ذلك .

ولذلك عوّل السلطان قلاوون على تجديد القلاع الشامية ، وبناء بعض المدن التي تعرضت للحرق والتدمير والهدم .

ومن أهم هذه القلاع قلعة حلب[2] وقلعة كركر[3] التي أمر السلطان بتجديد عمارة كل منهما[4] .

وعندما تم للسلطان قلاوون فتح مدينة طرابلس[5] الشام في ربيع الآخر

---

(١) سعيد عاشور (والرافعي) : مصر في العصور الوسطى ـ ص: ٤٦٨ .

(٢) يستفاد مما أورده ابن حبيب ، أن هذه القلعة كان قد خربها هولاكو ٦٥٧ هـ ، وظلت على ذلك ، إلى أن أمر السلطان قلاوون بعمارتها على يد الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة ، إلا أن عمارتها لم تكمل إلا في سنة ٦٩٠ هـ أي بعد وفاة المنصور قلاوون ، ومن ثم كتب عليها اسم السلطان الأشرف خليل وألقابه .
ابن حبيب : تذكرة النبية ـ جـ ١ ـ ص: ١٤٠ .

(٣) كركر : قلعة حصينة شاهقة على جانب الفرات الغربي ، وهي من أعظم ثغور الشام .
محمد رمزي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢٧ هامش ٢ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢٧ .

(٥) أطلق المؤرخون على هذه المدينة (طرابلس اللبنانية الآن) هذا الاسم تمييزاً لها عن مدينة طرابلس الغرب بليبيا ، وقد لعبت هذه المدينة دوراً خطيراً خلال العصور الوسطى ، وذلك بحكم موقعها في منتصف الساحل الشرقي لحوض البحر المتوسط تقريباً ، فضلاً عن إمكانياتها الاقتصادية الوفيرة ، وقد شهدت هذه المدينة أعز أيامها في عصر المماليك بدولتيه البحرية والبرجية .
السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ـ الإسكندرية ١٩٦٦ م ـ ص: ١ .

٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م[١] .

أمر بهدم هذه البلدة بما فيها من العمائر والآدر والأسوار وأن تبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن ففعل ذلك[٢] .

وقد عرفت هذه المدينة الجديدة باسم « طرابلس المنصورية »[٣] ، أو « طرابلس المستجدة »[٤] .

وأمر السلطان كذلك ببناء جامعها الكبير الذي اشتهر باسم الجامع الكبير المنصوري[٥] .

وقد أقيمت هذه المدينة الجديدة على ضفتي نهر طرابلس المعروف بنهر أبي علي ، على بعد نحو ميلين من المدينة القديمة[٦] ، وذلك حتى تتدرج ذكرى المدينة

---

(١) أشار (د. سالم) إلى أن فتح المدينة تم في ٤ جمادى الآخرة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م .
المرجع السابق ص: ٣٠٥ ، ٣٧٠ .
والصحيح هو (ربيع الأخر ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م) وهو التاريخ الذي يكاد يجمع عليه معظم المؤرخين (ابن حبيب ، المقريزي ، ابن تغري بردي) وابن العماد باستثناء العيني الذي ذكر (نقلاً عن ابن كثير) أنه ٤ جمادى الآخرة ٦٨٨ هـ وليس ٦٨٩ كما ذكر (د. سالم) نقلاً عن ابن كثير أيضاً .
ابن حبيب : تذكرة النبيه ـ جـ١ ـ ص: ١٢٢ .
المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٤٧ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢١ .
العيني : عقد الجمان ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٨٠ .
ابن العماد : شهذات الذهب جـ ٥ ص: ٤٠٣ .
(٢) العيني : عقد الجمان ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٨١ .
(٣) ابن حبيب : المصدر السابق ـ ص: ١٢٢ .
(٤) العيني : المصدر السابق ـ ص: ٣٨٣ (نقلاً عن بيبرس الدوادار).
(٥) يعد هذا الجامع من أعظم المساجد الجامعة بطرابلس ، ويبدو أن عمارته لم تكمل في عهد السلطان قلاوون ، وهو الآمر بإنشائه ، فأكمله ابنه الأشرف خليل حيث أن النص التأسيسي يشير إلى أن الأشرف خليل هو الآمر بإنشاء هذا الجامع وأن الفراغ منه تم ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م .
السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ـ ص: ٤٠٠ ـ ٤٠٢ ـ ٤٠٣ .
(٦) ذكر معظم المؤرخين أن المدينة الجديدة تبعد عن المدينة القديمة بنحو ميل .
العيني : المصدر السابق ـ ص: ٣٨١ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢٢ .
ابن العماد : المصدر السابق ص: ٤٠٣ .

الصليبية في طي النيسان ، وحتى تتجنب المدينة الجديدة ما قد يصيبها من غازات الفرنجة الذين تكتلوا في عكا وقبرص[١] .

وقد عاب المؤرخون هذا الموضع فذكر القلقشندي أنه « لما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة ، ذميمة المسكن، فلما طالت مدة سكنها ، وكثر بها الناس والدواب ، وصرفت المياه الآجنة التي كانت حولها نقايع ، وعملت بساتين ، ونصب بها المنصوب والغراس ، فخف ثقلها وقل وخمها »[٢] .

وذكر ابن تغري بردي وابن العماد أن هذا الموضع كان « رديء الهوى والمزاج من الوخم »[٣] وبمرور الوقت ازداد اتساع المدينة ونما عمرانها حتى أصبحت مدينة جليلة على حد قول المقريزي[٤] .

هذا وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن لهذه المدينة الجديدة سور يحميها ، اكتفاء بالأبراج الضخمة التي أخذ المماليك يقيمونها بحذاء ساحل شبه جزيرة المينا لتمكين الدفاع عن طرابلس من جهة الساحل[٥] .

وأخيراً ينبغي أن نشير إلى أن طرابلس صارت منذ هذا التاريخ ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م إحدى نيابات البلاد الشامية في العصر المملوكي ، وكانت تلي نيابة حلب في الأهمية وكان نائبها على نقيض نائب دمشق أو حلب ، يجمع بين نيابة الإقليم ونيابة القلعة وكان يلقب بكافل المملكة الشريفة الطرابلسية .

وكانت نيابة طرابلس تشتمل بالإضافة إلى الحاضرة طرابلس على ست نيابات كبرى وست ولايات صغرى وست نيابات مستحدثة هي نيابات قلاع الدعوة أضيفت إلى نيابة طرابلس[٦] .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ـ ص: ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

(٢) القلقشندي : (أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ القاهرة ١٩ م ـ جـ ٤ ـ ص: ١٤٣ .

(٣) ابن تغري بردي : المصدر السابق ـ ص: ٣٢٢ .
ابن العماد : المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٤) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٤٨ .

(٥) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ـ ص: ٣٧١ .

(٦) نفس المرجع ـ ص: ٣٠١ ـ ٣٠٣ ـ ٣١٠ ـ ٣١٦ .
وانظر أيضاً : سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ١٩٨ ـ ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

ثانياً : عمائر السلطان قلاوون في مصر :

تركزت عمائر السلطان قلاوون في مصر في القلعة ـ وهي مقر الحكم وكرسي السلطنة ـ والقاهرة ، أما بقية البلاد المصرية فلم أعثر فيما وقع بين يدي من مصادر متعددة (وهي المدونة في ثبت المصادر بنهاية هذا البحث) على أية إشارات بخصوص بناء عمائر باسم السلطان قلاوون في أي من هذه البلاد .

١ ـ منشآت قلاوون بالقلعة :

أمر السلطان قلاوون ببناء العديد من المنشآت المعمارية المتعددة الأغراض بالقلعة ، إلا أنها (لسوء الحظ) اندثرت ، ومن ثم انحصرت معلوماتنا عنها في ضوء ما ورد في المصادر التاريخية التي نستطيع من خلالها أن نرتب تاريخ إنشاء هذه المنشآت ترتيباً زمنياً ، وذلك على النحو التالي :

أ ـ الجب : عمره السلطان قلاوون في سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م ، كي يحبس فيه الأمراء ، وقد كان هذا الجب « مهولاً ، مظلماً كثير الوطاويط كريه الرائحة يقاسي المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه »[١] .

ب ـ البرج بالقلعة : في أواخر سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م، شرع السلطان في عمارة برج عظيم على جانب باب السرّ[٢] الكبير ، وبنى علوه مشترفات وقاعات مرخمة لم ير مثلها ، وسكنها في صفر ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م[٣] .

ومن الطبيعي أن يكون هذا البرج أحد أبراج القلعة التي أسكنها السلطان

---

(١) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٢١٣ .
وتجدر الإشارة إلى أنه في سنة ٧٢٩ هـ، تم نقل المسجونين في هذا الجب إلى الأبراج ، وردم ، وعمر فوق الردم طباقاً ، وكان ذلك على يد الأمير بكتمر الساقي .
المقريزي : نفس المصدر ـ ص: ١٨٨ ـ ١٨٩ ـ ٢١٣ .

(٢) باب السرّ : هو أحد أبواب القلعة ، ويختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما ، يتوصل إليه من الصّوه وهي بقية النشز الذي بنيت عليه القلعة في جهة القاهرة ، بتعريج يمشي فيه مع جانب جدارها البحري حتى ينتهي إليه ، بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان أيام المواكب ، وهذا الباب لا يزال مغلقاً حتى ينتهي إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق .
القلقشندي : صبح الأعشى ـ جـ ٣ ـ ص: ٣٧٤ .

(٣) نفس المصدر ـ ص: ٣٧٣ .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٢٠٤ .

قلاوون لمماليكه الجدد الذين غلب عليهم العنصر الجركسي ومن هنا جاءت تسميتهم بالمماليك البرجية كما سبق القول .

جـ ـ الإيوان : يذكر المقريزي أن السلطان قلاوون أنشأ بالقلعة الإيوان المعروف بدار العدل ، ومن ثم هجرت دار العدل[1] القديمة ، وظلت على ذلك إلى أن هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٢ هـ/ ١٣٢٢ م ، وعمل موضعها الطبلخاناة[2] .

وكانت العادة أن يجلس السلطان بهذا الإيوان ، للنظر في المظالم وذلك يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع وعلى مدار السنة ، باستثناء شهر رمضان فإنه لا يجلس في هذا المجلس[3] .

---

(١) دار العدل القديمة : أمر بإنشائها الظاهر بيبرس ٦٦١ هـ، وصار يجلس بها لعرض العساكر كل يوم اثنين وخميس ، وابتدأ بالحضور في أول سنة ٦٦٢ هـ ، وقد هجرت بعد بناء المنصور قلاوون للإيوان المعروف بدار العدل ، وظلت في موضعها حتى هدمها الناصر محمد بن قلاوون ٧٢٢ هـ ، وعمل موضعها طبلخاناة .
المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٢) حدد كازانوفا موضعها فذكر أنها كانت تشغل موضع دار المحفوظات الحالية .
كازانوفا (بول) : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ـ ترجمة وتقديم د. أحمد دراج ـ مراجعة د. جمال محرز ـ القاهرة ١٩٧٤ م ـ ص: ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٣) المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٢٠٦ .
وتجدر الإشارة إلى أن الأشرف خليل بن قلاوون قد جدد هذا الإيوان ، واستمر جلوس نائب دار العدل به ، ثم هدمه الناصر محمد بن قلاوون ، وأعاد بنائه من جديد ، وزاد فيه فجاء من أعظم المباني الملوكية . نفس المصدر والصفحة .
وقد ظل هذا الإيوان باقياً مدة طويلة خلال العصرين المملوكي والعثماني وقد اشتهر ذكره بين معظم الرجالة الأجانب وعلماء الحملة الفرنسية باسم «ديوان يوسف»أو «إيوان يوسف» ، كذلك عرف بهذا الاسم بين المؤرخين والرحالة العرب ، وقد بني جامع محمد علي مكان هذا الإيوان .
كازانوفا : المرجع السابق ـ ص: ١٢٣ ـ ١٢٧ .
جومار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل (من كتاب وصف مصر) نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه د. أيمن فؤاد سيد ـ القاهرة ط ١ ـ ١٩٨٨ م ـ ص: ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .
النابلسي : الحقيقة والمجاز ـ ص: ٢٥٠ .

د ـ القبة بالرحبة الحمراء ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م : يذكر ابن عبد الظاهر أن السلطان قلاوون رسم ببناء « قبة في الرحبة الحمراء بالقلعة المحروسة بمباشرة الأمير علم الدين المنصوري فجاءت من عجائب الأبنية التي ما عمر مثلها ملك في ممكلة من الممالك، ومن عارض في هذا القول فليقل : فلان في المكان الفلاني ، فنسلم له ذلك ، والذي بهذه القبة خاصة من العمد الكبار والصغار الملونة والمذهبة أربعة وتسعون عموداً خارجاً عن الرواقات ، والذي ألصق بها من الذهب ألفان وثلاثمائة وست ذهباً مصرياً ، وأما عن الرخام فما لا تحصى قيمته ولا تحصر ، وفي جدران رواقاتها صفة قلاع مولانا السلطان قلعةً قلعةً وحصناً حصناً ببحارها وأنهارها وسهولها وجبلها ، وكتب على لوح رخام منها أن الشروع فيها كان في مستهل شعبان من هذه السنة (أي سنة ٦٨٥ هـ) ، وفرغت في شوال من هذه السنة[١] .

وقد اختلف المؤرخون (الذين جاؤوا بعد ابن عبد الظاهر) بشأن هذه القبة، فابن الفرات ذكر أنها بنيت محل القبة الظاهرية التي بقلعة الجبل بالرحبة ، وقد هدمت القبة الظاهرية في ١٠ رجب ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م ، وتم الفراغ من قبة قلاوون في شوال ٦٨٥ هـ[٢] .

أما المقريزي فهو وإن كان قد اتفق مع ما ذكره ابن الفرات ، إلا أنه أورد لنا نصاً على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أنه ذكر أن قبة قلاوون قد حلت محل قلة بيبرس التي نسب إليها باب القلة .

وإذا صح ما ذكره المقريزي ، فإن ذلك يعني أن قبة قلاوون ، كانت تشغل موضع باب القلعة (المواجة لجامع الناصر محمد من الجهة الشمالية الشرقية) ويضيف المقريزي فيذكر أن الناصر محمد هدم قبة والده وجدد باب القلة وعمل له باباً ثانياً[٣] .

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ـ ص: ١٣٩ .
ويضيف ابن عبد الظاهر ، فيذكر أن السلطان قلاوون عندما رجع من سفره «جلس بهذه القبة فاستجلى جمالها واستحسن كمالها واستقبل إقبالها وحضر صاحب حماه وعمه والأمراء جميعهم بها فأخذت أشعتها بأبصارهم وكسبوا من نورها ما زاد في أنوارهم» نفس المصدر ـ ص: ١٤٠ .

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ـ جـ ٨ ـ ص: ٣٨ .

(٣) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٢١٢ .
وتجدر الإشارة إلى أن باب القلة الحالي (المواجة لجامع الناصر محمد من الجهة الشمالية) =

هـ ـ دار النيابة ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م : أمر السلطان قلاوون سنة ٦٨٧ هـ ببناء دار لنواب السلطنة ، وقد سكنها الأمير حسام الدين طرنطاي ومن بعده من نواب السلطنة ، وكانت النواب « تجلس بشباكها حتى هدمها السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٧ هـ ، وأبطل النيابة وأبطل الوزارة أيضاً فصار موضع دار النيابة ساحة . . . . »[١] . وقد حدد (كازانوفا) موضعها فذكر أنها كانت بجوار باب القلة السابق الإشارة إليه[٢] .

٢ ـ منشآت قلاوون بالقاهرة :

أمر السلطان قلاوون ببناء عدة منشآت معمارية بمدينة القاهرة ، اندثر بعضها ، وما زال البعض الآخر (وهو أكثرها) باقياً حتى اليوم .

أ ـ المنشآت المندثرة :

١ ـ سوق وقيسارية العنبريين .

٢ ـ القيسارية بخط بين القصرين .

وقد سبق أن تحدثنا عن هاتين المنشأتين[٣] .

٣ ـ الحمام :

اندثر هذا الحمام ، إلا أنه في ضوء ما ورد بوثيقة الموقف نستطيع القول بأنه لم يختلف تخطيطه عن التخطيط المتبع في غالبية الحمامات عامة وحمامات القاهرة خاصة ، فقد كان يشتمل على الأقسام الثلاثة الرئيسية في الحمامات وهي المسلخ ثم بيت أول ثم بيت الحرارة . هذا فضلاً عن المنافع والمرافق والحقوق المتمثلة في

= يرجع إلى عهد محمد علي ، ولا يزال النص التأسيسي يحمل تاريخ التجديد ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٦ م .

عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين ـ القاهرة ١٩٧١ م ـ ص: ٥٨ .

(١) المقريزي : المصدر السابق ـ ص: ٢١٤ .

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد وفاة الناصر محمد ٧٤٠ هـ أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره في نيابة السلطنة ، فلم تكمل حتى قبض عليه ، فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر حمص اخضر وقبض عليه ، فتولى بعده الأمير شمس الدين أقسنقر في أيام الملك الصالح إسماعيل فجلس بها في يوم السبت أول صفر ٧٤٣ هـ في شباك دار النيابة وهو أول من جلس بها من النواب بعد تجديدها وتوارثها النواب بعده . . . » .

المقريزي : نفس المصدر ـ ص: ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢) كازانوفا : المرجع السابق ـ ص: ١٣٦ .

(٣) انظر ص: ٧٠ ـ ٧٣ من هذا الفصل .

المطهرة والخلاوي والأحواض والمساطب وغير ذلك[1] .

وكان هذا الحمام برسم دخول الرجال فقط[2] ، أما النساء فقد خصص لهن الحمام المعروف بحمام الساباط[3] الذي عرف في العصر المملوكي بحمام المارستان المنصوري وكانت له شعرة بين حمامات القاهرة[4] .

٤ ـ القنطرة على الخليج :

لم يذكر المقريزي هذه القنطرة في خططه[5]، وانفرد بذكرها ابن عبد الظاهر، وكان سبب بنائها أن الناس كانوا في أيام الخليج تحصل لهم مشقة عظيمة « بعدم توصلهم إلى الأحكار التي هي الآن (أي زمن ابن عبد الظاهر ت ٦٩٢ هـ/

---

(١) راجع الوصف الوثائقي للحمام في :
محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري ص: ٣٤٨ ـ ٣٥٠ ـ أسطر ١٣٧ ـ ١٥٣ .
محمد سيف النصر أبو الفتوح : منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك (رسالة دكتوراه ـ مخطوط ـ جامعة أسيوط ١٩٨٠ م) ص: ٣٢٤ ـ ٣٢٦ .

(٢) محمد سيف النصر أبو الفتوح : المرجع السابق ـ ص: ٣٢٤ هامش ١ .

(٣) اندثر هذا الحمام هو الآخر ، وكان حماماً للقصر الغربي الصغير ، وقد عرف بذلك الاسم نسبة إلى باب الساباط أحد أبواب هذا القصر ، وكان يخرج منه الخليفة إلى الميدان (الذي عرف موضعه بالخرشنف أو الخرنفش) ثم إلى المنحر (الدرب الأصفر) لينحر الضحايا . وقد تقلبت الأحوال ، بهذا الحمام حتى آل إلى السلطان قلاوون فأوقفه على البيمارستان .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٨٠ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) لما كان المقريزي قد أغفل الحديث عن هذه القنطرة ولم يشر إليها (جـ ٢ ـ ص: ١٤٦ ـ ١٤٨) لذلك لم نجد أية إشارة عن هذه القنطرة في المراجع العربية التي تناولت دراسة المنشآت المائية بعامة والقناطر التي كانت على الخليج الكبير قبل هدمه بخاصة .
ـ ومن هذه المراجع :
علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ـ ٦ أجزاء (وهي الأجزاء الخاصة بالقاهرة والتي أعيد طبعها بالهيئة المصرية العامة للكتاب) ـ القاهرة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦ م .
عبد الرحمن عبد التواب : منشآتنا المائية عبر التاريخ ـ المكتبة الثقافية ـ العدد ٩٦ ـ القاهرة ١٩٦٣ م .
سامي نوار : المنشآت المائية بمصر منذ الفتح العربي وحتى نهاية العصر المملوكي . رسالة دكتوراه ـ مخطوط ـ جامعة أسيوط ١٩٨٤ م .
محمد كمال السيد محمد : أسماء ومسميات من مصر القاهرة ـ القاهرة ١٩٨٦ م ص: ٨٨ ـ ١٢٩ .

١٢٩٢ م) دار قرار ويسلكون طريقاً بعيدة ، ويمشون من الخليج على برور عظيمة الأخطار »[١] .

ولهذا السبب أمر السلطان قلاوون ببناء هذه القنطرة على الخليج فيما بين باب الخوخة[٢] ، وبين القنطرة[٣] ، وبنيت بمباشرة الأمير علم الدين المنصوري في أقرب مدة وجاءت « متسعة الفضاء لمن يمرّ ، مرآها يسر ، فعمت بها المنفعة وعظمت وجادت بها النعماء وأنعمت » . وكان الفراغ من بنائها في العشر الأوسط من جمادى الآخرة ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م[٤] .

ويستدل من النص السابق على أن قنطرة قلاوون كانت تقع في المسافة الممتدة فيما بين جامع القاضي يحيى زين الدين وميدان باب الشعرية ، ولما كانت هذه المسافة لا تحوي سوى قنطرة واحدة ، هي المعروفة بقنطرة[٥] الموسكي فهذا يعني

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ١١٦ .

(٢) كان هذا الباب أحد أبواب القاهرة مما يلي الخليج في حدّ القاهرة البحري يسلك إليه من سويقة الصاحب ومن سويقة المسعودي ، وكان هذا الباب يعرف أولاً بخوخة ميمون دبه ـ أحد خدام العزيز بالله وكان خصياً ـ ويخرج منه إلى الخليج الكبير».
المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٤٥ .
علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ـ جـ٣ ـ ص: ٧٥ .
ويستدل مما ذكر علي مبارك في نفس الصفحة على أن هذا الباب كان أمام جامع القاضي يحيى زين الدين (وبالتحديد أمام واجهته الجنوبية الشرقية) على يمين المار بشارع الخليج المصري (بور سعيد الآن) قاصداً الموسكي وباب الشعرية .

(٣) المقصود بها قنطرة باب القنطرة ، وقد كانت هي الأخرى «على الخليج الكبير يتوصل إليها من القاهرة ويمرّ فوقها إلى المقس وأرض البطالة (ميدان رمسيس والفجالة اليوم) «وكان جوهر الصقلي قد بناها ٣٦٢ هـ ليتوصل من القاهرة إلى المقس ، وقد كانت مرتفعة بحيث تمر المراكب من تحتها ، وبها تسمى باب القنطرة .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ١٤٧ .
علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ـ جـ ٣ ـ ص: ٦٥ .
وكانت هذه القنطرة تقع بميدان باب الشعرية الحالي عند تلاقي شارع أمير الجيوش (مرجوش) مع شارع الخليج المصري (شارع بور سعيد الآن) .

(٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ـ ص: ١١٦ .

(٥) قنطرة الموسكي : كانت هذه القنطرة على الخليج الكبير يتوصل إليها أيضاً من «باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى برّ الخليج الغربي» أنشأها للأمير عز الدين موسك قريب السلطان صلاح الدين الأيوبي وكانت وفاته ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ١٤٧ .
=

أن قنطرة قلاوون كانت إما قبل قنطرة الموسكي وإما بعدها ، وبناء على ما ذكره ابن عبد الظاهر من أن سبب بناء القنطرة كان عدم توصل الناس إلى الأحكار بسهولة كما سبق القول ، فإن هذا يعني أن قنطرة قلاوون كانت في المسافة الواقعة بين جامع القاضي يحيى وقنطرة الموسكي حيث يتوصل منها الناس إلى الأحكار[1] التي كانت في غربي الخليج .

ب ـ المنشآت الباقية :

١ ـ قبة أم الصالح : ٦٨٢ ـ ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٣ ـ ١٢٨٤ م :

تقع هذه القبة بجوار قبة الأشرف خليل بن قلاوون الكائنة بشارع الأشرف (بحي الخليفة) على يسار المتوجه إلى المشهد النفيسي .

وقد ذكر المؤرخون هذه المنشأة بعدة تسميات منها « التربة الشريفة المستجدة الإنشاء لوالدة السلطان الملك الصالح »[2] و« التربة الخاتونية »[3] و« مدرسة تربة أم الصالح »[4] ، وكان موضع هذه التربة بستاناً ، إلى أن أنشأها السلطان قلاوون سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م برسم أم الملك الصالح علي وبمباشرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي ، وعندما توفيت أم الملك الصالح في ١٦ شوال ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م ، دفنت بها . ولما كمل البناء نزل السلطان ومعه ابنه الملك الصالح وتصدق « عند قبرها بمال جزيل ورتب لها وقفاً حسناً على قراء وفقهاء وغير ذلك »[5] .

= علي مبارك : المصدر السابق ـ ص: ٣٠٩ .
وكانت هذه القنطرة تقع عند تقاطع شارع الموسكي مع شارع الخليج المصري (شارع بور سعيد الآن) بجوار جامع مراد باشا .

(١) عن هذه الأحكار راجع :
المقريزي : المصدر السابق ـ ص: ١١٤ ـ ١٢١ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ـ ص: ٥٥ .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ـ جـ ٤ ص: ١٣٥ .

(٤) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ص: ٣٩٤ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .
وتجدر الإشارة إلى أنه دفن بهذه القبة من بيت قلاوون كل من الملك الصالح علي (ت ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م) ، وخاتون ابنة قلاوون وزوجة الملك السعيد بن الظاهر بيبرس ، ومن أولاد الناصر محمد كل من الملك الصالح إسماعيل والملك الصالح صالح . وكان نظر هذه التربة لمن يكون زماماً بالآدر السلطانية .
=
ابن دقماق : المصدر السابق ـ ص: ١٣٥ .

وقد اندثرت المدرسة ، ولم يعد باقياً سوى القبة والمئذنة (وهما بحالة سيئة للغاية) ، وقد عني علماء الآثار الإسلامية بدارسنهما دراسة تفصيلية مع الاهتمام بذكر أهم التأثيرات المختلفة التي أثرت عليهما[1] .

٢ ـ البيمارستان والقبة والمدرسة :

أمر السلطان قلاوون بإنشاء مجموعة معمارية ضخمة ما تزال باقية بشارع المعز لدين الله « خط بين القصرين سابقاً »[2] وتتكون هذه المجموعة من البيمارستان والقبة والمدرسة وغير ذلك من المنافع والمرافق والحقوق .

ولما كان موضوع هذا البحث يختص بدراسة هذه المجموعة ، لذلك آثرنا أن نفرد لتلك الدراسة الباب الثاني بفصوله الأربع .

= محمد رمزي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص : ٢٧٢ ـ هامش ٢ .

(١) من أهم هذه الدراسات على سبيل المثال :
سعاد ماهر محمد : مساجد مصر ـ جـ ٣ ـ ص : ٤٨ ـ ٥١ .
السيد عبد العزيز سالم : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية (المجلة ـ العدد ١٢ ـ ديسمبر ١٩٥٧ م) ص : ٩٧ .
المآذن المصرية ـ القاهرة ١٩٥٩ م ـ ص : ٣١ .

Creswell (K.A.C), the Muslim Architecture of Egypt, No 1-2. PP. 180-185.

(٢) عرف بتلك التسمية لوقوعه بين القصرين الفاطميين : القصر الكبير في الشرق والقصر الصغير في الغرب وكان ما بينهما في العصر الفاطمي «فضاءً كبيراً ومراحاً واسعاً يقف فيه عشرة آلاف من العسكر ما بين فارس وراجل ويكون به طرادهم ووقوفهم للخدمة» ، وصار هذا الخط فيما بعد العصر الفاطمي من أعمر أخطاط القاهرة وأنزهها .
ـ لمزيد من التفاصيل :
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص : ٢٨ ـ ٢٩ .
سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٥ ـ ص : ٢٩ ـ ٣١ .

الفصــل الثـالث

العلاقات الخارجية

تأرجحت علاقة مصر الخارجية في عهد السلطان قلاوون ما بين علاقات المودة والصفاء من جهة وعلاقات الحروب والمصادمات من جهة أخرى . ومن المعروف أن عهد السلطان قلاوون وعهد بنيه من بعده ، قد شهد حلقات بارزة في قصة الجهاد الإسلامي ضد المغول من جهة والصليبيين من جهة أخرى . هذا فضلاً عن النشاط الـدبلوماسي والمعـاهدات السيـاسية والاتفـاقيات الاقتصـادية مـع كثير من القـوى المعاصرة في آسيا وأفريقيا وأوروبا .

أولاً : علاقة قلاوون بالمغول :

من المعروف أنه كان للمغول دولتان عظيمتان هما :

دولة بني هولاكو ، وتشمل بلاد العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، ودولة بني جـوجـوبن جنكيـز خـان في الشمـال وتعـرف بـاسم بـلاد القفجـاق (القبيلة الذهبية)[1] .

وبينما اتسمت علاقة المماليك بمغول الدولة الأولى بطابع العداء المستحكم في أغلب المراحل (باستثناء فترات قصيرة سنشير إليها فيما بعد) ، نراها تتسم بطابع العلاقات الطيبة القائمة على أساس من الصفاء والصداقة والمودة مع مغول الدولة الثانية وهم مغول القفجاق .

١ ـ علاقة قلاوون بمغول فارس والعراق :

أراد المغول أن يستغلوا فترة القلق وعـدم الاستقرار التي تعـرضت لها دولـة

(١) علي إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ـ ص: ٣٢٦ .
حياة ناصر الحجي : العلاقات بين دولة المماليك ودولـة مغول القفجاق ـ (حوليـات كلية الآداب ـ جامعة الكويت ـ الحولية الثانية ـ الرسالة الثامنة في التاريخ ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨١ م) ـ ص: ١٠ .

المماليك بين وفاة الظاهر بيبرس ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م ، وقيام السلطان قلاوون في الحكم ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م فأغاروا على بلاد الشام من جديد بنفس الوحشية والهمجية التي عرفوا بها من قبل . ولكن السلطان قلاوون ، أظهر أنه لا يقل ثباتاً عن سلفيه بيبرس وقطز[١] ، فلم يكد يعلم أنهم اقتربوا من حلب واستولوا على بعض أعمالها حتى أرسل ضدهم حملة ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م وعندئذٍ ولّوا الأدبار. وعندما عاود أبغا الهجوم على الشام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م ووصلت جيوشه حماة ، تصدت لهم جيوش السلطان قلاوون واستطاعت إنزال الهزيمة بهم قرب حمص وقتل الكثيرين منهم ، وأسرع أبغا بالعودة إلى بغداد ومعه فلول جيشه ، ولم يلبث أبغا أن توفي بعد ذلك بقليل ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م[٢] .

وبوفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين الدولتين المملوكية والمغولية ، ذلك أن تكودار الذي خلف أخاه أبغا في الحكم ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م ، كان قد اعتنق الإسلام قبل سلطنته وتسمى باسم أحمد ، واستهل تكودار أحمد عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامي ، فأرسل كتباً إلى فقهاء بغداد ، وإلى السلطان قلاوون ، أعلن فيها رغبته في حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه ، كما أظهر رغبته في أن يعيش في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين وقد ردّ السلطان قلاوون بكتاب رحب فيه بدخوله الإسلام ، وبزوال الأحقاد التي كانت بين الدولتين[٣] .

---

(١) وقعت بين المغول والمماليك حروب كثيرة قبل عهد السلطان قلاوون ، كانت الغلبة فيها المماليك .

راجع : سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ٩٢ ـ ٩٨ .

العصر المماليكي ـ ص: ٣٠ـ ٤٦ .

فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ـ القاهرة ١٩٧٥ م ـ ص: ٣٦ ـ ١١٠ .

أحمد عبد الكريم سليمان : المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس ط ١ ١٩٨٤ م ص: ٥٣ ـ ١٠٠ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٤٧ .

وعن تفاصيل هذه الحروب راجع : فايد حماد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ١١٤ ـ ١٢٢ ، أحمد عبد الكريم سليمان : المغول والمماليك في عهد دولة بن قلاوون ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م ـ ص: ١٣ ـ ١٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ١٦٣ ـ ١٦٧ .

علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص: ١٤٢ .

وكان من الطبيعي بعد أن تبادلت المكاتبات بين إيلخان المغول وبين السلطان قلاوون أن يتوقف العداء فترة بين الدولتين .

وسرعان ما تبدلت العلاقات مرة أخرى بين الدولتين ، فعادت إلى سيرتها العدائية الأولى ، وسبب ذلك هو أن المغول نقموا على أحمد تكودار الإسلامية ودارت معارك طاحنة وانتهى الأمر بقتل أحمد تكودار ، وتولية ابن أخيه أرغون بن أبغا الحكم ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م وكان أرغون بوذياً معادياً للإسلام والمسلمين مناصراً للمسيحية والمسيحيين ، بل كانت إحدى زوجاته وهي أوروك خاتون مسيحية نسطورية ، كما أنه كان صديقاً لبطريرك النساطرة الذي استغل بطبيعة الأمر تلك الصداقة للعمل لصالح كنيسته[1] .

وقد اتبع أرغون سياسة عنيفة مع المسلمين في بلاده حيث اضطهدهم وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أمعن وزيره سعد الدولة اليهودي في الكيد للإسلام والتآمر عليه والحط من شأنه[2] .

وكان من الطبيعي أن تسوء العلاقات من جديد بين الدولتين ، وأراد أرغون الاستعانة بالقوى الأوروبية المسيحية من أجل القيام بحملة صليبية مغولية مشتركة على بلاد الشام ، تمهيداً للقضاء على الدولة المملوكة بوصفها حامية الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت ، ومن ثم أرسل السفارات إلى ملوك أوروبا وإلى البابا لتحقيق هذا الهدف ، إلا أن جميع جهوده باءت بالفشل ، ولم يستطع القيام بتلك الحملة ، لذلك فإنه على الرغم من استمرار طابع العداء بين الدولتين ، إلا أن عهد أرغون خلا من الهجمات على حدود دولة المماليك ، رغم حلم أرغون في الاستيلاء على بلاد الشام ورغم قيام بعض القوات المملوكية في الشام بمهاجمة مناطق الحدود مع دولة المغول بالقرب من نهر دجلة[3] .

٢ ـ علاقة قلاوون بمغول القفجاق :

اتسمت العلاقات بين المماليك ومغول القفجاق ـ كما سبق القول ـ بطابع الصداقة والمودة والصفاء والتحالف بين الدولتين . ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى اعتناق هذا الفرع من المغول للدين الإسلامي منذ عهد بركة خان ، مما أوقعهم في

---

(١) أحمد عبد الكريم سليمان : المغول والمماليك ـ ص: ٢٢ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ١٧٢ .

(٣) أحمد عبد الكريم سليمان : المغول والمماليك ـ ص: ٢٣ ـ ٢٧ .

عداء شديد مع مغول فارس والعراق ، وهو الأمر الذي ترتب عليه نوع من التقارب والتحالف بين سلطنة المماليك في مصر والشام ومغول القفجاق ضد عدو مشترك ممثلاً في مغول فارس والعراق ، والذين كانوا قد تحالفوا مع الفرنجة[١] .

هذا وقد اتخذت الروابط الوثيقة بين الدولتين . شكل مصاهرات وتبادل بعثات دبلوماسية وعقد اتفاقيات بين الطرفين ، وكانت الفترة النشطة لهذه العلاقات في عهود السلطان الظاهر بيبرس ثم سلاطين أسرة قلاوون وبخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون[٢] .

وفيما يخص علاقة السلطان قلاوون بمغول القفجاق ، فيمكن القول إنها كانت علاقات متبادلة بين الطرفين حيث تبودلت الرسل والهدايا بينهما ، ففي جمادى الآخرة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م ، وصلت رسل الملك[٣] تنامنكو أو تدان منكو ملك القفجاق وكان معهم كتاباً باللغة المغولية يتضمن أن هذا الملك « أسلم وقعد على التخت وأقام شرائع الإسلام » ، وأضاف الرسل أن الملك سيرهم إلى السلطان قلاوون وأنه يريد منه « نعتاً يسمى به من أسماء المسلمين وعلماً من الخليفة وعلماً من السلطان ونقارات ليركب بذلك ويقابل أعداء الدين » . واهتم السلطان قلاوون بأمر الرسل ، وجهزهم إلى مكة صحبة الركب بما يحتاجون إليه لتأدية فريضة الحج ، وبعد عودتهم من الحج ، أجابهم السلطان إلى ما طلب ملكهم ، وأحسن إليه غاية الإحسان ، فعادوا إلى بلادهم وهم على أتم حال وأحسنه[٤] .

---

(١) فايد حماد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ٢٠٥ .
حياة ناصر الحجي : المرجع السابق ـ ص: ٩ .

(٢) عن علاقة المماليك بمغول القفجاق خلال عهد الظاهر بيبرس ، وعهد الناصر محمد بن قلاوون . انظر :
محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ٢١٧ ـ ٢٢٣ .
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ٨٩ ـ ٩٢ .
علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ـ ص: ١٦٨ ـ ١٦٩ .
حياة الحجي : المرجع السابق ـ ص:١١ـ ١٣ ، ٢٠ ـ ٤٤ .

(٣) كان عدد هؤلاء الرسل يبلغ ثلاثة من الفقهاء وهم مجد الدين أطا ورفقته نور الدين ورفيق آخر ، وقيل إنهم اثنين فقط هما الفقيه مجد الدين أطا ونور الدين .
ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٤٦ وهامش ٣ ـ نفس الصفحة (نقلاً عن النويري) .
العيني : عقد الجمان ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٠١ .

(٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ص: ٤٦ .

=

وحرصاً من السلطان قلاوون على نشر الدين الإسلامي وإقامة دعائمه وأركانه في تلك البلاد ، قام بإرسال المساعدات المادية من أجل بناء مسجد جامع هناك ، وكان ذلك ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م حيث جهز السلطان قلاوون « هدية سنية إلى برّ بركة ، ومبلغ ألفي دينار برسم عمارة جامع قرم[١] ، وأن تكتب عليه ألقاب السلطان ، وجهز حجار لنقش ذلك وكتابتها بالأصباغ »[٢] .

ومما لا شك فيه أنه كان للروابط الوثيقة بين البلاطين المغولي والمملوكي ـ على نحو ما ذكرنا ـ أثرها الكبير في انتقال التأثيرات المعمارية والفنية بين الدولتين[٣] .

ثانياً : علاقة قلاوون بالصليبيين :

شهد النصف الثاني من ق ٧ هـ/ ١٣ م حروب كثيرة مطاحنة بين المماليك والصليبيين في عهد كل من الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، وانتهى الأمر بطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام بعد سقوط عكا فريد الأشرف خليل بن قلاوون ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م[٤] .

وفيما يخص حروب السلطان قلاوون وجهاده ضد الصليبيين ، نجد أنه في

= المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧١٦ .
العيني : المصدر السابق والصفحة نفسها .
فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية ـ ص: ٢١١ .
حياة الحجي : المرجع السابق ـ ص: ١٤ .

(١) ينبغي أن نشير هنا إلى ما ورد بشأن اسم هذا الجامع في بعض المراجع العربية الحديثة ، فقد أورده (د. فايد عاشور) باسم جامع قام ، وأورده (أ. د حسن الباشا) باسم مسجد القدم .
حسن الباشا : سيف الدين قلاوون ـ ص: ١٣٧ .
فايد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ٢١١ .
والصحيح ما ذكره المقريزي وهو (جامع القرم) .

(٢) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٣٨ .
فايد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ٢١١ ـ ٢١٢ .
حياة الحجي : المرجع السابق ـ ص: ١٥ .

(٣) محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ـ ص: ٣٨٩ ـ ٣٩١ .

(٤) تناول أحداث هذه الحروب بتفاصيلها أ. د سعيد عاشور في كتابه الضخم عن الحروب الصليبية الموسوم بالحركة الصليبية ـ جـ ٢ ط ١/ ١٩٦٣ م ـ ص: ١١٤٠ ـ ١١٨٤ .

الدور الأول من حكمه (أي حتى سنة ١٢٨٥ م) كان مشغولاً بثورة الأمير سنقر الأشقر في الشام ، فضلاً عن هجمات المغول وإغاراتهم على بلاد الشام أيضاً ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م ، ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م كما سبق القول ، لذلك اضطر إلى مهادنة الصليبيين في تلك الفترة ، فجدد الهدنة التي كان قد عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع الفرسان الإسبتارية بحصن المرقب[1] ، كما عقد معاهدة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م مع الفرسان الإسبتارية بعكا ، تقررت بمقتضاها الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشرة ساعات ، كذلك أبرم في نفس العام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م أيضاً معاهدة أخرى مع بوهيمند السابع أمير طرابلس ، تقررت بمقتضاها الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين أيضاً . وفي ٦٨٢هـ/١٢٨٣م عقد هدنة أخرى مع صاحب عكا لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام[2] .

على أن الأمور لم تكد تهدأ للسلطان قلاوون ، حتى لجأ إلى خرق الهدنة التي كان عقدها مع الصليبيين لمدة عشر سنين ، فهاجم فجأة حصن الإسبتارية في المرقب واستولى عليه ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م بعد أن اتهم أصحاب هذا الحصن بأمور منها نقضهم للهدنة[3] .

والواقع أن جميع الشواهد دلت عندئذٍ على أن الصليبيين بالشام ، كانوا يمرون بدور الاحتضار ، بعد أن فترت معونة الغرب الأوروبي من جهة ، وازدادت الخلافات الداخلية بين القوى الصليبية في بلاد الشام من جهة أخرى .

وقد استغل السلطان قلاوون تلك الأوضاع للإجهاز على البقايا الصليبية بالشام إجهازاً تاماً ، فأرسل حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي استولت على اللاذقية ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م وكانت آخر ما تبقى من إمارة إنطاكية الصليبية[4] .

ولما علم السلطان قلاوون بأن الفرنجة بطرابلس نقضوا الهدنة ، واعتدوا على

---

(١) المرقب : قلعة حصينة تشرف على البحر المتوسط ، كانت في يد الإسبتارية .
محمد محمد أمين : تذكرة النبيه ـ جـ١ ـ ص: ٩٦ هامش ١ (نقلاً عن تقويم البلدان لأبو الفدا) .

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .
دربير عبد القادر : سياسة المنصور قلاوون تجاه القوى الصليبية ، ص: ٥٢ ـ ٥٣ ، ٥٧ ـ ٦١ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ـ ص: ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٤) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٦٨ .

التجار المسلمين ، رغم تعهدهم بألا يتعرضوا لتاجر ، ولا يقطعوا الطريق على مسافر ، وعندئذٍ أعد السلطان العدة ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م للاستيلاء على هذه المدينة[١] .

وخرج السلطان فعلاً من القاهرة بجيش كبير ، كما كتب إلى جميع نوابه بالشام بتجهيز الجيوش إلى طرابلس وإرسال المجانيق وآلات الحصار[٢] ، وبهذه القوة الضاربة حاصر السلطان المدينة « بالمجانيق حصاراً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة »[٣] واستمر هذا الحصار الشديد أربعة وثلاثين يوماً حتى سقطت المدينة وفتحت في ٤ ربيع الآخر ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م[٤] .

ولم يلبث الصليبيون أن أخلوا ما لهم من مراكز ومدن في إمارة طرابلس مثل (بيروت وجبيل) ، فاحتلها المماليك بسهولة ، وإذا كانت جبيل قد ظلت في أيدي الصليبيين بضعة سنوات أخرى ، فإن ذلك جاء مشروطاً بإعلان تبعيتها وخضوعها التام لسلطنة المماليك كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع أموالها للسلطان » . وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عاصمتهم عكا فضلاً عن صيدا وصور وعثليث[٥] .

ويبدو أنه لم يكن في نية السلطان قلاوون أن يقوم بهجوم على عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، بدليل أنه اتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين في عقد الصلح وتجديد الهدنة القديمة لمدة عشر سنين ، ولكن سرعان ما نقض الصليبيون تلك الهدنة ، فاعتدوا على المسلمين في عكا ، وقتلوا عدداً من التجار المسلمين داخل عكا نفسها ، مما دفع بالسلطان قلاوون إلى إعداد العدة للانتقام منهم .

على أنه لم يكد السلطان قلاوون يفرغ من كافة استعداداته الحربية ، ويغادر القاهرة فعلاً لمحاربة الصليبيين بعكا حتى دهمه الموت فجأة في ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م[٦] .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ـ ص: ٢٣٨

(٢) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ـ ص: ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٣) العيني : عقد الجمان ـ ص: ٣٨٠ .

(٤) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧٤٧ .
ابن تغري بردي : النجوم ـ جـ ٧ ـ ص: ٣٢١ .

(٥) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٦٩ ـ ٧٠ .

(٦) المرجع نفسه ـ ص: ٧٠ .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أكمل مهمة والده ، وخرج على رأس الجيوش ـ التي كان والده قد أعدها ـ لمحاربة الصليبيين ، وقد هزمهم هزيمة نكراء واستولى على عكا وصور وصيدا وحيفا وأنطرسوس وعثليث وغيرهم ، ويقال إن فتوح الأشرف خليل لتلك المدن جميعها قد استغرقت ٤٧ يوماً . ويجمع مؤرخو العرب عن أن الأشرف خليل أمر بهدم هذه المدن جميعاً بعد أن دخلتها جيوش المسلمين فهدمت(١) .

وبذلك تكاملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحلية للإسلام ، وهكذا تم طرد آخر البقايا الصليبية من الشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، الذي كان بطل آخر صفحات الحروب الصليبية بأرض الشام(٢) .

ثالثاً : علاقة قلاوون بأرمينيا الصغرى :

نشأت مملكة أرمينيا الصغرى في أواخر ق٦ هـ/١٢م في إقليم قليقيا أي في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى . وقد استغل ملوك هذه المملكة موقع مملكتهم بين آسيا الصغرى من جهة وشمال الشام من جهة أخرى في تقديم كثير من المساعدات للصليبيين في الشام وفي مشاركة القوى الصليبية في حربها ضد المسلمين .

كذلك وجد ملوك أرمينيا في المغول (وبخاصة مغول فارس) قوة كبرى يمكن استغلالها ضد المسلمين وبالفعل حرض هيثوم الأول ملك أرمينيا هولاكو على فتح العراق وبغداد ، حتى إذا ما تم ذلك خرج هيثوم صحبة رجاله من الأرمن لمرافقة المغول في فتح الشام .

ووقعت حروب بين الأرمن والسلطان الظاهر بيبرس ، انتصر فيها الأخير سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٦ م وقتل أحد أبناء الملك هيثوم ، وأسر الابن الثاني ، وتم كذلك الإغارة على المدن الأرمينية الكبرى، والاستيلاء على عاصمتها (سيس) ، بعد أن أحرقت وجعل عاليها سافلها هذا فضلاً عن عدد كبير من الأسرى والغنائم لا يعد ولا يحصى(٣) .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي ـ الإسكندرية ١٩٨٦ م ص: ١٥٥ ـ ١٥٧ .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ٧٤ ، مصر في العصور الوسطى ـ ص: ٤٧٦ .

(٣) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١٠٢ ـ ١٠٥ .

وكذلك غنمت جيوش الظاهر بيبرس من بلاد أرمينية مغانم كثيرة سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م[١] .

واستمرت الإغارة على بلاد الأرمن في عهد السلطان قلاوون كذلك ، ففي سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م واصلت العساكر الإغارة على بلاد الأرمن حتى وصلوا إلى « مدينة إياس وقتلوا ونهبوا وحرقوا ، واقتتلوا مع الأرمن عند باب اسكندرونة وهزموهم إلى تل حمدون وعادوا سالمين ظافرين بالغنائم »[٢] .

وكان سبب هذه الإغارة هو أن ملك أرمينية المسمى ليون الثالث (١٢٧٠ ـ ١٢٨٩ م) . كان قد أغار على حلب وأحرق جامعها وغير ذلك ، ومن ثم رسم السلطان قلاوون لنائب حلب بالتوجه للإغارة على بلاد سيس نكاية في حق ملكها[٣] .

رابعاً : علاقة قلاوون بالدول المسيحية في أفريقية :

من المعروف أنه وجدت في أفريقية في العصور الوسطى دولتان مسيحيتان ربطتهما بمصر علاقات وطيدة اتخذت طابعاً سلمياً حيناً وطابعاً عدائياً حربياً أحياناً . والدولة الأولى هي مملكة النوبة المسيحية التي ربطتها بمصر رابطة الجوار والحدود المشتركة ، والدولة الثانية هي مملكة الحبشة التي ربطتها بمصر رابطة النيل ـ عصب الحياة في الدولتين ـ والكنيسة .

وقد اختلف طابع العلاقات المصرية بهاتين المملكتين باختلاف الدول التي حكمت مصر في العصور الوسطى . ولما كان موضوع هذه الفقرة يختص بعلاقة السلطان قلاوون بهاتين المملكتين ، لذلك سنوجه اهتمامنا لإبراز تلك العلاقة .

١ ـ علاقة قلاوون بمملكة النوبة المسيحية :

يرجع اهتمام سلاطين المماليك ببلاد النوبة إلى رغبتهم في تأمين أطراف دولتهم الجنوبية ، بعد أن قاست الكثير من إغارات النوبيين واعتداءاتهم على الأهالي الآمنين . هذا فضلاً عن أن اهتمام المماليك بأمر النوبة كان جزءاً من سياستهم التجارية في البحر الأحمر .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ٢٢٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ـ ق ٣ ـ ص: ٧١٦ .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٣٠ ـ ٣١ .
وقد أورد ابن عبد الظاهر تفاصيل المعركة التي دارت بين الطرفين ص: ٣١ ـ ٣٢ .

وقد ساعد على ازدياد تدخل المماليك في شئون مملكة النوبة ، تدهور أحوال تلك المملكة تدهوراً سريعاً بسبب ظهور بعض الدول الإسلامية في غرب السودان مثل الكانم والبرنو وهي الدول التي بدأت تربطها بدولة المماليك في مصر علاقات طيبة ، مما جعل النوبة المسيحية تصبح شبه محصورة وسط نطاق من الدول الإسلامية المتفاهمة[١] .

وإذا كان نفوذ المماليك قد استقر في بلاد النوبة في عهد الظاهر بيبرس[٢] ، وظن ملوكها يؤدون الجزية ويقدمون الطاعة للسلطان المملوكي ، إلا أن ملك دنقلة سمامون امتنع من دفعها ، ولما علم السلطان قلاوون بذلك عوّل على غزو النوبة ، فأنفذ إليها جيشاً ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م وجيشاً آخر ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م ، وانتصر الجيش المملوكي في المرتين ، وكان يترك حامية صغيرة بالنوبة ، ويعود الجيش بأكمله إلى القاهرة .

وكان سمامون ـ بمجرد أن يعلم بعودة الجيش المملوكي إلى القاهرة ـ يخرج من حجره المختبىء فيه ويوقع الهزيمة بالحامية المملوكية ويسترد ملكه .

وعندما ظهر سمامون في المرة الأخيرة وفعل ما فعله ، أرسل السلطان قلاوون يسأله العفو عنه ، ويتعهد له بدفع الجزية ، كما بعث له رقيقاً وبعض الهدايا ، وكان السلطان قلاوون مشغولاً إذ ذاك ببعض الأمور (منها استعداده للخروج لفتح عكا) وفي حالة لا تساعده على رفض طلب سمامون ، ولذلك أقره ملكاً على النوبة وكتبت نسخة من الشروط تعهد سمامون باتباعها وحلف عليها[٣] .

٢ ـ علاقة قلاوون بالحبشة :

ترجع العلاقة بين السلطنة المملوكية والحبشة إلى عدة عوامل منها أن الحبشة كانت دولة مسيحية تتبع كنيستها الكنيسة المرقسية بالإسكندرية ومن ثم جرت العادة أن تستورد الحبشة مطارنتها من مصر[٤] ، فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٨٢ .

(٢) عن حروب بيبرس ببلاد النوبة راجع :
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١١٨ ـ ١٢٤ .

(٣) عن تفاصيل هذه الحروب وما أسفرت عنه راجع :
محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ١٥٠ ـ ١٥٣ .
سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٨٣ ـ ٩٠ .

(٤) يعود هذا التقليد إلى النصف الأول من ق ٤ م وبالتحديد إلى سنة ٣٢٥ م حين أقر مجمع نيقية :

رسالتين إحداهما للسلطان والأخرى لبطرك الإسكندرية طالباً تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه . وعند وصول هاتين الرسالتين والمال يتصل بطرك الإسكندرية بالسلطان ويستأذن في إرسال أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسي مطران الحبشة .

ويرتبط العامل الثاني بمسألة مرور الحجاج الأحباش بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جالية كبيرة مقيمة في بيت المقدس ، كما لهم دير كبير في تلك المدينة اتخذوه مقراً لهم ، وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والهبات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلاً عن التماس كرم سلاطين المماليك في رعاية أولئك الرهبان(١) .

كذلك ساعدت العوامل التجارية والثقافية على وجود مثل هذه العلاقات فمن المعروف أن الحبشة كانت تتبادل مع مصر تجارة قوية نشطة ، كما كانت في حاجة إلى ما تمدها به مصر من كتب دينية تحرص الحبشة على ترجمتها من العربية والقبطية إلى اللغة الحبشية من أجل المحافظة على العقيدة المسيحية بها(٢) .

وفضلاً عن ذلك كان الأحباش أكثر المدافعين عن مسيحيي مصر، ومن ثم بذلوا بعض الجهود لصالحهم ، ويمكن من خلال الوثائق المتوفرة حتى الآن أن نتابع تلك الجهود . وكانت العلاقات بين مصر والحبشة قد انقطعت في النصف الأول من ق ٧ هـ/ ١٣ م بسبب اضطراب الأمن في الحبشة ، وقد حاول الأمبراطور يكونو أملاك الذي اعتلى العرش ١٢٧١ م ، إعادة العلاقات إلى ما كانت عليه ، وأرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م برسالة ضمن كتاب صاحب اليمن الذي طلب ملك الحبشة وساطته ، يطلب مطراناً ، وتشير الوثيقة إلى أن الأمبراطور قد أرسل هدية للسلطان ، كما تشير الوثيقة إلى تهديد خفي بذكر من تحت يد ملك الحبشة

= المسكوبي تبعية كنيسة الحبشة لبطريركية الإسكندرية ، ومنذ أن اعتمد إثناسيوس فرومنيتوس أسقفاً (مطراناً) للحشة أصبح بطاركة الإسكندرية يولون أساقفة الحبشة إلى سنة ١٩٤٦ م .
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١٢٤ .
بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى (المجلة التاريخية المصرية ـ مجلد ١٤ ـ ١٩٦٨ م) ـ ص: ٨ ـ ٩ هامش ٢ ، ١١ .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ، ٢٤٨ .

(٢) مراد كامل : مقدمة تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٤٧ .

من المسلمين ، وقد رفض السلطان بيبرس إجابة طلبه بحجة عدم حضور رسول من جهة أمبراطور الحبشة[1] .

ويرى (د. عاشور) أن السبب الحقيقي هـو أن الظاهر بيبرس قد أرسل سفارة إلى الحبشة للاطمئنان على أحوال المسلمين هناك بوصفه حاكم أقوى دولة إسلامية ، ولكنها تأخرت في العودة بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة هناك حول العرش وهو الأمر الذي أغضب بيبرس وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر ، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة ومن ثم طلب وساطة سلطان اليمن لكي يصدر بيبرس أوامره إلى بطرك الإسكندرية ليبعث مطراناً إلى الحبشة إلا أن السلطان بيبرس امتنع عن إجابة طلبه ، مما دفع ملك الحبشة إلى استحضار مطراناً سورياً من بلاد الشام[2] .

ولم يرتـح الأحباش للمطارنة السوريين، لذلك عوّل ملك الحبشة يجبأ صيون ـ صهيون ـ (الذي حكم فيما بين ١٢٨٤ ـ ١٢٩٣ م) على إرسال رسله إلى السلطان قلاوون وإلى بطرك الإسكندرية وكان ذلك في شهر رمضان ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م .

وقد اعتذر ملك الحبشة إلى السلطان قلاوون وطلب منه « إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين » ، كذلك ذكر ملك الحبشة أنـه ليس كوالده ، وأنـه يحفظ المسلمين في جميع مملكتـه ، وأن السلطان (أي قلاوون) يحفظ النصارى في بلاده ، وأضاف ملك الحبشة بأنه ينتظر جواب السلطان « بمـا يصلح المسلمين والنصارى حتى تنصلح بلاد الحبشة »[3] .

وذكر ملك الحبشة في رسالته إلى بطرك الإسكندرية « وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم ، ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم »[4] .

وقد أشار ملك الحبشة في رسالته إلى أنه أرسل إلى السلطان قلاوون « رسولاً من أجل السلام ومعه لأجل البيت المقدس ثوب عمل الحبشة ومائة شمعة للوقود في

---

(١) قاسم عبدة قاسم : أهل الذمة ـ ص: ٩٧ .
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .
بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ـ ص: ١٦ ـ ١٧ .
(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ١٧٠ .
(٤) نفس المصدر ص: ١٧٢ ـ ١٧٣ .

الهياكل ، وسأل أنفاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، ويوصي عليهم بألا يمنعوا من دخول الهياكل »[١] .

كذلك أرسل ملك الحبشة إلى الرهبان الأحباش ببيت المقدس كتاب آخر يقول فيه : «سلام عليكم يا رهبان الحبوش الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام وصبرتم على الحر والبرد ، وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ، ومائة شمعة وثيابي وهو زناري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان : ما هو كل يوم ، إلا من يوم العيد إلى يوم العيد ، ولا يلبسه إلا القسيس الذي يعمل القربان ، فعرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكروني في صلواتكم بدعواتكم ، واقبلوا ما سيرته : فهو في سرير سلطاني ، وزناري ولا تنسوني كل يوم »[٢] .

وكان من أثر رسائل ملك الحبشة المملوءة بالتوسلات والتضرعات ، استجابة السلطان قلاوون لرجاء ملك الحبشة فسمح بترسيم المطران المطلوب وسفره إلى الحبشة[٣] .

خامساً : علاقة قلاوون بالمسيحيين من ملوك أوروبا :

ارتبطت السلطنة المملوكية بصلات عديدة ـ تجارية أو عدائية ـ مع بعض القوى الأوروبية وبخاصة في حوض البحر المتوسط ، ولم يكن منتظراً من السلطنة المملوكية ـ وهي إحدى قوى البحر المتوسط ، وذات السيطرة على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى ـ لم يكن منتظراً من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوروبية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط[٤] .

وقد أدرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة فعقدوا المعاهدات التجارية ومنحوا الامتيازات لبعض الدول الأوروبية ، ومن بين هؤلاء السلطان قلاوون الذي عقد معاهدة تجارية مع جنوة ، ومنح البنادقة عدة امتيازات سهلت عليهم سبيل المتاجرة مع مصر وتعهد لهم بحماية رعاياهم وأموالهم[٥] .

كذلك تبودلت الرسل والهدايا وعقدت المعاهدات بين السلطان قلاوون وبين

---

(١) نفس المصدر ـ ص: ١٧٠ .

(٢) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ص: ١٧٣ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٤٧ .

(٤) نفس المرجع ـ ص: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

(٥) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ٣٣٩ .

ملوك دول إسبانيا المسيحية مثل قشتالة وأرغونة ، ففي ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م أرسل الفونس العاشر صاحب قشتالة رسولين إلى السلطان قلاوون ومعهما هدية من الخيل والبغال وأحسن السلطان ضيافتهما وأجزل لهما العطاء . ولم تقتصر العلاقة بين قلاوون وألفونس على تبادل الرسل فحسب ، بل أبرمت بينهما معاهدة دفاعية في نفس العام .

وليس أدل على متانة العلاقة بين السلطان قلاوون وبين بعض الدول الأوروبية ، مما قام به كل من ملك أرغون وأخيه ملك صقلية من عقد معاهدة بينهما ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م ، وقد تعهدا فيها بمساعدة السلطان قلاوون ضد أي حرب صليبية ، وضد اللاتين بسوريا ، إذا نقضوا الهدنة التي أبرموها مع السلطان قلاوون[١] .

ومما لا شك فيه أنه كان للمصالح التجارية المشتركة ، أثر كبير في قوة ومتانة العلاقات السابقة على نحو ما أشرنا .

كذلك كانت علاقة قلاوون بالدولة البيزنطية علاقة طيبة ، حرص السلطان قلاوون على تأكيدها بمجرد توليه عرش السلطنة ، فأرسل سفارة إلى الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ، على رأسها الأمير ناصر الدين الجزري وبطرك الأقباط حنا السابع ، وتضمنت تلك السفارة رسالة تفيد الأمبراطور باعتلاء قلاوون عرش السطنة ورغبته في الإبقاء على مودة الأمبراطور وصداقته ، وكان أن أجاب الأمبراطور البيزنطي على السلطان قلاوون مؤكداً حرصه على الصداقة بين دولتين ، ويطلب منه أن يبعث إليه يميناً يتمسك بها ، فأرسل السلطان قلاوون إليه من حلفه على ذلك اليمين .

وظلت العلاقات الطيبة قائمة في عهد الأمبراطور أندرونيق الثاني الذي خلف أباه على العرش ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م ، وقد قام هذا الأمبراطور الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاوون تشمل حملاً من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط فسر قلاوون بتلك الهدية سروراً كبيراً وغمر الرسل بالعطايا[٢] .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ـ ص: ٢٦٢ .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ـ ص: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

ولمزيد من التفاصيل انظر :

ليلى عبد الجواد : علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية . مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة . العدد ٤٦ ـ ٤٧ سنة ١٩٨٦ م ص: ٨٢ ـ ٩٤ .

سادساً : علاقة قلاوون بالدول الإسلامية :

حرص معظم سلاطين المماليك على تأكيد زعامتهم للعالم الإسلامي وخاصة بعد أن أصبحت القاهرة مركزاً للخلافة العباسية ، فعملوا على بسط نفوذهم الديني والسياسي على بلاد الحجاز حتى يظهروا أمام كل المسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها في صورة حامي حمى الحرمين الشريفين (الحرم المكي والحرم المدني) ، كما حرص سلاطين المماليك أيضاً على إقامة علاقات طيبة مع الدول الإسلامية المختلفة سواء في آسيا أو أفريقية .

(١) علاقة قلاوون بالحجاز :

استطاع الظاهر بيبرس ـ بفضل إحيائه الخلافة العباسية في مصر وحرصه على التوفيق بين أمراء مكة والمدينة وإمدادها بالمال ـ أن يستعيد مكانة مصر في بلاد الحجاز وصار الخطباء يدعون له على منابر تلك البلاد وضربت السكة باسمه[١] .

كذلك قام السلطان الظاهر بيبرس ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٧ م بكسوة الكعبة وعمل لها مفتاحاً ثم سير قافلة الحاج من الطريق البري في سينا[٢] ومنذ هذا التاريخ « استقام أمر الناس في السفر من طريق مصر إلى مكة بغير جباية وبطل ما كان يأخذه صاحب مكة من حج مصر والشام وجميع الركوب التي تصل إلى مكة المشرفة »[٣] .

ومنذ ذلك الوقت حرص أمراء مكة والمدينة على إظهار ولائهم لسلاطين المماليك مثال ذلك ما حدث سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م ، عندما حلف الشريف أبو نمي أمير مكة للسلطان قلاوون وولده الملك الصالح علي بالطاعة لها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل التزم أمير مكة « تعليق الكسوة الواصلة من مصر على الكعبة في كل موسم ، وأنه لا يعلق عليها كسوة غيرها ، وأن يقدم علم الملك المنصور على كل علم في كل موسم ، وألا يتقدمه علم غيره ، وأن يسهل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين والآمين ، وأن يحرس الحاج ويؤمنهم في سربهم ، وأن يستمر بإفراد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري وأن يفعل في الخدمة فعل المخلص الولي للسلطان ، ويمتثل مراسمه امتثال النائب للمستنيب »[٤] .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ـ ص: ١١٧ .

(٢) المقريزي : الخطط ـ جـ١ ـ ص: ٢٠٢ .

(٣) ابن عبد القادر الجزيري :(عبد القادر بن محمد) ت ٩٧٧ هـ/ ١٥٧٠م درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ـ ص: ٦٧٢ .

(٤) المقريزي : السلوك ـ جـ١ ق ٣ ـ ص: ٧٠٦ ـ ٧٠٧ .

هذا وينبغي أن نشير إلى أنه كان من بين ألقاب السلطان قلاوون العديدة لقب « خادم الحرمين الشريفين صاحب القبلتين »[(١)] .

(٢) علاقة قلاوون باليمن :

ارتبطت دولة بني رسول باليمن مع الدولة المملوكية بعلاقات اتسمت بطابع الود والمحبة وتبادل الرسل والهدايا ، وبدأ ذلك منذ عهد الظاهر بيبرس الذي جاءته الوفود محملة بمختلف الهدايا في أعوام ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ م ، ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠ م ، ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥ م ، وكان السلطان الظاهر بيبرس يرد عليها بأحسن منها[(٢)] .

وقد حافظ سلطان اليمن الملك المظفر شمس الدين على طابع ضده العلاقات مع السلطان قلاوون ، فأرسل وفداً في سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١ م يحمل هدية من العود والعنبر والصيني ورماح القنا ، ولم تقتصر مهمة رسل صاحب اليمن على تقديم هذه الهدية فقط ، بل طلبوا من السلطان قلاوون أيضاً أن يرسل لملكهم أماناً مكتوباً على قميص وأن يوقع عليه هو وابنه الملك الصالح علي ، وأجابهم السلطان إلى ما طلبوا .

وفي سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م جاء وفد آخر للسلطان قلاوون ومعه الهدايا من الخصيان والأفراس والفيلة والببغاء ورماح القنا والبهار والقماش والأطباق ، وقد قبل السلطان ذلك ، وأنعم على صاحب اليمن وعلى رسله بالخلع والهدايا[(٣)] .

ومما لا شك فيه أنه كان لهذه العلاقات الطيبة بين الدولتين (في عهد قلاوون وفي عهد بنيه من بعده) أثر كبير في وجود صلات فنية متبادلة وضح أثرها على العمائر الدينية في جنوب اليمن ، كما كان أيضاً لكثرة التحف المهداة من سلاطين المماليك

---

(١) محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري ص: ٣٣٤ سطر ٣٩ ـ ٤٠ .
وتجدر الإشارة إلى أن معظم سلاطين المماليك قد حرصوا على التقلب بهذين اللقبين لأن بسط السيادة على الحرمين (مكة والمدينة) والقبلتين (مكة وبيت المقدّس) كان يضمن لهما إلى حد كبير السيطرة الروحية على المسلمين . حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ـ ص: ٢٦٩ ـ ٢٧٣ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٣٢ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ـ ص: ١٢٩ ـ ١٣٠ .

إلى ملوك دولة بين رسول أثرها الواضح على المنتجات الفنية التي تنسب إلى عصر هذه الدولة(١) .

(٣) **علاقة قلاوون ببلاد المغرب :**

ربطت بين الدولة المملوكية وبين الدول الإسلامية ببلاد المغرب علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج نظراً لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة . كذلك كانت مصر في عصر سلاطين المماليك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم ، ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين من بلادهم ، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتمسون فيها العلم والرزق ، وكان أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية فتركوا أثراً عميقاً على أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها(٢) .

والواقع أنه باستقراء ما ورد في المصادر التاريخية المختلفة ، ومما ورد في مصادر الرحالة المغاربة الذين زاروا مصر في العصر المملوكي ، يمكن القول أنه كانت توجد جالية مغربية كبيرة تركت بصماتها الواضحة على المجتمع المصري في ذلك العصر في كافة المجالات الاجتماعية والاقتصادية والفنية(٣) .

وكانت مشكلة الخلافة سبباً من أسباب فتور العلاقات في وقت ما بين سلطنة المماليك في مصر وبني حفص في تونس ، إلا أن هذه المشكلة لم تصل إلى درجة كبيرة من الحدة تحول دون تكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذي هدد العالم الإسلامي عندئذٍ من جانب الصليبيين عندما أرادوا غزو تونس بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، إلا أن هذه الحملة باءت بالفشل(٤) .

---

(١) مصطفى شيحة : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية العربية اليمنية ـ القاهرة ١٩٨٧ م ـ ص: ١٢٧ ـ ١٣٤ .
أضواء على تاريخ العمارة الدينية في عصر بني رسول باليمن (مجلة المؤرخ المصري ـ آداب القاهرة ـ العدد ٢ ـ يوليو ١٩٨٨ م) ص: ٢٧ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي ـ ص: ٢٣٥ ، ٢٤٠ .

(٣) ابتسام مرعي خلف الله : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي دار المعارف ١٩٨٥ م ـ ص: ٣٢١ ـ ٣٨٧ .

(٤) تحدث عن مشكلة الخلافة بين المماليك والحصصين ، وأيضاً عن الحملة الصليبية على تونس =

وخلال عهد السلطان قلاوون ، حرص الأمير أبو حفص صاحب تونس على أن يخطب ود السلطان ، فأرسل رسُولاً من عنده (وهو قاضي القضاة) ومعه جماعة كثيرة إلى السلطان قلاوون وأحضر معه « هدية جليلة من خيول عدتها ثلاثون حصاناً وعليها الجلال المذهبة ، وأحضر ما ينيف على الثمانين جمل ، عليها من كل شيء بهدى من الغرب مما يليق بهدايا الملوك من كل نوع »[1] .

ولما كان الأمير الحفصي يرمي من وراء ذلك « نسج المودة واتحاد الخواطر » ، لذلك قبل السلطان قلاوون هديته ، وأكرم رسوله وشرفه وأجابه إلى ما طلبه[2] .

وأخيراً يتضح مما سبق عرضه ، خلال هذا الفصل ، كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية في عهد السلطان قلاوون ، فبالنسبة للعلاقات الحربية ، حذا قلاوون حذو سلفه بيبرس ، وأكمل رسالته في معركة الجهاد ، فقلم أظافر المغول والصليبيين فضلاً عن النوبيين ، وأثبت السلطان قلاوون أنه لا يقل عن الظاهر بيبرس بحال من الأحوال في هذا الميدان .

وفي ميدان العلاقات الودية والسلمية ، رأينا كيف أصبح بلاطه مقصداً للرسل والسفراء القادمين من قبل الملوك والحكام المعاصرين له في كل أوروبا وآسيا ، وأفريقية .

= بشيء من التفصيل بعض العلماء والباحثين نذكر منهم على سبيل المثال :
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ـ ص: ١١١ ـ ١١٥ .
ـ العصر المماليكي ـ ص: ٢٣٥ ـ ٢٣٨
ابتسام مرعي خلف الله : المرجع السابق ـ ص: ١٩٧ ـ ٢٠١ .
ومن المراجع الروسية التي تناولت بالتفصيل الحملة الصليبية على تونس :
ميخائيل زابوروف : الصليبيون في الشرق ـ ترجمة الياس شاهين ـ دار التقدم ـ موسكو ١٩٨٦ م ـ ص: ٣١٧ ـ ٣٢٥ .

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ـ ص: ١٧٥ .
(٢) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ـ ص: ١٧٤ ـ ١٧٥ .

الباب الثاني

عمائر السلطان قلاوون
الباقية بمدينة القاهرة
(المجموعة المعمارية بشارع المعز لدين الله)

لم يتبق من منشآت السلطان قلاوون المتعددة التي سبقت الإشارة إليها سوى مجموعة معمارية ضخمة تقع بشارع المعز لـدين الله ـ خط بين القصرين سـابقاً ـ وتتكـون هذه المجمـوعة البـاقية من بيمـارستان وقبـة ومدرسـة ، أما حـوض سقي الدواب[1] فقد حل محله سبيل في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وذلك سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م على يد جمال الدين أقوش نائب الكرك حينما تولى نظر المارستان المنصوري[2] .

(١) لم يقتصر اهتمام السلاطين والأمراء ومن جرى مجراهم على توفير الماء العذب للناس ، فأمروا بإنشاء الأسبلة ، والتي ما تزال نماذج منها كثيرة باقية بالقاهرة بل شمل ذلك الاهتمام الدواب أيضاً ، فأمروا بإنشاء الكثيرة من أحواض سقي الدواب وأوقفوا عليها الأوقاف المغلة .
وبالنسبة لحوض السلطان قلاوون ، فقد كان يجانب باب المارستان (لوحة ٥٤) وهو الباب الحالي للمجموعة كلها والمطل على شارع المعز لدين الله إلا أنه نظراً «لتـأذي الناس بنتن رائحة ما يجتمع قدامه من الأوساخ» قام الأمير جمال الدين أقوش بإبطاله وأنشأ بدلاً منه سبيلاً ما زال بـاقياً حتى اليـوم على واجهة المـدرسة (لـوحة ٥٣) . المقـريزي : الخـطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٧ . هذا وقد كان هذا الحوض كما ورد بالوثيقة من «الصوان الأسود الكبير المسبل» محمد سيف النصر أبو الفتوح : مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين بالقاهرة ـ دراسة أثرية في ضوء وثيقة جديدة ـ (مجلة كليـة الآداب جامعـة صنعاء ـ ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٤ م) ـ ص: ١١٦ ـ سطر ١٠٦ .

(٢) يطلق لفظ الناظر على المشرف وبخاصة المشرف المالي ، واسم هذه الوظيفة مأخوذ إما من النظر الذي هو رأي العين لأنه يدير نظره في أمور ما ينظر فيه وإما من النظر بمعنى الفكر لأنه يفكر فيما فيه المصلحة من ذلك . وقد استخدم لقب الناظر والألقاب المركبة منه ومن المضاف إليه بدلالات وظيفية مختلفة ، وربما اقتصر على لفظ الناظر للدلالة على اسم وظيفة مركب منه ومن مضاف إليه .

=

كذلك اندثرت القيسارية ومكتب السبيل الذي كان يعلو بابها ـ أي باب القيسارية ـ وأيضاً اندثر الحمام الملحق بالبيمارستان وكان مخصصاً للرجال كما سبق القول[1] .

وفي ضوء ما سبق نستطيع القول بأن منشأة السلطان قلاوون ـ بشارع المعز لدين الله ـ تعد أقدم نموذج باق لنظام المجمعات المعمارية التي تضم أكثر من كتلة معمارية تؤدي وظائف تعود بالنفع على من بتلك المنشأة[2] .

وكان يشغل موضع هذه المجموعة قاعة من قاعات القصر الغربي الصغير المتعددة تعرف بقاعة ست الملك ابنة الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، ثم عرفت خلال العصر الأيوبي بدار الأمير فخر الدين[3] جهاركس ثم بدار الأمير عز الدين[4] موسك

= حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ـ جـ٣ ـ القاهرة ١٩٦٦ م ـ ص: ١١٧٧ .

وقد كانت وظيفة ناظر البيمارستان «رتبة سنية يتولاها الوزراء ومن في معناهم» .

القلقشندي : صبح الأعشى ـ جـ ٣ ـ ص: ٣٧٠.

هذا وقد قام الدكتور أحمد عيسى بجمع أسماء بعض من تولوا هذه الوظيفة في العصرين المملوكي والعثماني وذلك من خلال المصادر التاريخية .

أحمد عيسى : تاريخ البيمارستان في الإسلام ـ ط ٢ ـ ١٩٨١ م ـ ص: ١٢٥ ـ ١٣١ .

(١) انظر ص: ٥٤، ٨٤ من الباب الأول .

(٢) ينفي هذا الرأي ما ذهب إليه (د. نجيب) من أن نظام المجمعات ظهرت بوادره منذ عصر الظاهر برقوق وتبلورت فكرته في عصر برسباي وبدأت في النضوج في عصر إينال واستوت وتربعت في عصر قايتباي واستمرت في عصر الغوري .

محمد مصطفى نجيب : نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصور المملوكي الجركسي ـ (مجلة كلية الآثار ـ الكتاب الذهبي جـ ٢ ـ ١٩٧٨ م) ـ ص: ٢١ .

(٣) هو الأمير جهاركس بن عبد الله فخر الدين أبو المنصور الناصري الصلاحي ، كان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية وكان كريماً نبيل القدر علي الهمة ، بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه وبنى بأعلاها مسجداً كبيراً وربعاً معلقاً ـ اندثرت جميع هذه المنشآت ـ وتوفي في بعض شهور ٦٠٨هـ وقيل في ربيع الآخر ٦٠٩ هـ ودفن بسفح جبل قاسيون وتربته مشهورة هناك .

المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٨٧ .

(٤) هو الأمير عز الدين موسك قريب السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكان خيراً يحفظ القرآن الكريم ويواظب على تلاوته ويحب أهل العلم والصلاح ويؤثرهم وكانت وفاته بدمشق في شعبان سنة ٥٨٤ هـ .

نفس المصدر ـ ص: ١٤٧ . =

ثم عرفت بالدار القطبية نسبة إلى الأمير الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، واستمرت بيد ذريته إلى أن أخذها السلطان قلاوون من مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب المعروفة بالقطبية ، وعوضت عن ذلك قصر الزمرد[1] برحبة باب العيد[2]، وكان ذلك في ١٢ ربيع الأول وقيل ١٨ ربيع الأول سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م ، ورسم بعمارتها مارستاناً وقبة ومدرسة[3] .

وكان الأمير علم الدين سنجر[4] الشجاعي هو شاد[5] العمارة فأظهر من

= وقد بنى هذا الأمير قنطرة على الخليج نسبت إليه فقيل قنطرة الموسكي ، وقد هدمت عند ردم الخليج المصري ـ شارع بور سعيد الآن ـ ١٨٩٦ م ـ وإليها ترجع تسمية شارع وحي الموسكي بهذا الاسم .
سعاد ماهر : القاهرة القديمة وأحياؤها ـ ص: ٧١ .

(١) هذا القصر من جملة القصر الشرقي الكبير ، وكان يتوصل إليه من باب الزمرد ، وقد تقلبت به الأحوال في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وعرف بقصر قوصون ، وبقصر الحجازية نسبة إلى خوند تتر الحجازية ابنه السلطان الناصر حسن ، «وعمرته عمارة ملوكية وتأنقت فيه تأنقاً زائداً» وأنشأت بجواره مدرسة هي المعروفة بالمدرسة الحجازية . وفي ذلك يمكن القول بأن هذا القصر كان بجوار هذه المدرسة التي ما تزال باقية حتى اليوم بجوار قسم الجمالية ببيت القاضي بالقاهرة ، كذلك يذكر المقريزي أن موضع باب الزمرد الذي كان يتوصل منه إلى هذا القصر هو المدرسة الحجازية نفسها .
المقريزي : الخطط ـ جـ١ ـ ص: ٤٠٥ ، ٤٣٥ ، جـ٢ ـ ص: ٧١ .
علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ـ جـ ٢ ـ القاهرة ١٩٨٢ م ـ ص: ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٢) كانت رحبة عظيمة غاية في الاتساع تقع أمام باب العيد أحد أبواب القصر الشرقي الكبير ويخرج منه الخليفة لصلاة العيد في المصلى خارج باب النصر ، وعندما يخرج منه الخليفة يجد في انتظاره العساكر فارسها وراجلها ويذهبون في خدمته إلى صلاة العيد ثم يعودون حتى يدخل من هذا الباب ، وبعد سنة ٦٠٠ هـ اختطت هذه الرحبة وعمرت بشتى أنواع المنشآت .
المقريزي : الخطط ـ جـ ١ ص: ٤٣٥ ، جـ٢ ص: ٤٧ .
ابن تغري بردي : النجوم جـ ٤ ص: ٥٠ .
علي مبارك : الخطط ـ جـ ١ ـ القاهرة ١٩٨٠ ـ ص: ٤٢ .

(٣) المقريزي : السلوك ـ جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧١٦ ، الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٦ .
النويري : ملحق السلوك رقم (٩) ص: ٩٩٨ .
السخاوي : تحفة الأحباب ـ ص: ٦٠ ـ ٦١ .

(٤) هو الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله التركي الشجاعي ، تولى الوزارة عدة مرات ، وتقلد أيضاً نيابة دمشق في عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، وقتل في صفر ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م .
ابن الفرات : المصدر السابق ـ جـ٨ ص: ١٨٨ .

(٥) شاد العمارة : إحدى وظائف الشدود ، وهي إحدى الوظائف التي كان يشغلها عسكريون =

« الاهتمام والاحتفال ما لم يسمع بمثله »[1] وما « يعجز الفراعنة وتقصر الهمم دونه مع أفانين البنيان والأوضاع وغرائب الترخيم والإذهاب وسائر الأنواع ، واستطاع بالسعادة والصرامة ما لم يخطر بالهواجس أنه يستطاع »[2] حتى تم الفراغ من بناء هذه المجموعة المعمارية الضخمة في مدة يسيرة .

وقد غلب على هذه المجموعة اسم البيمارستان لأنه كان السبب في إنشائها[3] هذا فضلاً عن نسبة وحداتها المعمارية إليه فقيل للمدرسة « جامع المارستان »[4] .

ويذكر المؤرخون أنه بدىء في بناء هذه المجموعة في ربيع الأول ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م ، وأنه تم الفراغ من بنائها في شهور سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م ، وهذا يعني أن بناء هذه المجموعة الضخمة تم في مدة يسيرة بلغت أشهر في قول ، وأحد عشر عشر شهراً وأيام في قول آخر[5] .

ويعلق النويري على ذلك فيقول: «وإذا شاهد الرائي هذه العمارة العظيمة وسمع أنها عمرت في هذه المدة القريبة ربما أنكر ذلك »[6] .

والواقع أن بناء هذه المجموعة المعمارية الضخمة قد أنجز فعلاً في مدة يسيرة ، ولكن لم يكن ذلك في المدة التي حددها المؤرخون ـ والتي سبقت الإشارة إليها ـ ودليلنا في ذلك النص التأسيس المنقوش على عتب المدخل الرئيسي للمجموعة كلها ، والذي يتضمن تاريخ البدء والانتهاء من بناء هذه المجموعة المعمارية وذلك على النحو التالي « أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة والمدرسة

= بحضرة السلطان المملوكي ، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثاً على العمائر السلطانية مما يختار السلطان أحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار والمساجد وغير ذلك .
حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ـ جـ ٢ ـ ص: ٦١٦ .

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف ـ ص: ٥٦ .
النويري : ملحق السلوك رقم (٩) ص: ٩٩٨ .
المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٤٠٦ ، السلوك جـ ١ ق ٣ ـ ص: ٧١٦ .
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ـ ص: ٢٨٨ .
(٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ـ جـ ١ ـ القاهرة ١٩٤٦ م ـ ص: ١١٤ .
(٤) علي مبارك : الخطط التوفيقية ـ جـ ٥ ـ القاهرة ١٩٨٦ م ـ ص: ٢٢٦ .
(٥) النويري : ملحق السلوك رقم (٩) ص: ٩٩٨ .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٦ .
ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ـ ق ١ ص: ٣٥٣ .
(٦) النويري : ملحق السلوك رقم (٩) ص: ٩٩٨ .

المباركة والبيمارستان المبارك مولانا السلطان الأعظم[1] الملك المنصور سيف الدنيا[2] والدين قلاوون الصالحي وكان ابتداء عمارة ذلك في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منه في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وستمائة »[3] .

مما سبق يتضح أن عملية البناء تمت فيما بين ربيع الآخر ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م ، وجمادى الأولى ٦٧٤ هـ/ ١٢٨٥ م ، أي أنها استغرقت أربعة عشر شهراً[4] .

والواقع أننا لا نستبعد بناء هذه المجموعة المعمارية الضخمة في تلك المدة اليسيرة ، يؤيدنا في هذا ـ بالإضافة إلى أن النص السابق والنصوص التي سنذكرها وهي وثائق مادية رسمية لا يسهل الطعن في قيمتها ـ ما ورد في المصادر التاريخية من اهتمام شاد العمارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بهذه العمائر وإنجازها اهتماماً زائداً لم يسمع بمثله[5] ، وقد بلغ به هذا الاهتمام حداً دفعه إلى أن « يخرج النساء

---

(١) يشير هذا اللقب إلى سعة النفوذ وادعاء السيطرة على كافة ملوك الإسلام ، والأعظم صفة وهي أفعل التفضيل من العظمة بمعنى الكبرياء .
حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ـ ط ٢ ـ القاهرة ١٩٧٨ م ـ ص: ١٦٢ ، ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

(٢) غلب استعمال الألقاب المضافة إلى الدنيا والدين على الحكام الذين أرادوا تمييز أنفسهم عن باقي أفراد الشعب حين انتشر بينهم اللقب المضاف إلى الدين أثناء ق ٥ هـ/ ١١ م ، وأول من تلقب بهذه الألقاب المضافة إلى الدنيا والدين هو السلطان السلجوقي طغرل بك ٤٣٣ هـ ، وفي العصرين الأيوبي والمملوكي اختص بالسلاطين دون غيرهم ، وإن كان هذا لم يمنع بعض أمراء البيت المالك وأولياء العهد من التلقيب به ، كذلك تلقب به بعض الأمراء الذي تمتعوا بنفوذ كبير مثل الأمير تنكز .
الباشا : المرجع السابق ـ ص: ١٥٣ ـ ١٥٤ ، ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

(٣) Mehren (A.F): Cahirah og Kerafat (18 70). PP. 3-4.
Van Berchem: Materiaux pour Corpus. Premiére Partie, 1894. P. 128.

(٤) تجدر الإشارة إلى أن بعض المراجع العربية التي تناولت الحديث عن البيمارستان المنصوري ، قد اعتمدت ـ فيما يخص تاريخ البناء ـ على ما ورد في المصادر التاريخية ، وهو يخالف ما جاء بالنص التأسيسي الذي يعد وثيقة مادية لا يسهل الطعن في قيمتها .
محمد محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ١٥٩ .
سيف النصر : منشآت الرعاية الاجتماعية ـ ص: ٨٢ .
حياة الحجي : البيمارستان المنصوري ـ ص: ١٠ .

(٥) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٥٦ .
النويري : ملحق السلوك رقم (٩) ص: ٩٩٨ .
المقريزي : السلوك جـ ١ ق ٣ ص: ٧١٦ ، الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٦ .

من الدار القطبية من غير مهلة ، وأخذ ثلثمائة أسير ، وجمع صناع القاهرة ومصر ، وتقدم إليهم أن يعملوا بأجمعهم في الدار القطبية ، ومنعهم أن يعملوا لأحد في المدينتين شغلاً ، وشدد عليهم في ذلك ، وكان مهاباً فلازموا العمل عنده ، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوّان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك ، وصار يركب إليها كل يوم وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان ، ويعود إلى المارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل ـ السقالات ـ حتى لا يتوانوا في عملهم وأوقف مماليكه بين القصرين ، فكان إذا مر أحد ولو جلّ ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه في موضع العمارة فينزل الجندي والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك ، فترك أكثر الناس المرور من هناك »[١] .

وثمة دليل آخر يدلنا على الرغبة في سرعة إنجاز البناء ـ ولا سيما فيما يتعلق بالزخارف الجصية التي تستغرق وقتاً طويلاً ـ ويتمثل هذا الدليل في حرص القائمين على العمل في أن يكون موضع إعداد الزخارف الجصية لهذه العمائر قريباً منهم ، ومن ثم وقع اختيارهم على قطعة أرض خراب من جملة أراضي الدار القطبية بجوار حمام الساباط السابق ذكره لتكون « موضع الجباسات المرسومة للعمائر السلطانية الملكية المنصورية »[٢] .

وفي ضوء ما سبق يمكن القول بأنه لا يصح مطلقاً التشكك في صحة التاريخ المنقوش على اللوحات التأسيسية المسجلة بالمنشأة ، ولا فيما جاء في المصادر التاريخية بشأن إنجاز البناء في مدة يسيرة[٣] .

---

(١) نفس المصدر ـ ص: ٤٠٧ .

(٢) محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري ـ ملاحق تذكرة النبيه لابن حبيب ـ جـ ١ ـ القاهرة ١٩٧٦ م، ص: ٣٥٧ ـ سطر ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .
سيف النصر أبو الفتوح : مدرسة السلطان المنصور قلاوون ـ ص: ١١٦ سطر ١٠٨ ـ ١٠٩ .
وتجدر الإشارة إلى ما ذكره (د. سيف) في بحثه هذا ، من أن هذه الجباسات تقع بجوار القيسارية التي كانت بالجهة الجنوبية الغربية في مدرسة قلاوون فيما بينها وبين حمام البياطرة ـ حمام قلاوون أو النحاسين حالياً ـ والصحيح كما سبق القول إنها كانت بجوار حمام الساباط المندثر .
سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١٠٩ .

(٣) يذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب ـ أن عظم مساحة هذه المجموعة وكثرة زخارفها ودقتها تجعله يتشكك في تصديق ما ورد في النصوص التأسيسية بشأن إنجاز البناء في ١٤ شهراً ـ على الرغم من اعترافه بأن هذه النصوص مستندات قوية . ومن ثم فهو يرى أن هذه التواريخ كتبت عند الفراغ من كتلة البناء أو الواجهات لا الزخارف وأضاف أن هذه المجموعة تمت بناءاً ورخاماً =

وإذا كان النص التأسيسي ـ السابق الإشارة إليه ـ قد أوضح لنا أن بناء الوحدات المعمارية الثلاثة قد استغرق أربعة عشر شهراً ، فإن بقية النصوص التأسيسية توضح لنا أن هذه الوحدات بنيت على ثلاث مراحل متتالية ، استغرقت كل مرحلة منها عدة أشهر ، وهذه المراحل هي :

ـ المرحلة الأولى :

وكانت فيما بين ربيع الآخر ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م ، وشوال ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م وفيها بني البيمارستان .

ويتفق هذا مع ما أورده ابن عبد الظاهر والمقريزي من أن الشروع في بناء البيمارستان كان في مستهل ربيع الآخر ٦٨٣ هـ/[1] ، أما تاريخ الفراغ من بناء البيمارستان فلم يذكره المقريزي وذكره ابن عبد الظاهر فقال: «وما أهل شهر رمضان من هذه السنة ـ أي ٦٨٣ هـ ـ حتى فرغ المارستان بأواوينه الأربعة ومياهه الدافقة من كل صوب وشاذرواناته[2] ورخامه وأنهاره وبستانه»[3] .

= وزخرفة في أول ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م أي أن عملية البناء قد استغرقت ـ من وجهة نظره سبع سنين وثمانية أشهر وهي المدة المعقولة لبناء هذه المجموعة الشامخة الحافلة بمختلف فنون العمارة الدقيقة .

هذا ولم يدعم الأستاذ حسن عبد الوهاب رأيه بأية أسانيد تاريخية أو أثرية باستثناء أنه اتخذ من اختلاف المؤرخين في تاريخ دفن السلطان قلاوون بقبته أساساً نسج حوله رأيه السابق .

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد ـ ص: ١١٥ ـ ١١٦ . وقد اتضح فيما سقناه من أدلة تاريخية وأثرية أن الظروف المادية والبشرية كانت مهيأة لإنجاز بناء هذه المجموعة في أقرب مدة ، هذا فضلاً عن أن السلطان قلاوون حضر بنفسه حفل افتتاح منشآته ، كذلك استقر أرباب الوظائف المختلفة في هذه المنشآت في حياة السلطان قلاوون نفسه ، وأوردت بعض المصادر التاريخية نسخ التقليد التي كتبت لبعضهم .

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٥٦ .
المقريزي : الخطط ـ جـ٢ ـ ص: ٤٠٦ .

(٢) الشاذروان : لفظ فارس يطلق على السلسبيل وهو لوح رخامي مائل يكتنفه عمودان من الرخام ويسمى صدر سفلي ، ويعلوه صدر علوي من الخشب المقرنص المدهون ، ويوجد أسفل السلسبيل عادة صحن أو حوض أو فسقية من الرخام .
عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق في خدمة الآثار ـ ص: ٢١٧ هامش ٤ .
وتزخرف مثل هذه السلسبيلات بزخارف بنائية وهندسية وحيوانية منحوتة نحتاً بارزاً وكان الغرض من ذلك أنه عندما تنساب المياه على اللوح الرخامي لتبرد تتعلق الشوائب في ثنايا هذه الزخارف البارزة قبل وصولها إلى الحوض أو الفسقية أسفل السلسبيل .
عبد الرؤوف علي يوسف : النحت (بحث بكتاب القاهرة ـ مؤسسة الأهرام ١٩٧٠) ص: ٣٠١ .

(٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق والصفحة نفسها . =

ـ المرحلة الثانية :

كانت فيما بين شوال ٦٨٣ هـ وصفر ٦٨٤ هـ ، وفيها بنيت القبة ، وهذا يعني أن بناء القبة استغرق خمسة أشهر .

ويستدل ذلك من النص التأسيسي المنقوش على باب القبة ، ويتضمن الصيغة التالية : «أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسيم[1] أمير المؤمنين أدام الله أيامه وحرس أنعامه ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه وكان ابتداء عمارتها في شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منها في صفر سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة المحمودية النبوية »[2] .

ـ المرحلة الثالثة :

كانت فيما بين صفر ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م ، وجمادى الأولى ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م وفيها بنيت المدرسة ، وهذا يعني أن بناء المدرسة استغرق أربعة أشهر .

ويستدل ذلك من النص التأسيسي المنقوش على أعتاب شبابيك المدرسة وأعلى المحراب ، ويتضمن الصيغة التالية : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السعيدة مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه وحرس أنعامه ونشر في الخافقين ألويته

= وهنا نلاحظ أن ابن عبد الظاهر ذكر أن الفراغ تم في رمضان بينما النص التأسيسي ـ وهو الأصح ـ ذكر أنه شوال .

(١) من الألقاب الرفيعة المضافة إلى أمير المؤمنين ، ومعناه مقاسم أمير المؤمنين في سلطانه ، ويعتبر هذا اللقب صدى لما وصلت إليه سلطة الخلفاء العباسيين من اضمحلال ، وظهر في عهد البويهيين والسلاجقة ، وبعد أن قام السلطان بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦٠ م صار لقباً عاماً على سلاطين المماليك في مصر والشام وبخاصة سلاطين المماليك البحرية ، أما في عصر المماليك البرجية فقد تدهورت قيمة الخلفاء حتى أربت الملوك بأنفسهم من التلقب بهذا اللقب وذلك لاستبدادهم بالملك دونهم استبداداً كلياً وإن كان هذا لم يمنع بعض السلاطين من التلقب به .
حسن باشا : الألقاب الإسلامية ـ ص: ٢٠٤ ـ ٢٠٧ .

(٢) Van Berchem (M.), Matériaux pour un Corpus Inscriptıonum - premiére partie - Egypte - Paris - 1894. P. 129.

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد ـ ص: ١١٩ ـ ١٢٠ .
سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٣ ـ ص: ٧٣ .

وأعلامه وكان ابتداء عمارتها في صفر سنة أربع وثمانين وستمائة والفراغ منها في جمادى الأولى من السنة المذكورة للهجرة المحمدية »[1] .

ولما تم الفراغ من بناء هذه المجموعة أوقف عليها السلطان من أملاكه «القياسر والرباع والحوانيت والحمامات والفنادق والأحكار وغير ذلك والضياع بالشام ، ما يحصل من أجل ذلك وريعه وغلاته في كل شهر جملة كثيرة ، وجعل أكثر ذلك على البيمارستان ثم القبة ، ورتب وقف المدرسة إلا أنه يقصر عن كفايتها ، ورتب لمكتب السبيل من الوقف بالشام ما يكفيه »[2] .

ويضيف المقريزي فيذكر أن السلطان وقف على عمائره « من الأملاك بديار مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة »[3] .

ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول ، تختص الفصول الثلاثة الأولى بدراسة وحدة من الوحدات الثلاثة بهذه المجموعة وذلك حسب تاريخ إنشائها السابق ذكره ، وعلى ذلك فالفصل الأول يتناول البيمارستان ، والفصل الثاني القبة ، والفصل الثالث المدرسة .

أما الفصل الرابع والأخير فيتناول دراسة تحليلية لمجموعة السلطان قلاوون والتأثيرات المختلفة التي أثرت عليها سواء في التخطيط أو في الزخارف .

وينبغي قبل أن نخوض غمار الحديث عن كل وحدة من الوحدات الثلاثة الباقية للمجموعة ، وهي البيمارستان والقبة والمدرسة ، أن نتناول دراسة كتلة المدخل العام

---

(١) Van Berchem (M.), OP-Cit P. 129.
حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ـ ص: ١٢١ .
سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٣ ـ ص: ٧٠ .

(٢) النويري : ملحق السلوك رقم (٩) ص: ٩٩٨ .
هذا وتجدر الإشارة إلى أنه ورد بوثائق السلطان قلاوون وصف لهذه الأملاك الموقوفة على عمائره في داخل القاهرة مظاهرها ، كذلك ورد ذكر لبعض هذه الأملاك في المصادر التاريخية المختلفة .
محمد محمد أمين : وثائق وقف البيمارستان المنصوري ـ ص: ٣٣٨ ـ ٣٥٥ ـ ص: ٣٨٦ ـ ٣٩٠ .
ابن دقماق الانتصار ـ جـ ٤ .
المقريزي : الخطط جـ ٢ ـ ص: ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٧ .

(٣) المقريزي : المصدر السابق ص: ٤٠٦ .

للمجموعة كلها والدهليز المتفرع من هذا المدخل .

كتلة المدخل العام للمجموعة (لوحات ١ ـ ٣) :

يقع المدخل العام الرئيسي للمجموعة كلها في الواجهة الجنوبية الشرقية وهي الواجهة الرئيسية للمجموعة كلها والمطلة على شارع المعز لدين الله ـ خط بين القصرين سابقاً ـ ، ويقع هذا المدخل بالتحديد في الطرف الجنوبي من واجهة القبة ، وإذا كانت كتلة المدخل تبرز قليلاً عن واجهة القبة إلا أنها ترتد كثيراً عن واجهة المدرسة كما سترى فيما بعد .

وتتكون كتلة المدخل من كتفين بارزين ، أسفل كل كتف منهما عمود رخامي ذو تاج كورنثي ، ويحصر هذان الكتفان فيما بينهما عقدين إحداهما علوي والآخر سفلي ، ويفصل فيما بين العقدين إطار حجري بارز قليلاً وبالنسبة للعقد السفلي نجده يتوج دخلة المدخل وهو عبارة عن عقد حدوة فرس مدبب ، اتساعه ٣,٩٠ م ، يتكيء على كتفين بارزين أسفل كل كتف منهما عمود رخامي ذو تاج كورنثي أيضاً ، ويتوسط هذه الدخلة باب الدخول ويبلغ اتساعه ٢,٣٩ م وارتفاعه ٤,٣٨ م ويغلق على هذا الباب مصراعين من الخشب المصفح بالنحاس وقوام زخارفه الأطباق النجمية وبعض الزخارف الهندسية ، وضعت سماعتا الباب على شكل رأس حيوان . (لوحة ٥) .

ويعلو باب الدخول عتب رخامي يحوي النص التأسيسي للمجموعة كلها وقد سبقت الإشارة إليه ، يلي ذلك نفيس فعقد عاتق من صنجات رخامية معشقة بيضاء وسوداء ، ويفتح بصدر المدخل قندلية بسيطة عبارة عن قمريتين مطاولتين يعلوهما قمرية مستديرة ، ويغشى هذه القمريات مصبعات حديدية رأسية وأفقية شغلت الفراغات فيما بينها بأشكال حلزونية صغيرة[1] (لوحة ١ ، ٤) .

هذا وقد شغل باطن العقد ووجهه بصنجات رخامية بيضاء وسوداء وفق النظام الأبلق ، أما توشيحتي العقد فتملأهما أشرطة رخامية بيضاء وسوداء تتقاطع لتكون مثلثات وتحصر مربعات صغيرة وتنتهي هذه الأشرطة بميمة أعلى قمة العقد (لوحة ١ ـ ٢) .

---

(١) يذكر (كريزول) أن هذه الزخارف تشبه في طرازها زخارف الحاجز الحديدي المحيط بقبة الصخرة الذي وضع بواسطة الصليبيين في ق ٦ هـ/ ١٢ م عندما حولت قبة الصخرة إلى كنيسة ، وفي ضوء ذلك استنتج (كريزول) أن هذه الزخارف من عمل صناع فرنسيين .

Creswell, OP-Cit. P. 191.

أما بالنسبة للعقد العلوي فهو أكثر اتساعاً من العقد الأول السفلي حيث يبلغ اتساع فتحته ٥,٧٠ م ، كما أنه يبرز عن العقد السفلي بمقدار ١ م تقريباً وهو عبارة عن عقد حدوة فرس نصف دائري يتكيء على كابولي من الخيزرانات المتدرجة وهو أول مثال من هذا الطراز في العمارة الإسلامية في مصر[١] .

وبصدر هذا العقد ثلاث نوافذ مستطيلة متجاورة يعلو كل نافذة منها قمرية مستديرة ، واعتماداً على ما جاء بالوثيقة يتضح أن هذه النوافذ الثلاث كانت تشغل صدر الطبقة التي وقفها الواقف على سكنى الناظر على هذا الوقف وقد كانت هذه الطبقة تعلو هذا الباب[٢] .

هذا وقد صارت ميزانية أرض المجموعة في مستوى ميزانية أرض الشارع وقد كانت قبل ذلك ترتفع عنها بمقدار ١,٤٠ م ، فقد أظهرت الحفائر قلبة سلم ذات خمس درجات كانت تؤدي إلى المدخل[٣] .

الدهليز الرئيسي :

ويفضي المدخل السابق إلى دهليز طويل مستطيل يبلغ طوله ٣٥ م واتساعه ٤ م وارتفاعه ١٠ م . (لوحة ٦) .

ويفتح بصدر هذا الدهليز ، في مواجهة باب الدخول السابق ذكره ، باب معقود يؤدي إلى دركاة على جانبيها بابان كان يتوصل منهما إلى البيمارستان وملحقاته . (لوحة ٧) .

وبالضلع الشمالي الشرقي من هذا الدهليز خمسة دخلات غير عميقة يتوج كل منها عقد مدبب أسفل أربع دخلات منها شبابيك ، بواقع شباك بكل دخلة ، تعلوه قمرية مطاولة أما الدخلة الوسطى فأسفلها باب الدخول للقبة ، وهو غير مستخدم حالياً ، ويعلوه النص التأسيسي الخاص ببناء القبة ، وقد سبقت الإشارة إليه ويعلو هذا الباب قمرية مطاولة .

وبالضلع الجنوبي الغربي من الدهليز توجد خمسة دخلات تشبه الدخلات

---

(١) محمد سيف النصر أبو الفتوح : مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة ، الدينية والمدنية - (ماجستير - مخطوط - جامعة القاهرة ١٩٧٥ م) - ص: ١٧٧ .

(٢) حجة أوقاف البيمارستان المنصوري (أوقاف ١٠١٢) .

(٣) محمد سيف النصر : المرجع السابق - ص: ١٧٩ .

السابقة ويتوسط الدخلة الوسطى منهما باب الدخول الحالي إلى المدرسة .

أما سقف الدهليز فهو عبارة عن سقف خشبي ذو براطيم تحصر فيما بينها مناطق مستطيلة ومربعة كانت مجلدة بالتذهيب واللازورد ومملوءة بشتى أنواع الزخارف كما يتضح من بقاياها (لوحة ٨) .

الفصـــل الأول

البيـمارسـتان

كان هذا البيمارستان هو السبب في بناء المجموعة كلها كما سبق القول وقد قيل في سبب بنائه تفسيرين أولهما أن الملك المنصور قلاوون عندما كان أميراً في عهد السلطان الظاهر بيبرس توجه إلى غزو الروم ٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦ م فأصابه بدمشق قولنج عظيم فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من بيمارستان[١] نور الدين محمود الشهير ، وبعد شفائه ركب حتى شاهد البيمارستان وأعجب به ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مارستاناً ، وعندما تبوأ عرش السلطنة وفى بنذره وبنى هذا البيمارستان[٢] .

أما التفسير الثاني فقد أورده ابن إياس فقال إن السلطان أمر بشيء كان له فيه اختيار فخالفه جماعة من العوام ، ورجموا المماليك فغضب عليهم السلطان ، وأمر المماليك أن يقتلوا كل من وجدوه من العوام ، فاستمر السيف يعمل فيهم ثلاثة أيام فقتل في هذه المدة ما لا يحصى عددهم من العوام وراح الصالح بالطالح ، فلما تزايد الأمر طلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم ، فأمر بكف القتال ، عنهم بعد ما قتل من الناس جماعة كثيرة ، فلما جرى ذلك ندم السلطان على ما وقع منه ، فأشار عليه بعض العلماء أن يفعل شيئاً من أنواع البرّ والخير لعل أن يكفر عنه ما جرى منه فشرع في بناء هذا البيمارستان وصنع فيه هذا الخير العظيم من الرواتب الجزيلة لعل الله تعالى يمحو ما تقدم من ذنبه[٣] .

---

(١) من أشهر بيمارستانات الشام وقد أمر بإنشائه السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي. وقد ظل عامراً يعالج فيه المرضى حتى سنة ١٢١٧ هـ/ ١٨٩٩م .
أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ـ ص: ٢٠٦ ـ ٢٢٣ .

(٢) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٦ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٥٤

وأورد ابن عبد الظاهر تفسيراً ثالثاً لبناء هذه المجموعة المعمارية وهو أن السلطان قلاوون بعد أن فرغ من زيارة تربة أم الصالح[1] وشاهد حسن العمارة فيها « تشوقت نفسه الشريفة إلى فعل الخير ، تشوقت والشيء بالشيء يذكر ، فاختار بناء مارستان عظيم الشأن لا تصل همة ملك إلى ابتناء مثله ، ومدرسة للعلوم وقبة شريفة مباركة لقراءة القرآن الكريم وتلاوته »[2] .

ومهما يكن من أمر هذه التفسيرات ، فإن البيمارستان المنصوري يعد علامة حضارية مميزة لعصر سلاطين المماليك بعامة ولعهد السلطان قلاوون بخاصة وقد أشاد به جميع المؤرخين والرحالة العرب والأجانب منذ إنشائه حتى بدايات القرن الحالي .

إلا أنه لسوء الحظ لم يتبق من هذا البيمارستان سوى بقايا قليلة وبحالة سيئة للغاية ، إلا أنه اعتماداً على هذه البقايا وعلى ما أورده المؤرخون وعلى ما جاء في حجة الوقف ، وعلى المساقط الأفقية التي رسمت لهذا البيمارستان في ق ١٩ م وأوائل ق ٢٠ م ، يمكننا إعادة التصميم المعماري الأصلي للبيمارستان .

وبادىء ذي بدء يذكر المقريزي أن الأمير سنجر الشجاعي ـ وهو شاد العمارة كما سبق القول ـ أبقى قاعة القطبية « على حالها وعملها مارستاناً وهي ذات إيوانات أربعة بكل إيوان شاذروان وبدور قاعتها فسقية يصير إليها من الشاذروانات الماء »[3] .

ويؤكد نص المقريزي ما جاء في حجة الوقف من وصف تفصيلي للبيمارستان حيث تذكر « وبأقصى هذا الدهليز باب كبير مقعود حفية بالطوب الآجر والجبس بعتبة سفلى صواناً يغلق عليه زوج أدراف مدهون مذهب بحشوات منقوشة مذهبة وصفائح حديد مذهبة يدخل منه إلى قاعة كبرى وهي البيمارستان المبارك تحوي أربعة أواوين متقابلة مسقفة نقياً بقباب وأخياط مفرقة بالذهب واللازورد والأصباغ المختلفة وأربع قاعات متفرقة ومطبخ وبيوت برسم الحواصل وفسقية كبيرة بديعة الشكل تعلوها قبة محمولة على أربعة عمد رخام أبيض مكملة القواعد الرخام المذهبة ، وأربعة أركان حجر نحيت مرخم ظاهرها بالرخام الأبيض والأزرق والأحمر والكرتدازات المنوعة المجزعة إلى علو صحاف العمد المذكورة . . . »[4] .

---

(١) راجع ص: ٨٦ ـ ٨٧ من الباب الأول .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ـ ص: ٥٥ ـ ٥٦ .

(٣) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٦ .

(٤) محمد محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ١٥٨ ـ ١٥٩ .

=

ومن خلال النصين السابقين يتضح أن البيمارستان كان يتكون من قاعة كبرى وأربع قاعات متفرقة ومطبخ وبيوت برسم الحواصل ، وكانت القاعة الكبرى تتكون من دور قاعة وسطى تحيط بها أربع إيوانات متقابلة إذ دانت بشتى أنواع الزخارف الخشبية والجصبية والرخامية ، ولا تزال بقايا هذه الزخارف المتمثلة في النوافذ والغمريات والشاذروانات خير شاهد على ذلك ، كما أنها تثبت في ذات الوقت أن زخارف البيمارستان لم تكن أقل روعة وبهاءاً من زخارف كل من القبة والمدرسة كما سيتضح لنا فيما بعد .

ويؤكد ذلك أيضاً ما جاء بحجة الوقف بشأن أوصاف هذا البيمارستان وروعة زخارفه وجمالها فتذكر الوثيقة « البيمارستان المبارك المنصوري المستجد إنشاؤه والبديع بناؤه المعدوم في الآفاق مثاله والمشهور في الأقطار حسن وصفه وجماله ، ولقد أعجزهم الملوك الأول ، وحوى كل وصف جميل واكتمل ، وحدث عنه العيان والخير ودل على علو الهمة فيه كالسيف دل على التأثير بالأثر »[(1)] .

إلا أنه لسوء الحظ ، اندثرت معظم أجزاء هذا البيمارستان وأصبحت أثراً بعد عين[(2)] ولم يعد باقياً منه سوى بقايا القاعة الكبرى ، وتتمثل هذه البقايا في ثلاث إيوانات فقط ، وهذه الإيوانات الثلاثة اثنين منهما متقابلين وهما الإيوان الجنوبي الشرقي والإيوان الشمالي الغربي المقابل له والإيوان الثالث هو الإيوان الشمالي الشرقي أما الإيوان الرابع ـ وهو الجنوبي الغربي ـ الذي أشار إليه المقريزي وكذلك حجة الوقف السابقة فقد اندثر ، وإن كان مسجلاً على المساقط الأفقية القديمة (أشكال ١ ـ ٣) .

وهذه الإيوانات الثلاثة الباقية بحالة سيئة للغاية وها هو الوصف الحالي لكل إيوان منها على حدة :

(١) الإيوان الجنوبي الشرقي (لوحة ٩) (أشكال ١ ـ٣) :

كان هذا الإيوان يتكون من مساحة مستطيلة يبلغ عمقها ١٣,٣٠ م ، واتساعها

= محمد سيف النصر أبو الفتوح : منشآت الرعاية الاجتماعية ـ ص: ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ أسطر ١٥٧ ـ ١٦٧ .

(١) محمد محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ١٥٩ .

(٢) جاء بحجة الوقف وصف شامل لمعظم هذه الأجزاء المندثرة حالياً ، كذلك سجلت المساقط الأفقية القديمة أيضاً هذه الأجزاء قبل اندثارها

راجع : محمد سيف النصر : منشآت الرعاية الاجتماعية ـ ص: ٨٧ ـ ١٠٢ .

٧,٩٣ ، تشرف على الدور قاعة الوسطى بعقد (غير موجود حالياً) ويتوسط صدر الإيـوان دخلة البازاهنـج ، وهي عبارة عن مسـاحة مستـطيلة يبلغ عمقها ٣,٨٥ م واتساعها ٦,٦٦ م ويتوج هذه الدخلة عقد مدبب كان يشرف على داخل الإيوان ، ويتوسط صدر هذه الدخلة لوح الشاذروان الرخامي الذي تنحدر منه المياه إلى حوض من الفسيفساء الرخامية (لوحة ١٠ ـ ١١) وكانت المياه تصل إلى الشاذروان من خلال حجرة صغيرة اتساعها ٢,٦٥ م ، وعمقها ١,١٠ م توجد إلى الخلف منه[١] ولم يتبق من الإيوان نفسه سوى جزء من جدار الضلع الشمالي الشـرقي منه ، وتعلوه نـافذة توأمية (لوحة ١٢) ، أمـا جدار الضلع الجنوبي الغربي ونافذته فقد انـدثرا وكـانت زخارفها عشبة زخارف النافذة الباقية (لوحة ١٣) وكان يسقف الإيوان سقفاً من الخشب النقي وتزخرفه زخارف على هيئة الإخفاق والقباب الصغيرة (قصع) ، وكلا وكلهـا مطلية بالألوان المختلفة ومذهبة ، وكان يجري أسفل هذا السقف إزار خشبي ما زالت بقاياه قائمة[٢] .

الزخارف :

لم يتبق من زخارف هذا الإيوان الجصبية والرخاميـة سوى أجـزاء بسيطة إلا أنها ، رغم ذلك ، تنم عما كانت عليه من روعة وبها.

وبـالنسبة للزخـارف الجصبية نجـدها تتمثـل في الجـزء العلوي من واجهـة الشاذروان ، وأيضاً النافذة المتبقية بأعلى الضلع الشمالي الشرقي من الإيوان نفسه .

وقوام زخارف الجزء العلوي من واجهة الشاذروان ، حشوة زخرفية تتكون من عقد مدبب يحوي بداخله قمريتين مطاولتين يحصران بينهما قمرية مستديرة ، تعلوها قمرية أخرى مثلها ، وبأسفلها قمريتين مستديرتين أيضاً ، وكان يغشى هذه القمريات أحجية من الجص المفرغ المعشق بالزجـاج الملون إلا أنها الآن مسـدودة (لوحـة ١٤) .

وقد شغلت إطارات هذه القمريات وما بينها بزخـارف جصبية رائعـة قوامهـا الزخارف النباتية والكتابات الكوفية ، وهذه الزخارف النباتية عبارة عن ورقة من فصين معدولة ومقلوبة بالتبادل محفورة بالحفر البارز يخرج منها فرع نباتي ليحددها بشكل

---

(١) Creswell, OP-Cit. P. 207.

(٢) محمد سيف النصر : منشآت الرعاية الاجتماعية ـ ص: ١١٢ .

شبه دائري ، وبقية المساحات الفارغة من هذه القمريات شغلت بزخارف نباتية بارزة ومفرغة مسننة الحواف ترسم أنصاف مراوح وأوراق من فص واحد يخرج منهما أفرع نباتية مزدوجة الخطوط على هيئة دائرية ، وقد أحيطت تلك المساحة بإطار بارز عن الزخارف الهندسية تضم أشكال المثلثات معدولة ومقلوبة بالتبادل ثلاثية الخطوط ، يلي ذلك إطار بارز يضم ورقة نباتية حلزونيـة الكأس ومفـرغة البتلة العلويـة برسم مستدير رسمت معدولة ومقلوبة بالتبادل .

وبالنسبة للزخارف الكتابية فقوامها عبارة الملك لله مكررة وذلك بالخط الكوفي المورق[1] .

أما بالنسبة للنافذة التي تعلو الضلع الشمالي الشرقي من الإيوان فهي عبارة عن دخلة معقودة بعقد مدبب ممتد ، تحوي بداخلهـا نافـذة توأميـة عبارة عن عقـدين متجاورين من نوع حدوة الفرس يرتكزان على ثلاثة أعمـدة أحدهمـا في الوسط ، والعمودان الآخران مدمجان بجانبي الدخلة ، وكان يشغل باطن هذه النافذة حجاب من الجص المفرغ المعشق بالزجاج الملون ما تزال بقاياه قائمة (لوحة ١٢) ويفشي باطن وواجهة العقـدين رسوم مفـرغة مـزدوجة الخـطوط لمثلثات معـدولة ومقلوبـة بالتبادل ، أمـا كوشات العقود فقد شغلت بتكوين نباتي عبارة عن ورقة ثلاثية يحيط بها نصفي مروحة تخيلية متدابرين تنتهي أطرافها بأوراق من فص واحد ومن فصين فرغت جميعها من الداخل برسوم نباتية وخطوط مشهرة دقيقة الشكل ، يلي ذلك باطن الهيئة المعقودة للدخلة التي تحوي نافذة ، وقوام زخارفها آية قرآنية بالخط الكوفي على النمط الفاطمي نصها ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه** ﴾[2] .

ويتخلل هذا النص أوراق نباتية بارزة من فص واحد ومن فصين ، ويتوج واجهة الدخلة إطار بارز ومفرغ لورقة نباتية ثلاثية معدولة ومقلوبة بالتبادل يلي ذلك إطار ضيق من الزخارف المجدولة والمفرغة بأشكال مخرمة من الداخل أيضاً[3] .

أما بالنسبة للزخارف الرخامية فهي الفسيفساء الدقيقة المتقنة التنفيذ وقـوامها

---

(١) جمال عبد الرحيم : الزخارف الجصية في عمائر القاهرة الريفية الباقية في العصر المملوكي البحري ـ ماجستير ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٨٦ م ص: ١٠٩ .

(٢) قرآن كريم : سورة الأحزاب ، آية : ٥٦ .

(٣) جمال عبد الرحيم : المرجع السابق ـ ص: ١٠٩ ـ ١١٠ .

أشكال هندسية متنوعة دقيقة للغاية[1] . (لوحة ١١، ١٥) .

(٢) الإيوان الشمالي الغربي (أشكال ١ - ٣) :

أزيل معظم هذا الإيوان، وهو يشبه تماماً الإيوان السابق (المقابل له) من حيث الاتساع ووجود البازاهنج الذي يشغل صدر الإيوان وما به من قمريات من الجص المعشق بالزجاج الملون يجمعها إطار على شكل عقد من الجص ، وقد تبقى الآن منه وبه إطار من كتابة كوفية قرآنية .

واتساع فتحة الإيوان ٧,٩٣ م[٢] أما اتساع فتحة البازاهنج ٦,٦٥ م وعمقه ٣,٨٥ م .

وقد هدم جدار هذا الإيوان الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي ولم يتبق منهما سوى جزء صغير ١,٩٠ م يمتد بعد دخلة البازاهنج ولا يوجد أية بقايا للسقف .

ويشغل صدر البازاهنج شاذروان وقد حفرت به زخارف على شكل أقواس وتنحدر المياه من الشاذروان إلى حوض من الفسيفساء الرخامية ما زال باقياً وتمتد منه قناة مبطنة بالرخام بقي منها حوالي ٧,٣٠ م[2] (لوحة ١٥) .

(٣) الإيوان الشمالي الشرقي (لوحة ١٦) (أشكال ١ - ٣) :

يتقدم هذا الإيوان سقفية ترتكز على أربعة أعمدة ، وتمتد بطول الضلع الشمالي الشرقي للدور قاعة ، وينقسم مدخل الإيوان إلى ثلاثة عقود حدوة الفرس أكبرها أوسطها ويتكيء على زوج من الأعمدة .

وتخطيط هذا الإيوان على شكل حرف T ، ويبلغ امتداد الجزء المستعرض ١٣,٧٦ م وعمقه ٣,٤٤ م ، وينقسم الجزء الرئيسي من الإيوان وهو العمودي على هذا الجناح إلى قسمين يفصل بينهما باب ، والقسم الأول منه يفتح بالجانب الأيسر منه على ثلاث نوافذ تطل على الحجرة المجاورة ، والجانب الأيمن كان يفتح به باب (مسدود حالياً) .

أما القسم الثاني فهو أكثر اتساعاً وينقسم إلى ثلاثة أروقة بواسطة بائكتين بكل

---

(١) Comité de conservation des Monuments de ĹArt Arabe. Exercice. 1910. le caire 1911. PP. 141-142.

(٢) محمد سيف النصر : المرجع السابق - ص: ١١٥ .

Creswell, OP-Cit. 207

منها ثلاث عقود من الآجر ترتكز على أكتاف من الحجر ، واتساع كل منها ٢,٩٠ م ومن الواضح أن الأكتاف والعقود تنتمي إلى عصر متأخر عن عصر الإنشاء[1] .

وتظهر هذه الأروقة على تخطيط (كوست شكل ١) ، ولكنها لا تظهر على تخطيط لجنة حفظ الآثار العربية وتخطيط (هرتس باشا) حيث تظهر بكل منهما قواطع وجدران مهدمة مما يدل على أنها حادثة . (شكل ٢ ـ ٣) .

والواقع أنه أجريت بهذا الإيوان العديد من عمليات الإصلاح والترميم رغم ما هو عليه الآن من حالة سيئة .

(٤) الإيوان الجنوبي الغربي (لوحة ١٧) :

هذا الإيوان غير موجود الآن ، وقد كان من أكثر الإيوانات اتساعاً ، ويظهر بتخطيط (كوست ، شكل ١) وقد توسطته فسقية واصطفت الأسرّة في جوانبه عدا الجوانب الذي يفتح فيه الإيوان على الدور قاعة .

وقد حدثت بهذا الإيوان عدة تغييرات ، فقد سجله تخطيط لجنة حفظ الآثار العربية وبه الكثير من الجدران الحادثة من داخله ، ويفتح بصدره باب يتصل بالقاعة التي كانت خلفه وكذلك على تخطيط (هركس باشا) ولم يكن بهذا الإيوان بازاهنج .

وقد أزيل هذا الإيوان تماماً وما يحيط به ، وكذلك جزء من الضلع الجنوبي الشرقي من الإيوان الجنوبي الشرقي أيضاً وذلك في سنة ١٩١٠ م عند البدء في إنشاء المستشفى الحديث وفتح الطريق المؤدي إلى المستشفى حالياً .

ومما يؤسف له أن أحداً لم يهتم بتسجيل ما كان يمكن أن يوجد أسفل جدران الإيوان عند هدمه أو ملاحظة ما إذا كانت توجد أسفله جدران قديمة أم لا[1] .

ومما لا شك فيه أنه لو حدث ذلك لاتضحت للعلماء والباحثين الحقيقة فيما يخص بناء البيمارستان وهل هو القاعة الفاطمية ذاتها أم بناه السلطان قلاوون فوقها .

---

(١) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١٥

Creswell, OP-Cit. 208.

(٥) الدور قاعة (أشكال ١ -٣) :

كان يتوسط الإيوانات الأربعة السابقة دور قاعة عبارة عن مساحة مكشوفة تبلغ ٣٢ × ٢٢ م، وكان يتوسطهما « فسقية كبيرة بديعة الشكل تعلوها قبة محمولة على أربع عمد رخام أبيض مكملة القواعد الرخام المذهبة وأربعة أركان حجر نحيت مرخم ظاهرها بالرخام الأبيض والأزرق والأحمر والكرندازات المنوعة المجزعة إلى علو صحاف العمد المذكور[١] .

وكان يدور بجوانب هذه الدور قاعة ١٢ باباً تؤدي إلى الوحدات المختلفة بالبيمارستان وقد ورد ذلك مفصلاً بالوثيقة[٢] .

البيمارستان والرعاية الصحية :

بعد أن تم الفراغ من البناء ، افتتح السلطان قلاوون نفسه البيمارستان في حفل كبير ، شارك فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأئمة والحكماء ، وقدمت فيه مختلف أنواع الأشربة والأطعمة ، ثم أعلن السلطان أمام الملأ أن هذا البيمارستان لجميع المسلمين من مختلف الطبقات العليا والدنيا على حد سواء ، ويتساوى في الانتفاع منه الملك والمملوك والكبير والصغير والحر والعبد والذكر والأنثى ، وسوف يتوفر فيه من الأطباء والمساعدين والصيادلة والأدوات والأدوية ، ما يكفي لعلاج جميع الأمراض الحسية والعصبية والعقلية باستخدام مختلف الأساليب العلاجية من عقاقير وجراحة بحيث يجد فيه كل مسقوم ما يفيده ويحقق له الصحة والعافية ، كما يحق لمن يخرج منه معافىً كسوة ، ومن مات جهز وكفن ودفن[٣] .

وقد ورد في حجة الوقف ما يشير إلى ذلك صراحة «وهذا البيمارستان هو الذي وقعه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل الموقوف عنه خلد الله ملكه بيمارستاناً لمداواة مرض المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأمصابهم من أمراض الأجسام قلت أو كثرت ، اتفقت أو اختلفت ، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت ، واختلاف العقول

---

(١) محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ١٥٨ ـ ١٥٩ .
محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ .
(٢) محمد سيف النصر : نفس المرجع ـ ص: ٩٠ ـ ١٠١ ، ١١٦ ـ ١٢٠ .
(٣) حياة ناصر الحجي : البيمارستان المنصوري ـ ص: ١٢ ـ ١٣ .

التي حفظها أعظم المقاصد والأعراض ، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب ، والاشتغال فيه بعلم الطب والاشتغال به ، يدخلونه جموعاً ووجداناً شيوخاً وشباناً وبلغاً وصبياناً وحرماً وولداناً يقيم به المرض الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين بروئهم وشفائهم ، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ويفرق للبعيد والقريب والأهل وللغريب والقوي والضعيف والدنيء والشريف والعلي والحقير والغني والفقير والمأمور والأمير والأعمى والبصير والمفضول والفاضل والمشهور والخامل والرفيع والوضيع والمترف والصعلوك والمليك والمملوك من غير اشتراط لعوض من الأعواض ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض بل لمحض فضل الله العظيم وطوله الجسيم وأجره الكريم وبره العميم »[1] .

مما سبق نرى أن هذا البيمارستان كان مفتوحاً على مدى أربع وعشرين ساعة لتقديم مختلف الخدمات الطبية لكل مريض أيّاً كانت منزلته ، بل يتساوى في الاستفادة من هذه الخدمات الطبية الغني والفقير على حد سواء دون تمييز .

ولا شك أن إلغاء الفروقات الجنسية والعنصرية والانتمائية بين المرضى المسلمين المحتاجين للعلاج ، بحيث يحظى الجميع بنفس القدر من الرعاية والعناية دون تفرقة أو أولوية أو وساطة لهو دليل واضح على الرغبة في توفير العلاج اللازم لكل مريض وذلك طلباً للخير والثواب ، كما أن تهيئة العلاج المجاني لكل من يطلب الشفاء لهو برهان على تطبيق مبدأ المساواة في العلاج والدواء لكل المرضى[2] .

وفضلاً عما سبق تمدنا حجة الوقف بمعلومات قيمة عن الخدمات التي تؤدى للمرضى به والتي كان يصرف عليها من ريع الوقف ، وأهم هذه الخدمات توفير الأسرة والفرش اللازمة للمرضى وتوفير الغذاء المناسب لكل مريض حسب حالته الصحية ، فضلاً عن توفير الإضاءة والماء العذب ، وترتيب الفراشين والقومة الذين يتولون أعمال النظافة وغسل ملابس المرضى والقيام بمختلف مصالحهم التي يحتاجون إليها .

كما يوضح لنا الواقف في هذه الوثيقة بعض الأنظمة التي كان معمولاً بها ،

---

(١) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ـ ص: ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ سطر ٢٩١ ـ ٣٠٥ .
محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري ص: ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ـ سطر ٢١٤ ـ ٢٢٦ .

(٢) حياة ناصر الحجي : المرجع السابق ـ ص: ١٣ ـ ١٤ .

والتي تغير من أسس الرعاية الصحية الحديثة ، من ذلك ما يشترطه من ضرورة تحضير الأدوية في أوانها وتخزينها لحين الحاجة إليها ، على أن يصرف لكل مريض ما يحتاج إليه فقط دون زيادة أو نقصان ، فقد كان للبيمارستان خزانة كاملة للشراب ، كذلك راعى الواقف حالة الجو في مصر في فصل الصيف فاشترط ضرورة صرف مراوح من الخوص ليستخدمها المرضى في التخفيف من حرارة الصيف ، كذلك حرص الواقف على أن يكون هناك ما يغطي غذاء المرضى لمنع تلوثه ، وأن يتناول كل مريض غذاءه من غير مشاركة مع مريض آخر زيادة في الحيطة واتباعاً لأساليب صحية ، أصبحت بمرور الزمن ويتجه للعمل بشرط الواقف في التقاليد الصحية المرعية[1] .

وقد أشارت الوثيقة إلى ذلك صراحة فذكرت « ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ثمن ما تدعو حاجة المرضى إليه من سرر حديد أو خشب على ما يراه مصلحة ولحف محشو قطناً ، وطراريح محشوة بالقطن أيضاً ، وملاحف قطن ومخاد طرح ، أو أدم محشوة على ما يراه ويؤدي إليها اجتهاده ،وهو مخير بين أن يفصل كل نوع من ذلك ويصرف أجره خياطته وعمله وثمن حشوه وبين أن يشتري ذلك معمولاً مكملاً فيجعل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملاً في حق كل منهم بتقوى الله وطاعته باذلاً جهده وغاية نصيحته ، فهم رعيته وكل مسئول عن رعيته ، ويصرف الناظر في هذا الوقف ثمن سكر يصنعه أشربة مختلفة الأنواع ومعاجين وثمن ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه والخمائر برسم الأشربة وثمن ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والعقاقير والمعاجين والمراهم والأكحال والشيافات والغرروات والأدهان والشفوفات والترياقات والأقراص وغير ذلك يصنع كل صنف في وقته وأوانه ويدخره تحت يده في أوعية معدة له ، فإذا فرغ استعمل مثله من ريع هذا الوقف ولا يصرف من ذلك لأحد شيئاً إلا بقدر حاجته إليه ولا يزيده عليها وذلك بحسب الزمان وما تدعو الحاجة إليه بحسب الفصول وأوقات الاستعمال ويقدم في ذلك الأحوج فالأحوج من المرضى والمحتاجين والضعفاء والمنقطعين والفقراء والمساكين ، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم وزبادي فخار برسم أغذيتهم واقتراح زجاج وغضار برسم أشربتهم وكيزان وأباريق فخار وقصارى وفخار وسرج وقناديل وزيت للوقود عليهم ، وماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم وأغذيتهم وفي ثمن مكبات خوص لأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها ، وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها في الحر، يصرف

---

(١) محمد محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ١٦٢ ـ ١٦٣ .

الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف من غير إسراف ولا إجحاف ولا زيادة على ما يحتاج إليه ذلك بحسب ما تدعو الحاجة إليه لزيادة الأجر والثواب »[١] .

ويمكن القول إن هذا البيمارستان كان عبارة عن مستشفى عام لعلاج جميع الأمراض ، وكان مقسماً إلى قسمين أحدهما للذكور والآخر للإناث ، وكل قسم مقسم إلى قاعات : قاعة للأمراض الباطنية ، وقاعة للجراحة ، وقاعة للكحالة (أمراض العيون) وقاعة للتجبير، وكانت قاعة الأمراض الباطنية مقسمة هي الأخرى إلى أقسام صغيرة تبعاً لاختلاف الأمراض فمنها قسم للمحمومين وهم المصابون بالحمى ، وقسم للممرورين وهم مرضى الجنون السبعي ، وقسم للمبرودين أي المختومين وقسم لمن به إسهال ، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان ما بين طبيب وثلاثة حسب اتساع القسم وعدد المرضى ، ولكل قسم رئيس ، فكان فيه رئيس للأمراض الباطنية ورئيس للجرائحين ورئيس للكحالين[٢] .

وفضلاً عما سبق كان البيمارستان المنصوري يشتمل على قسم آخر ـ يكاد يكون مستقلاً عن الأقسام الأخرى ـ خاص بالمجانين ، وهو ينقسم إلى قسمين متجاورين أحدهما خاص بالمجانين من الرجال والآخر خاص بالمجنونات من النساء[٣] .

وقد توفر على تقديم مختلف ألوان الرعاية الصحية والاجتماعية بالبيمارستان عدداً من أرباب الوظائف نصت عليهم الوثيقة ومنهم :

(١) الأطباء : وقد كانوا من ثلاث فئات : الطبائعيون وهم الذين يقومون بعلاج الأمراض الداخلية الباطنية ، وجرائحيون وهم الذين يقوم بالعمليات الجراحية والكحالون وهم المختصون بمعالجة أمراض العيون .

وتوضح لنا الوثيقة كيفية قيام الأطباء ببعض مهامهم من ذلك ما تذكره من مباشرة المرضى والمختلين من الرجال والنساء « مجتمعين أو متناوبين » وأن يصفوا لكل مريض ما يحتاج إليه من علاج وغذاء في « دستور ورق ليصرف على حكمه » كذلك حدد الواقف مواعيد تواجد الأطباء بكل دقة ، فشرط ضرورة تواجد الأطباء الكحالين

---

(١) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستان ـ ص: ١٤١ ـ ١٤٣ ، سطر ٣٣٧ ـ ٣٥٧ .
محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري ص : ٢٥١ ـ ٢٦٧ .

(٢) محمد محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ١٦٢ .

(٣) محمد سيف النصر : منشآت الرعاية الاجتماعية ـ ص: ٨٨ ـ ٨٩ .

صباح كل يوم حتى لا يأتي مريض العلاج ويرد ، وكذلك توضح لنا الوثيقة نقطتين على جانب كبير من الأهمية : الأولى ضرورة مراجعة الطبيب الكحال (طبيب العيون) للطبيب الطبائعي (طبيب الأمراض الباطنية) للنظر سوياً في علاج المريض الذي قد يرجع مرض عينيه إلى أسباب باطنية وتوضح لنا هذه النقطة مدى التعاون بين الأطباء في فروع الطب المختلفة في ذلك العصر . وهو ما يقابل أحدث وسائل العلاج وتشخيص الأمراض في العصر الحديث ، والنقطة الثانية هي حرص الواقف على ضرورة تواجد الأطباء بالبيمارستان ليلاً « مجتمعين أو متناوبين » مما يدل على مدى اهتمام الواقف بالرعاية الصحية وضرورة الاحتياط لما قد يحدث من أزمات للمرضى أثناء الليل[١] .

وقد يكون السبب وراء شروط الوقف على ضرورة تواجد الأطباء بالبيمارستان على الدوام وتناوبهم العمل ليلاً هو وجود القسم الداخلي للمرضى المؤقتين ، ووجود قسم الأمراض العقلية والعصبية للمرضى المقيمين مما يستلزم تواجد الأطباء بشكل مستمر بالإضافة إلى قسم الطوارىء الذي يستقبل الحالات الطارئة والحوادث المفاجئة ، أما عن أجور هؤلاء الأطباء فقد نصت الوثيقة على أنها بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى وخبرة الطبيب[٢] .

(٢) ومن الوظائف التي رتبها الواقف بالبيمارستان ما يماثل وظيفة الصيدلي والممرض في العصر الحديث ، فقد رتب رجلين اشترط فيهما الأمانة والديانة يتولى أحدهما حفظ الأدوية والعقاقير ويكون مسئولاً عن صرف الأدوية حسب أوامر الأطباء فيسلمها للرجل الثاني لتوزيعها على المرضى وعليه أن يتأكد من أن كل مريض تناول الدواء الموصوف له وعليه كذلك الإشراف على المطبخ وتوصيل الطعام إلى المرضى كل حسب ما وصف له[٣] .

(٣) تدريس الطب في البيمارستان وقد سبق أن تناولنا ذلك عند الحديث عن النشاط العلمي .

(٤) كذلك رتب الواقف بالبيمارستان عدد من القومة والفراشين يقوم كل منهم بخدمة المرضى والمختلين من الرجال والنساء وغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم وإصلاح شئونهم والقيام بمصالحهم[٤] .

---

(١) محمدمحمدأمين : الأوقاف-ص: ١٦٧-١٦٨ .
(٢) حياة ناصر الحجي : البيمارستان المنصوري - ص: ١٧ .
(٣) محمد محمد أمين : الأوقاف - ص: ١٦٦ .
(٤) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستان : ص: ١٤٥ - سطر ٣٨٣ - ٣٨٦ .
=

هـذا ولم تقتصر الرعايـة الصحية على المـرضى المقيمين بالبيمـارستان أو المرضى المترددين عليه ـ مرضى العيادة الخارجية ـ بل شمل أيضاً المرضى الفقراء في بيوتهم ، فقد حرص الواقف على ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة والأغذية ولكن بشرط عدم التضييق على المـوجودين بـالبيمارستـان ، وقد زاد عـدد مرضى المنازل في بعض الأوقات على مائتي مريض[1] .

وفضلاً عما سبق فإنه يستدل من حجة وقف الأمير عبد الـرحمن كتحتزا أنـه خصص جزءاً من ريع وقفـه لشراء خبـز يفرق على الضعفـاء والمرضى والمختلين المقيمين بالبيمارستان ، وفي ذلك تذكر الوثيقة « وما يصرف في ثمن مائة رغيف خبز قرصة تفرق كل يوم بالبيمارستان المنصوري الكاين بخط بين القصرين نصفها على الضعفاء والمرضى المقيمين بالبيمارستـان المذكـور ، والنصف الثاني على ذاهلين (المختلين) العقول رجالاً ونساءاً سوية بينهم في كل سنة سبعة آلاف نصف ومـايتا نصف ثنتان من ذلك »[2] .

وفي ضوء ما سبق يتضح أن البيمارستـان المنصوري كـان بلا شـك علامـة حضارية وإنجازاً إنسانياً مبكراً في مجال الرعاية الاجتماعية[3] .

البيمارستان في ضوء أقوال المؤرخين والرحالة :

أطنب المؤرخـون والرحـالـة في وصف البيمـارستـان المنصـوري والإشـادة بمحاسنه .

ومن بين مؤرخي العصر المملوكي ابن عبد الظاهر الذي ذكر أنه « مارستـان عظيم الشأن لا تصل همة ملك إلى ابتناء مثله »[4] .

ووصفه ابن شاكر الكتبي بأنه « البيمارستان العظيم الذي لم يكن مثله »[5] .

وذكـر القـلقـشنـدي أن هذا البيمارستان من « المعروف العظيم الذي ليس له نظير في الدنيا »[6] .

= محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان قلاوون ـ ص: ٣٦٦ ـ ٣٦٧ ، سطر ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

(١) محمد محمد أمين : الأوقاف ـ ص: ١٦٩ .

حياة ناصر الحجي : البيمارستان المنصوري ـ ص: ١٧ .

(٢) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا (أوقاف ٩٤١) ص: ٢٠٨ سطر ٥ ـ ١١ ، ص: ٢٠٩ ـ سطر ١ .

(٣) محمد سيف النصر : منشآت الرعاية الاجتماعية ـ ص: ٨٤ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ـ ص: ٥٦ .

(٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ـ جـ ٢ ـ ص: ٢٧٠ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ـ جـ ٣ ـ ص: ٣٧٠ .

وأورد القلشندي أيضاً ما ذكره العمري في ممالك الأبصار فقال: «وهو الجليل المقدار ، الجليل الآثار ، الجميل الإيثار لعظيم بنائه وكثرة أوقافه وسعة اتفاقه وتنوع الأطباء والكحالين والجرائحية فيه »[1] .

وزودنا ابن شاهين بمعلومات قيمة فذكر أن السلطان قلاوون قرر « وقفه في كل سنة أربعين ألف مثقال ذهب أفرد من ذلك لعمارته وخدامه أربعة آلاف وقرر مصروفه في كل يوم مائة مثقال ولم أعلم ما هو عليه الآن ـ أي منتصف ق ٩ هـ/ ١٥ »[2] .

وذكر ابن تغري بردي أن هذا « البيمارستان وأوقافه وما شرطه فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديماً ولا حديثا شرقاً ولا غرباً »[3] .

وذكر ابن شاهين الملطي أنه « ما بني مثله في الإسلام »[4] .

وأضاف ابن إياس فذكر أن هذا المعروف باقٍ إلى زمنه وأنه « من حسنات الزمان تحتاج إليه الملوك ولا يستغني عنه الغني ولا الصعلوك »[5] .

أما بالنسبة للرحالة العرب الذين زاروا مصر في العصر المملوكي ودونوا مشاهداتهم عنها ، فقد لفت البيمارستان المنصوري أنظارهم وشد انتباههم فأشادوا به ومن بين هؤلاء ابن بطوطة الذي ذكر أنه يعجز « الواصف عن محاسنه» وأنه « أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم»[6].

ومنهم البلوي المغربي ومما ذكر أنه « ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا المارستان وحده لكفاها ، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسناً وجمالاً واتساعاً ،

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن شاهين (غرس الدين خليل) : ت ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٨ م زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك ـ نشرة بولس راويس ـ باريس ١٩٨٤ م ص: ٢٩ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٢٧ .

(٤) ابن شاهين الملطي : نزهة الأساطين ـ ص: ٧٩ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٥٣ .

(٦) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م .
الرحلة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ـ القاهر ـ بيروت ـ بدون تاريخ ـ ص: ٣٣ .

لم يعهد مثله بقطر من الأقطار ، أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال . . »[1] .

ويتابع البلوي قوله فيذكر أن الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركي أخبره بأنه «يكمل فيه في كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين أربعة آلاف نفس ، وتارات يزيدون وينقصون ، ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرض حتى يعطى إحساناً إليه ، وإنعاماً عليه ، كسوة للباسه ودراهم لنفقته . . وأما ما يعالج به المرضى فيه من قناطير الأشربة المقطرة والأكحال الرقيقة الطبية التي تسحق فيها دنانير الذهب الإبريز وفصوص الياقوت النفيس ، وأنواع اللؤلؤ الثمين ، فشيء يهول السماع ويعم ذلك الجمع ، إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطير والأغنام على اختلافها وتباين أصنافها مع ما يحتاج إليه كل واحد ممن يوافيه ، ويحل فيه لفرشه وعرشه من غطاء ووطاء ومشموم ومزرور وشبه ذلك مما هو مصر على أكمله هنالك ، وما ليس مثله إلا في منزل أمير أو خليفة، وقد رتب على ذلك كله من الأطباء الماهرين والشهود المبرزين والنظار العارفين والخدام المنصرفين ، كل من هو في معالجته موثوق بعدالته ، مسلم له في معرفته غير مقصرٍ في تصرفه وخدمته ولو استقصيت الكلام في هذا المارستان وحده لكان مجلداً مستقلاً بنفسه أو في مبانيه الرائعة وصناعته الفائقة وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التي ترفل في ملابس الإعجاب وتسحر العقول والألباب ما يفتن النفوس ويكشف أنواع البدور والشموس وتعجز عن وصف بعضها خطا الأقلام في ساحة الطروس فما وقعت عين على مثله ولا سمعت أذن يشبهه وشكله »[2] .

وذكر الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي أنه « بيمارستان كبير له دخل يبلغ مائتي ألف دينار أشرفي ـ نسبه إلى الأشرف قانصوه الغوري ـ وهو مفتوح للجميع يجد فيه المريض كل التسهيلات والعلاجات الطبية وجميع ما يحتاج إليه حتى الشفاء ، لكن إذا مات فيه أحد آلت جميع أمواله إلى البيمارستان »[3] .

---

(١) البلوي (خالد بن عيسى البلوي أبو البقاء)
تاج المفرق في تحليله علماء أهل المشرق ـ مخطوط ـ دار الكتب المصرية (رقم ١٠٥٣ جغرافيا ـ ميكرو فيلم ٤٨١١٥ جغرافيا) ورقة ٤٥ ب .

(٢) البلوي : المصدر السابق ـ ورقة ٤٦ أـ ب .

(٣) ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان الفاسي)
وصف إفريقيا ـ جـ ٢ ـ ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر ـ الطبعة الأولى الرباط ١٩٨٢ م ـ ص: ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

=

ومما يدل على ازدهار وتقدم الحياة الطبية في القاهرة بصفة عامة والبيمارستان المنصوري بصفة خاصة ، ما ذكره الرحالة التركي أوليا جلبي[1] الذي زار القاهرة في النصف الثاني من ق ١١ هـ/ ١٧ م ، من أن بالقاهرة وحدها ستين جراحاً وأربعين طبيباً ومائتين وتسعون صيدلياً هذا غير الذين يعملون في الحكومة من الجراحين والأطباء والصيادلة .

وكان هذا الرحالة التركي نفسه غير متزوج لمرض ألم به استمر سبعة وعشرين عاماً عقم بسببه ، ويحكى أنه شفي من مرضه هذا فيما بعد ، وأخذ جسمه يسمن بعد أن كان نحيلا ، وتم شفاءه بواسطة دواء يسمى الترياق الفاروقي يستخرج من الثعابين في البيمارستان المنصوري ، ولم يكن هذا الدواء يحضر إلا في مصر ، ولمرة واحدة في العام ويصدر إلى استانبول .

وقد زار البيمارستان أيضاً الرحالة نيبور[2] فذكر «والمورستان مستشفى للمرضى والمجانين ، ولمن شاء أن يقرأ في الكتب العربية التي تصف القاهرة كلاماً كثيراً جداً عن الأموال الكثيرة المخصصة لرعاية هذا المستشفى ، والكثير من المساجد الكبيرة ، إلا أن إنفاق هذه الأموال كثيراً ما يجري على نحو يثري به القائمون بأمره ثراءاً متزايداً ، تصاب به المساجد بفقر متزايد إلا أن تأتي أوقاف جديدة تعوض الخسارة . وكان هذا المستشفى يقوم بكل ما يحتاج إليه المريض لم يفضلوا منه شيئاً حتى الموسيقى ، وكان المرضى قد حرموا قبل أعوام كثيرة من متعة الموسيقى ، حتى عاد عبد الرحمن كخيا (يقصد عبد الرحمن كتخدا) فرد هذه النعمة إليهم منذ بعض الوقت ، وأنا لم أر من المبنى إلا الجزء الذي به المرضى ، وكان عدد المرضى يقيناً قليلاً جداً بالقياس إلى حجم المدينة » .

ويذكر جومار ـ أحد علماء الحملة الفرنسية ـ أنه لم يبق من البيمارستانات العديدة التي كانت مشيدة بالقاهرة ، إلا البيمارستان المنصوري الذي « يجمع فيه

= وتجدر الإشارة إلى أن ليون الإفريقي نسب بناء البيمارستان إلى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري وليس إلى السلطان قلاوون .
نفس المصدر ـ ص: ٢٠٦ .

(١) محمد حرب : تجربة مثيرة لرحالة تركي قضى ٤٤ عاماً في ٢٣ دولة ـ مجلة العربي الكويتية ـ عدد سبتمبر ١٩٨١ م ـ ص: ١٠٤ ، ١٠٧ .

(٢) نيبور (كارستن) : رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ـ جـ ١ رحلة إلى مصر ١٧٦١ ـ ١٧٦٢ م ـ ترجمها وعلق عليها وقدم لها : مصطفى ماهر ص: ٢٢٢ .

المختلين من كلا الجنسين »[١] .

ويتابع جومار قوله فيذكر أن هذا البيمارستان كان مخصصاً في الأساس لاستقبال المختلين ، وبعد ذلك أصبح « مخصصاً لاستقبال جميع أنواع المرضى وأجزلت له المنح والعطايا من جميع حكام مصر ، وقد خصص لكل نوع من الأمراض قاعة خاصة يشرف عليها طبيب مخصص ، وكان كل من الجنسين يشغل قسماً مستقلاً من المبنى ، كما كان يقبل به جميع المرضى ، أغنياء كانوا أم فقراء بدون تمييز ، كما أن الأطباء الذين كانوا يستقدمون من جميع أنحاء الشرق كانوا يعاملون بكرم زائد ، كذلك فقد ألحقت بالمنشأة صيدلية مزودة بكل ما يلزم ، ويزعم أن المريض الواحد كان يتكلف ديناراً في اليوم وله في خدمته شخصان ، كما أن المرضى المصابون بالأرق كانوا ينقلون إلى قاعة منفصلة حيث يستمعون إلى عزف موسيقي جيد الإيقاع أو يتولى رواة متمرنون تسليتهم بحكاياتهم وفور أن يسترد المريض صحته يتم عزله عن بقية المرضى ويسمح له بالاستمتاع بمشاهد الرقص ، ويعرض أمامه فصول ضاحكة ، وأخيراً فإنه يمنح عند مغادرته للمارستان خمس قطع ذهبية (دنانير) حتى لا يضطر أن يلجأ على الفور إلى الأعمال الشاقة »[٢] .

ويضيف جومار فيقول إن هذا البيمارستان « مكون من أربعة إيوانات كل منها مزود بشاذروان وقد تمت هذه الأعمال في أقل من عام » .

وقد زودنا جومار بمعلومات هامة تبين حالة البيمارستان في زمن الحملة الفرنسية فيذكر أنه « أصبح بعيداً تماماً عن ازدهاره الأول وبعبارة أخرى كاد لا يبقى منه غير ظله بسبب تهاون وإهمال الأتراك والمماليك وعلى الأخص بسبب الإسراف في تبديد أمواله ، وعندما زرته ـ أي جومار ـ كان عدد المرضى به بخلاف المعتوهين ما بين خمسين إلى ستين مريضاً كانوا يشغلون قاعات الدور الأرضي مفتوحة للهواء وبدون أسرة أو منقولات ، أما المعتوهون فكانوا يشغلون جزءاً آخر من المبنى مقسم إلى حوشين كل حوش مخصص لأحد الجنسين وكان عدد المجانين عشرة محبوسين في حجر مسورة ومسلسلين من أعناقهم وكان من بينهم اثنان من « البرابرة » (شاب قوي محبوس منذ ثلاث سنوات ، وعبداً للألفي بك معزول منذ أربعة أشهر) .

---

(١) جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل (من كتاب وصف مصر) ـ نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه ـ أيمن فؤاد سيد ـ ط ١ ـ القاهرة ١٩٨٨ م ص: ١٩٣ .

(٢) جومار : المرجع السابق ـ ص: ١٩٥ ـ ١٩٦ .

وشريف تواتيه نوبة من الجنون مرة كل شهر وشريف معه زوجته . . . إلخ . وكانت النساء عرايا أو تقريباً بدون ملابس . . »[٣] .

وقد أمر الجنرال الفرنسي رئيس الأطباء بزيارة المارستان وأن يقدم تقريراً عنه ويعرض أفكاره لإصلاحه وتحسينه ، وقد ذهب لهذا الغرض مسيو ديجانت بصحبة الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر وفيما يلي الألفاظ التي استخدمها في تقريره :

« المارستان محل واسع يقع في مكان سيء جداً أن يستقبل بسهوله مائة مريض ، وفي الوقت الراهن يوجد به سبعة وعشرون مريضاً وأربعة عشر معتوهاً سبعة رجال وسبعة نساء، ومن بين المرضى يوجد العديد من العميان ، وعدد أكبر مصاب بالسرطان ، وآخرين أنهكتهم أمراض مزمنة أهملت في بداياتها ، وجميعهم لا تقدم لهم أية إسعافات سوى توزيع الغذاء المكون من الخبز والأرز والعدس ولا يخطر على بالهم أنه يمكن أن تسكن آلامهم . وفي ظل هذا الإهمال المتروك لمشيئة القدر ، فإنهم لا يعرفون على الإطلاق أبسط أنواع الدواء . ويقيم المعتوهون في حوشين منفصلين يحوي أحدهما ثماني عشرة حجرة للرجال والآخر ثماني عشرة حجرة للنساء، وقد بدا لي الرجال باردين وسوداويين وأغلبهم متقدم في السن . شاب واحد فقط كان في حالة هياج ويزأر كالأسد ، ولكنه تحوّل في خلال دقيقة وعاد إلى هدوئه وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء . أما حجرات النساء فليست كلها محددة بسياج ورغم أنهن جميعاً مسلسلات فإنهن غير مثبتين في الحائط مثل الرجال »[٢] .

وخلال القرن ١٣ هـ/ ١٩ م تعرض البيمارستان للاضمحلال والإهمال الشديد ، ففي أوائل الخمسينات من هذا القرن نقل المجانين منه إلى جامع أحمد بن طولون[٤] .

وفي ١٨٥٦ م نقل المجانين إلى ورشة الجوخ ببولاق ولم يكن بهذا المكان الاستعداد اللازم لذلك ، وكانوا غير معتنى بهم فأنشىء لهم مستشفى في بعض السراي الحمراء التي أنشأها الخديوي إسماعيل في العباسية ١٨٨٠ م[٢] .

---

(١) جومار : المرجع السابق ـ ص: ١٩٧ .
(٢) جومار : المرجع السابق ـ ص: ١٩٧ ـ ١٩٨ .
(٣) Creswell, OP-Cit. 206.
(٤) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستان ـ ص: ١١٠ .
سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٣ ص: ٧٤ .

وبعد ذلك عاد البيمارستان لسالف عهده فعولجت فيه سائر الأمراض ثم اقتصر على معالجة أمراض العيون .

وفي سنة ١٩١٥ م أقامت وزارة الأوقاف بقسم من البيمارستان مستشفى لمعالجة أمراض العيون هي الباقية حتى الآن[1] .

---

(١) محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة ـ ص: ١٠٧ .
حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ـ ص: ١٢٢ ـ ١٢٣ .
سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ٣ ـ ص: ٧٤ .

الفصــــل الثــــاني

«القبـة المنصـوريـة»

تعد القبة المنصورية من أروع نماذج القباب الباقية بمدينة القاهرة سواء في تخطيطها الفريد الذي لم يتكرر بعد ذلـك[1] ، أو في تنوع عنـاصرهـا المعماريـة والزخرفية أو فيما كانت تؤديه من وظائف دينية وتعليمية واجتماعية .

وينبغي قبل أن نتناول وصف القبة من الداخل ومن الخارج ، أن نشير إلى نقطة على جانب كبير من الأهمية ، وهي أن القبة المنصورية لم تكن مشيدة أصلاً لتكون قبة للدفن ، وإنما كانت تقوم بوظيفة المسجد والمدرسة كما سبق القول .

ويدعم هذا الرأي الأدلة الآتية :

(١) إن السلطان قلاوون قام بترتيب أرباب الوظائف المختلفـة بالقبـة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك[2] ، ولم يكتف السلطان بذلك وإنما حضر عقب زيارته لكل من المدرسة والبيمارستان إلى « القبة الشريفة فجلس بها ، وقرأ القراء وذكر مدرس الحـديث بها أحـاديث وتكلم عليهـا ودرّس المفسـر بهـا وأخـذ شيئـاً من التفسيـر والفقه »[3] .

(٢) ويأتي الدليل الثاني ليؤكد وجهة نـظر الباحث ، ذلـك أنه عنـدما تـوفي السلطان قلاوون في ٦ ذي القعدة ٦٨٩ هـ/١٢٩٠ م لم يدفن في القبة مباشرة ، لأنه لم يكن بها مكان معد للدفن أصلاً ، ولذلك حمل جثمان السلطان قلاوون إلى القلعة وغسل وكفن وصلي عليه ووضع في بعض الأماكن من القلعة حتى يتم ترتيب موضع

---

(١) محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة ـ ص: ٣٣١ .

(٢) انظر ص: ٤٠ ـ ٥٠ من الباب الأول .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص: ١٢٨ .

دفن السلطان ، وفي ذلك يذكر ابن عبد الظاهر ـ وهو شاهد عيان ـ أنه بعد أن صعد بالسلطان إلى القلعة وغسل وكفن وصلي عليه وجعل في بعض أماكنها ـ أي القلعة ـ « جعل الشروع في ترتيب مكان دفنه »[1] .

واستمر جثمان السلطان قلاوون بالقلعة لمدة شهرين حتى أعد مكان دفنه أسفل القبة المنصورية ، ولما تم ذلك أمر السلطان الأشرف خليل بنقل أبيه من القلعة إلى تربته بالقبة المنصورية في الثاني من المحرم وقيل العاشر من المحرم ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م[2] .

وفي ضوء ما سبق يتضح أن القبة المنصورية لم تصبح قبة للدفن إلا منذ دفن السلطان قلاوون بها في المحرم ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م .

وممن دفن بها بعد ذلك كل من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وابنه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون[3] .

المدخل (شكل ٤) :

كان يتوصل إلى هذه القبة من بابين بالضلع الشمالي الشرقي للدهليز الرئيسي للمجموعة كلها ، أحدهما يتوصل منه لداخل القبة مباشرة وهو الذي يشغل الدخلة الوسطى من الدخلات الخمس بهذا الضلع ، ويعلو هذا الباب النص التأسيسي لبناء القبة ، وقد سبقت الإشارة إليه ، ويصدر الدخلة قمرية مطاولة ، وهذا الباب غير مستخدم حالياً (لوحة ٢٠) .

أما الباب الثاني ـ وهو المستخدم حالياً. فيشغل الطرف الشمالي من الضلع الشمالي الشرقي للدهليز السابق ذكره ، ويقع هذا الباب في دخلة على جانبيها جلستين صغيرتين ، ويتوج الدخلة عقد نصف دائري زين باطنه وجوافه بصنجات على هيئة مخدات متلاصقة Cushion Vaussoirs ، وعلى ذلك فهو يشبه المدخل المقابل له وهو الذي كان يؤدي إلى المدرسة قديماً كما سيتضح في الفصل الثالث من هذا الباب .

ويتوسط الدخلة باب الدخلة ويفضي إلى دركاة فريصة مغطاة بقبة ضحلة مقامة

---

(١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ـ ص: ١٧٩ .
(٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ـ جـ ٨ ـ ص: ٩٧ .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٣٨١ .
(٣) المقريزي : المصدر السابق ـ ص: ٣٨٠ .

على أربعة مثلثات كروية في الأركان ، وتصل من هذه الدركاة إلى القاعة التي تتقدم القبة ، ومن هذه القاعة يتم الدخول إلى القبة نفسها .

القاعة التي تتقدم القبة (لوحة ٢٠)، (شكل ٤) :

أطلقت الوثيقة على المساحة التي تتقدم القبة اسم « رواق القبة » وذكرت أن به فسقية يصل منها الماء إلى حوض من الحجر الأخضر يوجد بصدر دركاة مدخل البيمارستان . وتضيف الوثيقة فتذكر أن « طفيف هذا الحوض جار إلى فسقية بيوت المختلين الرجال »[١] .

أما المقريزي فذكر أنه يشغل هذا المكان قاعة جليلة معدة لإقامة خدام القبة من الطواشية[٢] ، ويضيف المقريزي فيذكر أنه يتوسط هذه القاعة « فسقية يصل إليها الماء من فوارة بديعة الزي وسائر هذه القاعة مفروش بالرخام الملون »[٣] .

وتتكون هذه القاعة من مساحة شبه مربع ١٠ × ١٣ م قسمت إلى ثلاثة أروقة أوسطها أوسعها ، بواسطة بائكتين ، بائكة بكل جانب ، وتتكون كل بائكة من ثلاثة عقود مدببة ترتكز على عمودين من الجرانيت الوردي ذي تيجان كورنثية ويشتمل كل رواق من الرواقين الجانبين (الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي) على ثلاثة مربعات يغطي كل مربع منها قبة ضحلة مقامة على أربع مثلثات كروية في الأركان . أما الرواق الأوسط المتسع فكان يغطي الجزء الأوسط ـ أعلى الفسقية التي كانت تشغله ـ قبة هدمها الأمير عبد الرحمن كتخدا وترك هذا الجزء مكشوفاً[٤] . في حين غطى الجزء الشمالي الغربي من هذا الرواق بقبو برميلي مدبب ، وترك الجزء الثالث الجنوبي الشرقي ـ وهو الذي يتقدم المدخل المؤدي لداخل القبة ـ مكشوفاً .

---

(١) محمد سيف النصر : منشآت الرعاية الاجتماعية ـ ص: ١٤٤ ـ سطر ١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) الطواشية (مفردها طواش) : وهو لقب عام للخصيان من الغلمان ، كذلك كان هذا اللقب يطلق في عصر المماليك على جند الأمراء في المكاتبات إليهم بتوقيع أو نحوه .
حسن الباشا : الألقاب ـ ص: ٣٨٢ .

(٣) المقريزي : المصدر السابق ، ص: ٣٨٠ .
وتجدر الإشارة إلى ما ذكره (البروفيسور كريزول) من أنه كانت توجد آثار حوض مفصص بأرض هذه القاعة حتى سنة ١٩٥٦ م .

Creswell, OP-Cit. P. 192

(٤) د. أمال العمري : دراسة جديدة على ضريح المنصور قلاوون . ص: ٥٠ .

هذا ويتوسط الضلع الجنوبي الشرقي من هذه القاعة باب الدخول إلى القبة ويقع هذا الباب في دخلة معقودة بعقد مدبب يرتكز على عمودين ، ويلي هذا العقد إلى الداخل عقدين مدببين آخرين ، ويتوسط هذه الدخلة باب الدخول ويغلق عليه حجاب من خشب الخرط ويعلوه ثلاث قمريات مطاولة أكبرها أوسطها يعلوها قندلية بسيطة عبارة عن قمريتين مطاولتين يتوسط أعلاهما قمرية مستديرة ، وقد ازدانت هذه الواجهة بأروع وأجمل أنواع الزخارف الجصية في العمارة المملوكية كما سيتضح بعد ذلك (لوحة ٣٤) .

وصف القبة من الداخل[١] (شكل ٤) :

يتكون داخل القبة من مساحة شبه مربعة ٢١ × ٢٣ م يتوسطها أربعة دعامات مربعة من الآجر المكسي بالرخام ، وأربعة أعمدة من الجرانيت الوردي ذي تيجان كورنثية ، وقد رتبت هذه الدعامات وتلك الأعمدة لتشكل هيئة مثمن بواقع دعامتين بكل من الضلعين الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي وعمودين بكل من الضلعين الجنوبي الشرقي والشمالي الغربي (لوحة ٢١ ـ ٢٢) .

ويبلغ قطر هذه الدعامات ٢,٢٥م، بينما يبلغ قطر الأعمدة ٩٠ سم في حين يبلغ ارتفاعها ـ أي الأعمدة ـ ٧ م ، ويعلو تيجانها كتل (مخدات) خشبية ضخمة حتى تتوازى في ارتفاعاتها مع ارتفاع الدعامات السابقة .

وترتفع فوق هذه الدعامات وتلك الأعمدة ثمانية عقود ، يعلو كل عقد منها قمرية مستديرة تعلوها قندلية بسيطة ، وكل من العقود والقمريات التي تعلوها في دخلات غير عميقة معقودة بعقود مدببة شغلت كوشاتها بحطات من المقرنصات يليها منطقة مستديرة ثم الرقبة وفتح بها أربعة نوافذ صغيرة ، وتتوالى بعد ذلك صنجات القبة في التكوير حتى القطب الذي يتدلى منه سلسلة لتعليق وسائل الإضاءة[٢] (لوحة ٢٥) .

---

(١) اعتمدنا فيما يخص مقاسات القبة ـ وغيرها من وحدات المجموعة ـ على المدرسة التفصيلية القيمة للعالم الكبير (البروفيسور كريزول) :

Creswell, OP-Cit. PP. 192-195.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن القبة الأصلية قد هدمت ثم أعاد بنائها الأمير عبد الرحمن كتخدا فهدمت هي الأخرى ، أما القبة الحالية فقد أعادت بنائها لجنة حفظ الآثار العربية ١٩٠٣ م على غرار قبة الأشرف . خليل بن قلاوون ـ بشارع الأشرف بحي الخليفة بالقرب من السيدة نفيسة .

Creswell, OP-Cit. P. 193.

ويتوسط أرضية القبة تركيبة رخامية من مستويين بأركان العلوي منهما أربعة بابات ، ويعلو هذه التركيبة تابوت من الخشب المنقوش والمكتوب بالخطين الكوفي والنسخي ، ويشتمل جانبين من جوانب هذا التابوت على حشوات مثمنة ومسدسة محفورة بالأويمة الدقيقة ، وكتب بأعلى هذه الحشوات اسم وألقاب السلطان قلاوون والدعاء له (لوحة ٢٣) .

وقد أحيط هذا المثمن الدخلي بمقصورة من خشب الخرط تحوي نقوشاً وكتابات ، وقد أمر بصنعها السلطان الناصر محمد بن قلاوون [١] (لوحة ٢٤) .

وبالإضافة إلى هذه العقود الثمانية التي ترتفع فوق الدعامات والأعمدة ، توجد ثمانية عقود أخرى تمتد فيما بين الدعامات والأعمدة وبين الجدران الداخلية بواقع عقدين بكل جانب . ويتوسط صدر الضلع الجنوبي الشرقي من هذه المساحة المحراب ويوجد على جانبيه أربع دخلات معقودة بعقود مدببة يرتكز كل عقد منها على عمودين ، بواقع دخلتين بكل جانب ، وبنهاية كل دخلة شباك من أسفل تعلوه قمرية مطاولة من الجص المفرغ المعشق بالزجاج الملون ويعلو عقد الدخلة نفسها قندلية بسيطة .

وبالضلع الجنوبي الغربي خمسة دخلات معقودة بعقود مدببة يرتكز كل عقد منها على عمودين ، يشغل الدخلة الوسطى منهما باب الدخول للقبة من الدهليز الرئيسي ويعلوه قمرية مطاولة ، أما عقد الدخلة نفسها فتعلوه قندلية بسيطة . وبنهاية كل دخلة من الدخلات الأربع الباقية شباك يشرف على الدهليز الرئيسي وتعلوه قمرية مطاولة ، أما عقد الدخلة نفسها فتعلوه قندلية بسيطة .

وبالضلع الشمالي الشرقي خمسة دخلات تشبه الدخلات المقابلة لها ، تؤدي الدخلة الأولى منهما ـ وهي التي توجد بالطرف الشرقي من هذا الضلع ـ إلى حجرة مغطاة بقبو فتقاطع بها خزانة حائطية يقابلها شباك يشرف على شارع المعز لدين الله .

أما الدخلات الأربع الباقية فهي مجرد أربع خزانات إحداها كبرى وهي الخزانة الثالثة التي تقابل باب الدخول إلى القبة من الدهليز السابق الإشارة إليه .

ويتوسط الضلع الشمالي الغربي المقابل لجدار المحراب باب الدخول للقبة من القاعة السابق الإشارة إليها ، ويوجد على جانبي هذا الباب أربع دخلات ،

(١) حسين عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ـ ص: ١١٩ .
سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٣ ـ ص: ٧٢ .

معقودة بعقود مدببة يرتكز كل عقد منها على عمودين ، بواقع دخلتين بكل جانب ، وبنهاية دخلتين من الدخلات الأربع شباكين شباك بكل دخلة ، يشرفان على القاعة التي تتقدم القبة ، أما الدخلتين الأخريين فهما مجرد خزانتين .

المحراب :

تتوسط حنية المحراب ثلاث دخلات تتوسط صدر الضلع الجنوبي الشرقي ، اتساع الدخلة الكبرى ٤٤٥ سم وعمقها ٥٣ سم بينما اتساع الدخلة الوسطى ٣٥٠ سم وعمقها ٥٠ سم والصغرى ٢٦٠ سم وعمقها ٣٥ سم (لوحة ٣٠) .

ومسقط الحنية على هيئة العقد حدوة الفرس ويبلغ اتساعه ١٧٩ سم وعمقه ١٣٠ سم وهو مستوعب كاملاً داخل الجدار .

ويشغل ركني كل دخلة من هذه الدخلات الثلاث عمودان أسفل العمودين المجاورين للحنية مباشرة في حمل عقد الدخلة والذي هو في نفس الوقت عقد واجهة طاقية الحنية وهو ذو هيئة حدوية أيضاً ، وبذلك يكون محراب القبة متماثلاً مع محراب المدرسة ـ كما سيتضح بعد ذلك ـ من ناحية مسقطه وهيئة عقد طاقيته . وقد تميز العمدان في ركني الدخلة الكبرى بأن كل منهما بدناً مثمناً وتاجاً وقاعدة من النوع الناقوس المضلع بينما أعمدة الدخلتين الأخريين فلكل منهما بدن أسطواني وتاج ناقوس وقاعدة دائرية وضعت على كتلة رخامية مشابهة لتلك التي وضعت عليها أعمدة محراب المدرسة[1] .

الأسقف :

قسمت العقود الثمانية الممتدة فيما بين الأعمدة والدعامات وبين الجدران الداخلية ، وقد سبقت الإشارة إليها ، سقف الجزء المحيط بالمثمن الداخلي إلى أربعة مساحات مستطيلة ، وأربعة أخرى غير منتظمة الشكل وقد غطيت هذه المساحات بأسقف خشبية مذهبة ومزخرفة بمنتهى الدقة[2] .

وترتفع هذه الأسقف عن الأرض بنحو ١٥ م ويمكن أن نميز بين نوعين منها :

---

(١) حسين مصطفى حسين : المحاريب الرخامية في قاهرة المماليك البحرية ـ ماجستير مخطوط ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص: ١٣٩ .

(٢) Creswell, OP-Cit. P. 193.

ـ النوع الأول :

وهو عبارة عن براطيم خشبية تحصر فيما بينها مربوعات وتمـاسيح (منـاطق مستطيلة ومربعة) ازدانت بزخارف نباتية وهندسية ، ويجري أسفل هذا النـوع من الأسقف أزار ذي حنايا ركنية ممتدة لأسفل على هيئة الورقة النباتية الثلاثيـة ، ويغطي هذا النوع المساحات المستطيلة (لوحة ٢٧) .

ـ النوع الثاني :

وهو عبارة عن قصع (أحقاق) خشبية مثمنة زين باطنها وحوافـها والمساحات المحصورة فيما بينها بزخارف نباتية وهندسية ، ويجري أسفل هذا السقف أزار تشغله حطات من القرنصات تعتمد على ذيل هابط (لوحة ٢٨ ـ ٢٩) .

ويغطي هذا النوع من الأسقف المساحات غير المنتظمة الشكل .

ويذكر (البروفيسور كريزول) أنه قد أعيد ترميم هذه القصع فيما عدا قصع الركن الشمالي فقد تركت على حالها ولم تمس[١] .

الزخارف :

تتفرد القبة المنصـورية بكثـرة وتنوع زخـارفها المنفـذة على الرخـام أو على الجص ، وتعتبر هذه الزخارف خير شاهد على دقة المستوى الصناعي والفني الذي كانت عليه الزخارف المعمارية في بداية العصر المملوكي .

أولاً : الزخارف الرخامية :

استخدمت التكسيات الرخامية في زخرفة معظم أجزاء القبة المنصورية والقاعة التي تتقدمها ، كما سبق القول، سواء كان ذلك في الأرضيات أو في الجدران أو في الدعامات المربعة أو في زخرفة المحراب .

(أ) زخارف الدعامات والجدران :

تكسو الدعامات والجدران وزرة رخامية ارتفاعها ٤,١٨ م ، وقد شحنت هذه الوزرات بزخارف من الفسيفساء الرخامية الدقيقة على هيئة زخارف نباتية أو هندسية أو رسوم الباتكات الثلاثية الصماء ، هذا فضلاً عن كتابات مكررة بالخط الكوفي المربع تتضمن اسم الرسول ﷺ (محمد) مكرراً إما ثمانية مرات أو اثنتي عشرة مرة (لوحة ٣٠ ـ ٣٣) .

---

(١) Creswell, OP-Cit. P. 193.

ويعلو هذه الوزرات الرخامية شريطين الأول منهما من الرخام وتشغله زخارف نباتية دقيقة للغاية ، قوامها أفرع نباتية مزدوجة تلتف لتكوين مناطق شبه دائرية بها أوراق عنب وضع على كل منها شكل كوز صنوبر ويخرج من هذه الأفرع أنصاف مراوح نخيلية وأكواز صنوبر أخرى (لوحة ٣٣) .

أما الشريط الثاني فيحوي كتابات بالخط النسخي تتضمن التجديد الذي قامت به لجنة حفظ الآثار العربية لهذه القبة وزخارفها وتاريخ الفراغ من هذا التجديد سنة ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م (لوحة ٣٢) .

ب ـ زخارف البدن المحراب (لوحة ٣٠) :

زخرف البدن عن طريق تكرار مستويين زخرفيين الأول تشغله بائكة والثاني زخرف بتجميع الرخام الخردة والصدف وعلى ذلك فهي أغنى من زخرفة بدن محراب المدرسة التي تبودلت فيها البائكات مع مستويات كسيت بأشرطة رخامية غير مزخرفة . ويلاحظ أن هذه المستويات لا تبدأ من أرضية القبة مباشرة وإنما نجدها ترتكز على وزرة صغيرة ارتفاعها ٢٥ سم مكونة من مجموعات من الأشرطة الرخامية الرفيعة وكل مجموعة منها مكونة من ثلاثة أشرطة بيضاء تضم بينها شريطين باللون الأسود ويفصل بين كل مجموعتين متجاورتين شريط باللون الأحمر يغلق على هذه الوزرة ويفصلها عما يعلوها افريز رخامي بارز استغل عمقه لارتكاز أعمدة البائكة التي تشغل المستوى الأول والذي يبلغ ارتفاعها ٧٥ سم وهي تتكون من خمسة عشر عقداً من النوع المفصص المحاري تتفق تماماً في تفاصيلها وزخارف توشيحتيها مع تلك التي وجدت في محراب المدرسة ، إلا أن تيجان وقواعد أعمدة هذه البائكة قد نالت اهتماماً أكبر حيث زخرفت جميعها بزخارف نباتية دقيقة .

ويتضح في هذه البائكة كيف أن استخدام الأعمدة المنحوتة نحتاً كاملاً والمنفصلة عن صدر المحراب قد ساعد المرخم على كسوة المنطقة خلفها بتكوينات زخرفية ممتدة دون انقطاع منفذة بتجميع الرخام الخردة والصدف على هيئة أشرطة إليه متتابعة ومتداخلة ويتوج قمة كل شكل دالي مربع وضع على هيئة معين والألوان المستخدمة في تنفيذها هي الأحمر والأصفر والأسود بالإضافة إلى الصدف المستخدم بكثرة ملحوظة كما استخدمت قطع من الزخرف ذي اللون التركوازي في تنفيذ بعض المعينات الموضوعة على قمة الأشكال الدالية . ثم يفصل البائكة السابقة عما يعلوها افريز رخامي بارز يعلوه مستوى ثانٍ ارتفاعه ٥٠ سم زخرف بتجميع الرخام الخردة والصدف على هيئة زخارف هندسية متشابكة (ضرب خيط) قوامها الأطباق النجمية

ذات الاثني عشر طرفاً نفذت حدودها بالصدف وأجزاؤها بالرخام الأحمر والأصفر والأسود كما شكلت الفواصل بينها على هيئة مثلثين يلتقيان مع معين ليكونوا شكلاً قريباً من شكل المشكلة مجرداً ، يغلق على هذا المستوى افريز رخامي يعلوه المستوى الثالث الذي تشغله بائكة مماثلة تماماً للبائكة التي تشغل المستوى الأول ويلاحظ بها آثار تهذيب . يلي ذلك مستوى رابع مزخرف بالرخام الخردة والصدف بتكوينات مماثلة تماماً لزخارف المستوى الثاني وبعد الافريز البارز الذي يغلق عليه يوجد المستوى الخامس الذي تشغله بائكة مماثلة تماماً لسابقتيها بنفس البدن . أما المستوى السادس فتشغله بائكة تميزت بأنها أقصر من السابقة وبأنها محمولة على أعمدة مزدوجة ولم يكس داخلها بتجميع الرخام الخردة وإنما استخدمت قطع رخامية تكفي كل واحدة منها لكسوة داخل عقد . وزخارف التوشيحات والأعمدة مماثلة تماماً لزخارف مثيلاتها في البوائك السابقة ويغلق عليها أيضاً افريز بارز[1] .

زخارف جانبي بدن المحراب :

يكسو كل جانب من جانبي بدن المحراب لوح رخامي أبيض زخرف بالحفر البارز على هيئة مناطق مفصصة يحددها إطارات مزدوجة ذات حبيبات وتضم داخلها تكوينات نباتية مورقة يمكن أن تميز من بينها الأوراق الخماسية وأنصاف المراوح النخيلية التي زخرفت بالتبشيرات لتكسبها حيوية . كذلك عالج المرخم كلاً منهما نفس المعالجة التي سبق رؤيتها في كسوة جانبي محراب المدرسة وذلك من حيث عمل الامتدادات في مقابل كل بائكة تشغل مستوى زخرفياً بالبدن ليظهر منها العمود الأخير بكل جانب .

زخارف المنطقة الفاصلة بين البدن والطاقية :

استخدم الشريط الذي يتوج الوزرات في الفصل بين البدن والطاقية وذلك يجعله يستمر في السير في نفس مستواه داخل حنية المحراب وهو مزخرف بالحفر البارز بتكوينات نباتية قوامها الأفرع النباتية المزدوجة التي تلتف لتكون مناطق شبه دائرية بها أوراق عنب وضع على كل منها شكل كوز صنوبر ويخرج من هذه الأفرع أنصاف مراوح نخيلية وأكواز صنوبر أخرى .

---

(١) حسين مصطفى : المرجع السابق ـ ص: ١٣٩ ـ ١٤٠ .

زخارف طاقية المحراب :

تبدأ زخرفة الطاقية بشريط رخامي أبيض غير مزخرف يلتف ليحدد هيئتها بينما زخرف داخل الطاقية بزخارف هندسية منفذة بقطع الرخام والزجاج وقوامها الأشكال النجمية الثمانية المتشابكة التي حددت باللون الذهبي المنفذ بالزجاج وداخلها بالرخام الأسود ويتخلل هذه الزخرفة افريز بارز من الرخام يأخذ هيئة الطاقية أيضاً ولكنه ليس على حافتها الخارجية . أما واجهة عقد الطاقية فقد نفذت على هيئة صنجات معشقة باللون الأسود والأحمر بالتبادل مع الأبيض وقد نفذت الصنجة المفتاحية باللون الأحمر المختلط بالأصفر والمحدد بالأسود من الجانبين . وهذه الصنج مماثلة لصنجات واجهة عقد طاقية المدرسة من حيث أنها متعاكسة الجانبين والبروز فيها على هيئة هندسية . يحدد هيئة العقد الخارجية والتوشيحتين افريز رخامي بارز . ويلاحظ أنه برغم صغر التوشيحتين فإن قمة العقد تسمح باتصال كسوتي التوشيحتين وقد زخرفت كل منهما على هيئة أطباق نجمية منفذة بتجميع الرخام الخردة والصدف ويشغل داخل كل شكل نجمي زخرفة أكثر دقة ويحدد كل توشيحة شكل جديلة وتلتقي الجديلتان فوق قمة العقد .

يضم منطقة الطاقية والتوشيحتين إطار مكون من قطع رخامية معشقة بينما جوانب الدخلات على جانبي الطاقية قد زخرفت بثلاثة مستويات متتابعة من العقود ذات الطواقي المحاربة ومحمولة على أعمدة مزدوجة وقد كسي داخل كل منها بتجميع الرخام الخردة والصدف على هيئة أطباق نجمية وقد وصل المرخم بين قمة عقود المستوى الأخير بكل من جانبي الطاقية بواسطة قطع رخامية متجاورة نفذت بها أشكال الطواقي المحاربة وبحيث يتوج بها زخرفة منطقة الطاقية التي يحيط بها ويضمها الشريط الخشبي الذي يلتف أصلاً حول جدران الضريح ويرتفع في أحد جانبي المحراب ليسير فوقه ثم ينزل في الجانب الآخر ليعاود سيره في نفس المستوى الذي كان يسير فيه قبل المحراب[١] .

ثانيا : الزخارف الجصية :

تنفرد القبة المنصورية باشتمالها على ثروة فنية ضخمة من الزخارف الجصية المتقنة قلّ أن تجتمع في صعيد واحد .

وقد توزعت هذه الزخارف في المواضع الآتية :

(١) حسين مصطفى : المرجع السابق ـ ص: ١٤١ ـ ١٤٢ .

(١) زخارف واجهة باب الدخول إلى القبة (لوحة ٣٤) :

تعلو باب الدخول إلى القبة الذي يتوسط الضلع الجنوبي الشرقي للقاعة التي تتقدم القبة ـ وهو في ذات الوقت يتوسط الضلع الشمالي الغربي المواجه لجدار المحراب في القبة نفسها ـ حشوة زخرفية جصية يبلغ اتساعها ٧,٦٠ م وارتفاعها ١٢,٣٠ م .

ويمكن تقسيم زخارف هذه الحشوة إلى قسمين :

القسم الأول السفلي :

وتشغل زخارفه بصفة رئيسية تلك الدخلات المعقودة للنوافذ الثلاث ، أكبرها أوسطها حيث زخرفت حجابها الجص بزخارف هندسية مفرغة ومتنوعة بعض الشيء عن أحجبة زخارف النوافذ الخارجية لهذه المجموعة حيث تضم أشكالاً نجمية ونماذج هندسية ثمانية وسداسية وخماسية ورباعية وزعت توزيعاً هندسياً بديعاً تشهد ببراعة شخصية الفنان الفائقة في هذا العصر .

يحيط بهذا الحجاب الهندسي من الداخل إطار كتابي متكرر لكلمة (الملك) بالخط الكوفي . أما الدخلتان الأخريان فهما متشابهان من حيث المساحة وأحجبتهما المفرغة والتي تضم زخارف هندسية تشبه أحجبة نوافذها واجهة المدرسة ، ويحيط بها إطار ضيق داخلي لخطوط متوازية تشكل بدورها أشكالاً لمثلثات معدولة ومقلوبة بالتبادل وهو يختلف بذلك ودخلة النافذة الوسطى .

يتوج عقود تلك الدخلات الثلاث إطار ضيق تزخرفه عقود نصف دائرية متقاطعة على النمط الأندلسي ، أنهى الفنان قمة عقد كل من الدخلتين الجانبيتين بشكل ميمة شغلت مساحتها الداخلية بخطوط منتظمة شبه هندسية تكون بدورها زخرفة لفظ الجلالة (الله) .

أما عقد الدخلة الوسطى فتنتهي قمته عند بداية الشريط الزخرفي الذي يفصل بين هذا القسم والقسم الثاني العلوي . وشغلت المساحة الوسطى بين تلك الدخلات الثلاث بزخارف نباتية مفرغة وبارزة نجح الفنان في أن يجعلها تحل محل الأعمدة التي تحمل عقودها الثلاث لدرجة أنه أنهى تلك الزخارف من أعلى بربع دائرة تحمل بدورها بداية أرجل كل عقد . وقوام تلك الزخرفة رسم لمروحتين نخيلتين ومتدابرتين بالحفر البارز ومفرغة من الداخل بخطوط نباتية دقيقة وأشكال دائرية ، كما تبدو في أطرافها بأشكال مسننة . ويتكرر هذا العنصر على طول امتداد تلك الساحة بحيث يبدو

عليها أنها تحصر فيما بينها برسم زهرة مسننة دقيقة .

ونفس تلك الوحدة الزخرفية شغلت كوشات هذه العقود الثلاث وإن غلب عليها الطابع الدائري بحكم موقعها بكوشاتها .

يعلو هذا القسم شريط زخرفي نباتي بالحفر البارز الغائر يحده من أعلى إطار ضيق يضم زخارف لأشكال مثلثات مقلوبة ومعدولة بالتبادل ومن أسفل إطار غائر من خطين (جفت) ، قوام زخرفة هذا الشريط وحدات متكررة تشبه العقود الثلاثية مقلوبة ومعدولة بالتبادل شغلت الأخيرة برسوم نباتية مفرغة لفرع نباتي يخرج منه ورقتين متدابرتين من فصين مفرغة من الداخل بخطوط نباتية دقيقة مسننة الحواف، يخرج منها أيضاً فرعين مفرغين بنقاط وخطوط دقيقة يحصران زخارف تشبه هيئة القلوب مسننة الأطراف أيضاً .

والوحدات المقلوبة شغل داخلها برسوم نباتية أكثر دقة من الأخرى قوامها أوراقه كأسية حلزونية القاعدة ومسننة الحواف فرغت من الداخل أيضاً بأشكال منقطة ، يحيط بها أفرع نباتية مفرغة ملتوية يخرج منها أنصاف مراوح نخيلية مفرغة ومسننة الحواف أيضاً . يلي ذلك زخرفة القسم الثاني .

القسم الثاني العلوي :

تتمثل الزخرفة الرئيسية لهذا القسم في دخلة النافذة المعقودة (قندلية بسيطة) غشيت أحجبتها برسوم هندسية رائعة لخطوط ثلاثية متوازية وراسية وأفقية متقاطعة تكون بدورها نماذج هندسية سداسية منتظمة ، يحيط بتلك القندلية عقدين الأول داخلي والثاني خارجي ، ملئت مساحة الأول بزخارف نباتية ذات مستويين متشابهين قوام زخارفها أوراقه نباتية من فص واحد ومن فصين بالإضافة إلى أنصاف مراوح نخيلية يخرج منها أفرع نباتية ملتوية تأخذ الهيئة الدائرية ، هذا وقد فرغت هذه الزخارف من الداخل كما هو الحال في زخارف القسم الأول .

وملئت مساحة العقد الثاني بزخارف نباتية ذات مستويين أيضاً قوامها وحدات متكررة لأشكال ثلاثية بدأها وأنهى أطرافها الفنان بورقتين ثلاثيتين كأسيتين الفصول لكل واحدة منها قاعدة حلزونية يمتاز الفص الأول بكثرة تفريغاته بخطوط مهشرة ومنقطة ، أما بقية المساحة فشغلت برسوم لأوراق نباتية من فص واحد ومن فصين وأنصاف مراوح نخيلية تشبه في زخارفها تلك الموجودة بالقسم الأول . يلي ذلك زخرفة الدخلة المعقودة الخارجية والتي تمتد حتى بداية حشوة هذه الواجهة عند القسم الأول وقد ملئت أيضاً بزخارف نباتية بديعة قوامها ورقة نباتية ثلاثية كأسية

ومحدبة القاعدة . يخرج منها فرعين ليشكلا بدورهما ورقة ثلاثية وهكذا . يحيط بها مروحتين نخيليتين متدابـرتين يخرج من طـرفيهما العلوي والسفلي ورقـة من فص واحد .

ويمتاز هذا التكوين الزخرفي بكثر تفريغاته الداخلية كما هو الحال في الزخارف النباتية السابقة ويحيط بهذه الحشوة شريط خارجي فقدت أجزاءه الأفقية السفلى بينما تجلت روعة الفنان في زخرفة بقية أجزائه الأخرى حيث ضمت أشكالاً متكررة تشبه البخاريات التي تزخرف قباب أضرحة سلاطين وأمراء المماليك خاصـة في العصر المملوكي الجركسي والتي نفذت بمـادة الحجر ، وملئت هـذه البخاريـات بأوراق ثلاثية مفرغة محدبة الحواف حلزونية في قاعدتها يحيط بها مروحتين نخيلتين دقيقتين يخرج منهما أفرع نباتية ملتوية تتشابك مع أوراق أخرى من فص واحد ومن فصين وزعت توزيعاً نباتياً بديعاً ملأت هذا الشريط .

ولم تقتصر زخرفة هذا الشريط حول هذه الحشوة المعقودة فحسب بل امتـد أعلى الواجهات الخارجية للبائكات الثلاث والتي تحيط بالفناء المكشوف يعلوه شريط بارز آخر من الزخارف النباتية يضم أشكالاً متكررة لورقة ثلاثية حلزونية القاعدة يخرج منها فرعين يتقابلان من أعلى ليشكـلا هيئة تشبه القلوب تضم بداخلها تلك الورقة .

وثمة ملاحظة هامة في تلك الزخارف الخاصة بهذه الحشوة وهي بقائها بحالة جيدة يشهد بذلك ترابط وحداتها وأعماق ونسب زخارفها المتنوعة والفضل في ذلك إلى الترميمات الدقيقة والأيدي الصناعية الفذة التي قامت بهذا العمل الضخم وإعادته إلى مـا هو عليـه تحت إشراف عـالم جليل من علمـاء الآثار الإسـلامية (هـرتس باشا)[1] .

(٢) زخارف بواطن وواجهات العقود الثمانية التي تعلو الأعمدة والدعامات (لوحة ٣٥ ـ ٣٦) :

يمكن تقسيم زخارف هذه العقود إلى أربعة تكوينات متنوعة لكل عقدين تكوينين متشابهين ، ويضم باطن كل من العقدين الموجودين بالجهة الجنوبية الشرقية تكويناً زخرفياً قوامه عبارة عن نصفي مروحة نخيلية متقابلين معاً في فرع نباتي حفرت عميقاً ومفرغة من الداخل بخطوط وتهشيرات متوازية يحيط بهذا الباطن إطارين ضيقين من الزخارف المجدولة البارزة ومفرغة من الداخل بأشكال دائرية دقيقة .

---

(١) جمال عبد الرحيم : الزخارف الجصية في عمائر القاهرة الدينية الباقية في العصر المملوكي البحري (ماجستير ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٨٦ م) ، ص: ٩٢ ـ ٩٥ .

أما واجهة العقد فتضم وحدات متكررة الأشكال تشبه البخاريات شغلت مساحاتها الداخلية بوريدات بارزة متراصة بأسلوب زخرفي نباتي مفرغة تشبه تلك الموجودة بكوشات عقود قبة سنقر السعدي أما باقي الساحات المتبقية فقد شغلت بأوراق نباتية بارزة ومفرغة الداخل برسوم نباتية ، كما تمتاز الأوراق أيضاً بأنها حلزونية ومحزوزة القاعدة ومحدبة الحواف .

يحيط بهذه الواجهة إطارين ضيقين العلوي يضم زخارف نباتية بارزة متكررة لورقة من فصين مفرغة ومخرمة من الداخل برسوم مهشرة نباتية . والسفلى يضم زخارف هندسية لخطين متوازيين متقابلين عند أحد طرفيهما بحيث تشبه أشكال (الدالات) .

وعقدين الجهة الشمالية الغربية الباطن يضم وحدات متكررة لأشكال هندسية مربعة قريبة الشبه إلى النباتية تتصل بعضها ببعض برسوم لميمات ، ملئت مساحاتها الداخلية برسوم وريدات مزدوجة الخطوط يخرج من أطرافها ثماني أوراق نباتية مفرغة من فص واحد ، في منتصف تلك الوريدات رسوم هندسية بديعة ودقيقة لأطباق نجمية مفرغة وغير متكاملة هندسياً، وبقية الساحة الخاصة بهذا الباطن فزخرفت برسوم نباتية مزدوجة الخطوط تتصل في حد ذاتها برسوم الوريدات الموجودة بداخل الأشكال المربعة السابقة ، قوام تلك الزخارف أوراق نباتية من فص واحد ومن فصين تتشابك مع أضفاف مراوح نخيلية مفرغة من الداخل برسوم دقيقة تهشيرات وخطوط متوازية وأشكال دائرية . يحيط بهذا الباطن إطارين بارزين ضيقين متشابهين قوام زخارفهما رسوم هندسية مجدولة مفرغة ومخرمة من الداخل ، أما واجهة العقد فقد شغلت بزخارف نباتية بارزة مزدوجة الخطوط ومفرغة الداخل أيضاً ، وذلك على مستويين قوامها مروحتين نخيليتين متدابرتين أنهى الفنان طرفيهما بورقة نباتية من فص واحد فرغت وخرمت من الداخل بخطوط ونقاط دائرية مسننة الحواف .

وقد أبرز الفنان زخارفه هذه بأنه أحاط بها رسوم لأشكال مفصصة ثلاثية مقلوبة ومعدولة بالتبادل إلى حد كبير ورقة نباتية ثلاثية الفصوص على الطراز والنمط الأندلسي .

يحيط بتلك الواجهة من أعلى وأسفل إطارين بارزين ضيقين العلوي منهما يضم زخارف نباتية بارزة لأوراق نباتية متكررة من فصين كما هو الحال في العقدين السابقين ، والسفلي منها يضم أيضاً زخارف مجدولة مفرغة .

وعقدين الجهة الشمالية الشرقية الباطن يضم زخارف نباتية بارزة ومزدوجة

الخطوط على مستويين قوامهما مروحتين نخيليتين متدابرتين تتشابك مع أوراق نباتية ملتوية يخرج منها أوراق من فص واحد ومن فصين مخرمة من الداخل كما سبق القول في زخارف العقود السابقة .

يحيط بهذا التكوين الزخرفي إطارين بارزين ضيقين لرسوم هندسية قوامها أشكال مجدولة مفرغة أيضاً .

أما واجهة العقد فتضم تكويناً زخرفياً نباتياً على ثلاث مستويات مزدوجة الخطوط ومفرغة من الداخل برسوم على شكل خطوط متوازية وأشكال مخرمة منقطة . قوام زخرفة المستوى الأول السفلي نصفي مروحة نخيلية متقابلين يخرج من أطرافهما مروحتين نخيليتين كبيرتين ومتقابلين يشكلان بدورهما زخارف المستوى الثاني ، أنهى الفنان طرفيهما العلوي بورقة ثلاثية كأسها حلزوني يمثل في نفس الوقت أطراف كل مروحة نخيلية ، أما زخرفة المستوى الثالث فتضم رسوم نباتية لا فرع ملتوية يخرج منها أوراق من فص واحد ومن فصين ذات تأثير أندلسي .

يحيط بهذه الواجهة إطارين بارزين ضيقين تشبه زخارفهما الإطارات المحيطة بواجهات تلك العقود الثمانية .

وأخيراً وليس آخراً عقدي الجهة الجنوبية الغربية الباطن يضم زخارف نباتية ذات مستويين تشبه بواطن وعقود العقود السابقة ، فتضم زخارف هذا الباطن أنصاف مراوح نخيلية تتشابك مع أوراق من فص واحد ومن فصين عن طريق أفرع نباتية ملتوية تمتد على طول واتساع هذا الباطن ، يحيط به إطارين ضيقين من الزخارف المجدولة البارزة والمفرغة من الداخل .

وبالنسبة لواجهة العقد فيضم زخارف نباتية على ثلاثة مستويات تبدو كأنها صفوف من الأضلاع والتفريعات تشبه زخارف عقدي الواجهة الشمالية الغربية .

وإن كان وجه الاختلاف يتحدد في الرسوم البارزة التي تحيط المروحتين النخيليتين فهي عبارة عن وحدات متكررة لأشكال تشبه البخاريات ونفس تلك الزخرفة تقريباً زخرفت بها بعض زخارف الوجهة المعقودة التي تتقدم واجهة الضريح . يحيط بتلك الواجهة إطارين ضيقين من أعلى وأسفل الأول نباتي تتشابه أيضاً مع الإطارات التي تحيط بالعقود السابقة ، والثاني سفلي يتشابه مع الإطارات السابقة والتي تضم زخارف هندسية مجدولة مفرغة ومخرمة من الداخل[1] .

---

(١) جمال عبد الرحيم : المرجع السابق ـ ص: ٩٦ ـ ٩٨ .

(٣) زخارف العقود الثمانية التي تمتد فيما بين الأعمدة والدعامات وبين الجدران الداخلية :

وزعت زخارف هذه العقود توزيعاً زخرفياً متشابهاً لكل عقدين متجاورين في كل جهة من الجهات الأربعة ، وذلك من حيث زخارف بواطنها ، بينما زخارف واجهاتها تتشابه مع زخارف واجهات العقود السابقة .

وثمة ملاحظة على زخارف بواطن تلك العقود ، وهي أنها تمثل حصيلة متنوعة ومتكررة من الزخارف النباتية والهندسية التي تضمها القبة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إحساس الفنان بالهروب من الملل الناتج عن تكرار القوالب الصناعية لتلك الزخارف ، مبيناً بذلك صفة التجويد والإبداع الحقيقي الغير مملة .

ويضم باطن العقدين الموجودين بالجهة الشمالية الفردية أوراقاً نباتية ثلاثية القصوص ذات قاعدة كأسية محزوزة ومهشرة ، مفرغة من الداخل بزخارف نباتية وخطوط ملتوية مفرغة ، يخرج منها فرعين نباتيين يتشابك كل منهما مع نصف مروحة نخيلية في وضع متدابر يحصران بداخلهما الورقة النباتية السابقة ويتكرر هذا التكوين المفرغ على طول واتساع باطن كل عقد . والعقدين اللذين بالجهة الجنوبية الغربية ، تضم زخارفهما في باطن كل عقد مساحتين مستطيلتين لهما بدايات ونهايات حلزونية ولكنهما يتقابلان في منتصف الباطن على شكل ميسة حلزونية الشكل أيضاً ، شغلت تلك المستطيلات بزخارف نباتية بارزة ومفرغة على مستويين قوائمها أوراق نباتية ثلاثية الفصوص بارزة ومخرمة أيضاً ، يخرج منها فرعين يتقابلان مع نصفي مروحة نخيلية يحصران تلك الورقة النباتية من فص واحد ومن فصين . والعقدين اللتين بالجهة الجنوبية الشرقية فتضم زخارفهما في كل باطن مساحتين مستطيلتين متقابلتين في المنتصف بشكل ميمة بداخلها رسم وريدة ثمانية البتلات ذات نمط هندسي عنه نباتي ، كما أن لهما نهايات حلزونية الشكل شغلت بداخل كل مستطيل أوراق ثلاثية على مستويين من الزخارف خرمت من الداخل برسوم نباتية وخطوط مهشرة دقيقة يحيط بتلك الورقة نصفي مروحة نخيلية خرمت من الداخل برسوم بيضاوية تمتد حتى المستوى الثاني والعقدين اللذين بالجهة الشمالية الشرقية ، فتضم زخارف كل باطن وحدتين هندسيتين على شكل مستطيل لها بدايات حلزونية مفصصة يتقابلان في الوسط بشكل ميمية رسم بداخلها وريدة من ثماني بتلات يحيط بها إطار ضيق من زخرفة الدقماق . وشغلت المساحات المتبقية بزخارف نباتية بارزة مخرمة على نمط

الزخارف السابقة وقوامها أوراق من فص واحد ومن فصين تتشابك مع أنصاف مراوح وأفرع نباتية ملتوية[1] .

الواجهات (لوحة ٣٧ ـ ٣٨، ٥٥) :

لهذه القبة واجهة رئيسية واحدة تطل على شارع المعز لدين الله وهي الواجهة الجنوبية الشرقية .

ويبلغ طول هذه الواجهة ـ بما في ذلك المئذنة الملاصقة لها ـ ٣٥,١٢ م ، ويبلغ ارتفاعها ٢٠,٢٥ م وذلك من مستوى أرضية الشارع حتى قمة الشرافات المتوجه للواجهة .

وتشتمل هذه الواجهة على ثمانية دخلات غير عميقة معقودة بعقود مدببة ترتكز على أكتاف بارزة قليلاً أسفل كل كتف منها عمود رخامي مستدير ذي تاج كورنيش ودخلتين من هذه الدخلات الثمانية كبيرتين وهما الدخلة الثالثة والسادسة وبأسفل كل دخلة ـ فيما عدا الدخلة الثالثة والدخلتين السابعة والثامنة أسفل المئذنة ـ شباك ذي مصبعات ، يليه طراز كتابي بخط الثلث الملوكي يتضمن النص التأسيسي للمجموعة كلها ، ويبدأ هذا الطراز من الطرف الشرقي لهذه الواجهة ويستمر عليها وعلى كتلة المدخل وعلى واجهة المدرسة حتى ينتهي بالطرف الجنوبي لواجهة المدرسة .

ويذكر المقريزي أن هذا الطراز كان مذهباً ، وقد قام بتجديده الأمير جمال الدين أقوشي نائب الكرك حينما تولى نظر المارستان[2] .

يلي هذا الطراز دخلة صغيرة معقودة بعقد مدبب تحوي داخلها قمرية مطاولة مفشاة بحجاب من الجص المفرغ .

ويلي ذلك قندلية بسيطة عبارة عن قمريتين مطاولتين متجاورتين يتوسط أعلاهما قمرية مستديرة ، وقد ميزت قندلية الدخلة الثالثة ـ مما يلي كتلة المدخل ـ بوضعها في دخلة معقودة ترتكز على عمودين مدمجين ، وذلك أسفل عقد الدخلة الكبرى نفسها ، وجميع هذه القندليات مفشاة بأحجية جصية مفرغة .

---

(١) جمال عبد الرحيم : المرجع السابق ـ ص: ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٢) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٧ .

ويضيف المقريزي فيذكر أن الأمير جمال الدين المذكور قد «نحت الحجارة المبني بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة» . نفس المصدر والصفحة .

هذا ويتوج الواجهة كلها صف من الشرفات المسننة ، زين وجهها بالزخارف النباتية الدقيقة البارزة والمفرغة ، ومن الطبيعي أن هذا الأسلوب قد ساعد على إظهار هذه الزخارف وإبراز جمال الشرفات ، وقد نتج ذلك من التناقض بين الظل والضوء ، فانعكاس الضوء على الجزء البارز والظل على الجزء الغائر ساعد على إبراز هذه الزخارف وإظهار جمال الشرفات (لوحة ٤١) .

زخارف أحجبة القمريات والقندليات :

سبق القول أنه يفشي القمريات والقندليات بهذه الواجهة أحجبة من الجص المفرغ ، وقد زينت تلك الأحجبة بزخارف يغلب عليها الطابع الهندسي خاصة زخرفة الطبق النجمي وما يحيط به من أشكال خماسية وسداسية وثمانية رسمت بأسس هندسية مدروسة .

وعلى الرغم من تشابه زخارف تلك الأحجبة وبوجه خاص أحجبة القندليات البسيطة ، إلا أن الفنان حاول وبصورة جيدة أن يمتع الرائي لها عن طريق بعدها عن الروح المتكررة المملة الناتجة من استعمال القالب الزخرفي وقد نجح في ذلك عن طريق صنع أحجبة ذات زخارف هندسية صغيرة ودقيقة بعض الشيء عن السابقة إلا أنه أضاف إليها أوراق ثلاثية كأسية الشكل ومفرغة البتلات بأشكال دائرية دقيقة وذلك داخل وحدات دائرية متعددة مفرغة أيضاً يغلب عليها الطابع الهندسي ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن تنوع القوالب قد ساعد على إظهار التجويد والإبداع الزخرفي الحقيقي الغير متكرر وهذا ما يمتاز به الفن الإسلامي .

وثمة ملاحظة في زخارف أحجبة القمريات المطاولة وهي أنه يظهر فيها زخرفة الطبق النجمي بصورة واضحة كما هو مرسوم وشائع على زخارف الأخشاب والمعادن المملوكية ، وهذا ليس موجوداً بأحجبة القندليات ، كذلك فإنه يحيط بتلك القمريات إطار خارجي ضيق في الزخارف القباتية قوامها أنصاف مراوح نخيلية متكررة مفرغة الداخل بخطوط نباتية دقيقة ومسننة الحواف تنتهي عند قمته بفرع نباتي يخرج منه ورقة نباتية من فصين .

وهي تشبه في ذلك الإطارات الخارجية التي تحيط بنوافذ قبة سنقر السعدي (حسن صدقة) ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م من الخارج[١] .

---

(١) جمال عبد الرحيم : المرجع السابق ـ ص: ٩٠ ـ ٩١ .

المئذنة (لوحة ٣٩ ـ ٤٠ ، ٥٥) :

تقع المئذنة في الطرف الشرقي من الواجهة ، وهي تتكون من ثلاثة أبدان الأول والثاني منهما مربع والثالث مستدير ثم القمة ، ويبلغ الارتفاع الكلي لها من مستوى أرضية الشارع ٥٦,٢٠ م [١] .

ويبلغ ارتفاع البدن المربع الأول ١٣,٩٠ م ، وبكل ضلع من أضلاعه دخلة معقودة بعقد حدوة فرس مستدير يرتكز على عمودين مدمجين أسفلهما صف من المقرنصات ، ويتوسط كل عقد من هذه العقود قمرية مستديرة .

ويعلو هذه العقود الأربعة مناطق غائرة تنتهي من جانبيها بهيئة مفصصة وتحوي هذه المناطق نص تجديد المئذنة في عهد الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٣ هـ ـ ١٣٠٣ م ، وذلك عقب سقوطها إثر زلزال ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م [٢] .

ويلي هذه المناطق الغائرة حطات من المقرنصات تحمل الشرفة الأولى التي تلتف حول البدن المربع الثاني ، وهو أقصر من البدن الأول حيث يبلغ ارتفاعه ٩,٢٥م، وبكل ضلع من أضلاع هذا البدن دخلة معقودة بعقد حدوة فرس مدبب يرتكز على عمودين مدمجين ، وقد زين باطن العقد وحوافه بصنجات على هيئة مخدات متلاصقة .

ويتوسط كل عقد نافذة توأمية ، ويعلو كل عقد من هذه العقد صف من الباثكات ذات عقود ثلاثية مفصصة ترتكز على دعامات .

يلي ذلك الشرفة الثانية التي تلتف حول البدن الثالث المستدير ويبلغ ارتفاعه مع القمة التي تعلوه ١٤,٥٠ م ويزين هذا البدن زخارف جصية رائعة قوامها مجموعة من أشكال عقود متقاطعة ترتكز على أعمدة مدمجة بالبدن وقد شغل ما بين هذه العقود بزخارف مفرغة دقيقة .

وتنتهي هذه العقود من أعلاها بهيئة جفت ذو قيمة ، يلي ذلك منطقة غائرة كانت تضم شريط كتابي تفصل بين أجزائه دوائر ذات زخارف مفرغة ما تزال باقية ، أما الشريط الكتابي فلم يعد باقياً منه شيء .

---

(١) اعتمدنا في ذكر هذه المقاسات على ما أورده (البروفيسور كريزول) .

Creswell, OP-Cit P. 195.

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، ص: ١١٦ ـ ١١٧ .

ويعلو هذا البدن المستدير القمة وتتخللها مجموعة من عصي القناديل ، وتخرج من هذه القمة القائم ذي انتفاخات يتوسط أعلاه هلال .

ومن الواضح أن هذه القمة مجددة إذ أنها لا تتناسب مع طراز المئذنة .

وتجدر الإشارة إلى ما ذكرته أستاذتنا الدكتورة /سعاد ماهر من أنه كانت لهذه المئذنة أهمية خاصة في العصور الوسطى إذا كان قاضي القضاة يعلن رؤية هلال رمضان من فوقها[1] .

---

(١) سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٣ ـ ص: ٧٣ .

الفصـــل الثالث

المدرسة المنصورية

تعد المدرسة المنصورية واحدة من أروع المدارس المملوكية التي شيدت بمدينة القاهرة سواء في تخطيطها المعماري ـ وخاصة تخطيط إيوان القبلة الذي لم يتكرر كثيراً في العمارة الإسلامية في مصر ـ أو في تنوع ودقة زخارفها الجهبية والرخامية .

وإن كانت هذه المدرسة قد تعرضت للكثير من معالم التغيير والتجديد مما أفقدها طابعها المعماري والزخرفي الأصيل ، إلا أنه بفضل وثيقة الوقف ، التي اكتشفت ونشرت مؤخراً[1] ، وما ورد بها من وصف تفصيلي صادق لأدق التفاصيل المعمارية والزخرفية ، نستطيع أن نتعرف على الصورة الحقيقية التي كانت عليها المدرسة وقت إنشائها سواء من حيث التخطيط المعماري أو العناصر المعمارية والتفاصيل الزخرفية الدقيقة .

ويمكن ، على ضوء ما يتم التوصل إليه من حقائق ، استكمال مشروع ترميم المدرسة وإعادتها إلى سالف مجدها وفقاً للأسلوب العلمي الصحيح .

المدخل الأصلي للمدرسة (أشكال ٥ ـ ٧) :

يقع هذا المدخل في الطرف الغربي من الضلع الجنوبي الغربي للدهليز الكبير المتفرع من كتلة المدخل العام للمجموعة كلها ، وذلك في مواجهة مدخل القبة ويقع هذا المدخل في دخلة على جانبيها جلستين صغيرتين ، ويتوج الدخلة عقد

---

(١) قام بنشر هذه الوثيقة ودراستها : محمد سيف النصر أبو الفتوح : مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين بالقاهرة ـ دراسة أثرية في ضوء وثيقة جديدة (مجلة كلية الآداب ـ جامعة صنعاء ـ اليمن ١٩٨٤ م) ص: ٧٧ ـ ١٢٩ .

نصف دائري باطنه وواجهته بصنجات على هيئة مخدات متلاصقة[1] وعلى ذلك فيشبه مدخل القبة المقابل له والسابق الإشارة إليه . ويتوسط الدخلة باب الدخول ، ويؤدي إلى دركاة صغيرة مفروشة الأرض بالرخام الملون وعلى يمين الداخل شباك مغشى بمصبعات حديدية ، وبصدر الدركاة (في مواجهة باب الدخول) شباك يفتح على الإيوان الشمالي الغربي المقابل لإيوان القبلة ، ويوجد على يسار الدركاة باب معقود يفتح على دهليز صغير مفروش الأرض بالرخام الأبيض ، وبهذا الدهليز بابان أحدهما على اليسار يؤدي إلى سلم صاعد يوصل إلى المساكن العلوية للطلبة ، والباب الآخر بصدر الدهليز ويفضي إلى دور قاعة[2] (صحن) المدرسة .

وما زالت الدركاة[3] باقية وإن كانت بحالة سيئة للغاية فقد تهدم سقفها واختفت منها التكسيات الرخامية ، كما أن السلم الصاعد إلى المساكن العلوية قد تهدم ولم يعد بناؤه مرة أخرى[4] .

---

(١) جاء بالوثيقة أن المدخل معقود بالحجر النحيت ولما كان شكل العقد الذي يتوج فتحه المدخل الآن وطريقة زخرفية باستعمال الأشكال السداسية بالسلسلة لا يوافق الطراز الذي ساد في العصر المملوكي ولم يظهر إلا في العمائر العثمانية ، وفي ضوء ذلك ربما جرت على المدخل تعديلات إما على يد الأمير عبد الرحمن كتخدا ١١٩٠ هـ/ ١٧٧٦ ـ ١٧٧٧ م أو الأمير أحمد باشا طاهر ١٢٤٨ هـ/١٨٢٣ م والذي ذكر (ولكنسون) أنه رأى كتابه تشير إليه فوق مدخل البيمارستان لا أثر لها اليوم .
محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ٨٩ ، ١٢٣ هامش ٨ .
Creswell, Op - Cit, P. 192

(٢) الدور قاعة : يطلق هذا اللفظ على المساحة المنخفضة التي تتوسط الإيوانات في المنشآت الدينية كالمدارس أو المدينة كالمنازل والقصور ، سواء أكانت إيوانين متقابلين أو أربعة إيوانات متعامدة ، وهي إما مسقفة ، وهو القالب ، وإما مكشوفة سماوية كما هو الحال في مدرسة قلاوون وجامع المؤيد شيخ حيث أطلقت الوثيقة أيضاً على صحن الجامع الكبير المتسع والمكشوف لفظ دور قاعة .
سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٤ ـ ص: ٥٢٤ .
محمد مصطفى نجيب : نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة ص: ٢٤ ـ ٢٥ هامش ٢ .

(٣) لم يشر (كريزول) إلى الوحدات المختلفة التي تتكون منها الدركاة ، بل واعتبرها حجرة مكشوفة غير منتظمة الشكل يتوصل إليها من الدهليز الكبير ، إلا أنه من ناحية أخرى قد أشار إلى السلم الصاعد للحجرات العلوية .
Creswell, Op - Cit, P. 196.

(٤) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ٨٩ .

وصف المدرسة من الداخل :

يتضح مما جاء بحجة وقف المدرسة أنها كانت تتكون من دور قاعة وسطى يحيط بها إيوانين كبيران ، هما إيوان القبلة والمقابل له ، وإيوانان صغيران أطلقت عليهما الوثيقة اسم صفتين لصغر مساحتيهما، وهما الإيوان الجنوبي والغربي والشمالي الشرقي ، وقد تغيرت معالمهما تماماً وبخاصة الإيوان الجنوبي الغربي .

ونستعرض فيما يلي الوصف التفصيلي للمدرسة في ضوء ما ورد بحجة الوقف مقروناً بما هو موجود بالفعل من وحدات وعناصر المدرسة حتى الآن .

(١) الدورقاعة (لوحة ٤٨)، (شكل ٥ ، ٧) :

أطلقت الوثيقة على الصحن الذي يتوسط إيوانات المدرسة لفظ دور قاعة ، وهي عبارة عن مساحة مكشوفة مستطيلة تبلغ ½ ٢٠ × ١٧م، وكان يتوسطها فسقية مثمنة فرشت أرضيتها بالبلاط ، وكسيت من الخارج هي والكرسي الداير بها بالرخام الملون وكان يوجد بوسط الفسقية « عمود رخام تعلوه نوفرة رخام كبيرة مشجرة مذهبة وبلبلة . . . »[١] .

كذلك كانت أرضية الدور قاعة نفسها مفروشة بالرخام الملون والبسط والمراتب والأتراس والقمريات والبيكاريات .

وكان يفتح على الدور قاعة ستة عشر باباً متجاورة علاوة على فتحات الإيوانين والصفتين ، كما كان يعلو هذه الأبواب ظلة خشبية مدهونة محمولة على كرادي من الخشب المدهون أيضاً ، تعلوها شرفات وميازيب لتصريف مياه الأمطار[٢] .

(٢) إيوان القبلة (الإيوان الجنوبي الشرقي) (أشكال ٥ ـ ٧) :

يتكون هذا الإيوان من مساحة مستطيلة الشكل تبلغ ½ ١٧ × ½ ١٥ م وقد

---

(١) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١٥ ـ سطر ٨٨ ـ ٩٠ .

وهذا وتجدر الإشارة إلى أن حفائر هيئة الآثار المصرية في مارس ١٩٧١ م قد كشفت في هذه الدور قاعة عن وجود أساسات هذه الفسقية المثمنة والأنابيب الفخارية التي كانت من مقسم المياه إلى هذه الفسقية وغيرها ، كمن كشفت عن بقايا أساسات مباني أقدم ربما ترجع إلى بقايا القصر الغربي الفاطمي .

نفس المرجع ـ ص: ١٢٦ ـ هامش ٣٤ .

راجع أيضاً أمال العمري : موارد المياه وتوزيعها في بعض المنشآت الدينية السلطانية بمدينة القاهرة ـ (مجلة كلية آداب سوهاج ـ جامعة أسيوط ـ العدد ٧ ـ ١٩٨٨م) ص:٢٩٢، شكل ١ .

(٢) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١٠٣ .

قسمت هذه المساحة بواسطة بائكتين ،تسير عقودهما عمودية على جدار القبلة ، إلى ثلاثة أروقة أوسطها أكبرها وأهمها حيث يبلغ اتساعه ٩ م ، أما الرواقين الجانبيين (الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي) فيبلغ اتساع كل رواق منهما $\frac{1}{2}$ ٣ م[١] (لوحة ٤٢ ـ ٤٣) .

وتتكون كل بائكة من ثلاثة أعمدة مستديرة من الجرانيت الوردي اللون ترتكز على قاعدة من الرخام الأبيض ، أما التاج فكورنتي وتعلوه قاعدة من الرخام الأبيض كذلك وقد أشارت الوثيقة إلى أن هذه القواعد السفلية والعلوية كانت مفرقة بالذهب[٢] (لوحة ٤٤) .

ويلي القواعد العلوية دعامات مستطيلة تمتد مسافة ٤ م أعلى كل عمود من الأعمدة الستة وقد أطلقت عليها الوثيقة اسم « أركان بنيان مضعفة »[٣] (لوحة ٤٤ ـ ٤٥) .

كما ذكرت أنه بواجهة «كل ركن منهما من علوه عموداً رخاماً علوه وتر خشب وأصل إلى ما يحاذيه من الجهة المقابلة له مدهون . . »[٤] .

ويستدل من هذا النص الهام على أنه كانت تمتد من الكوابيل التي تعلو هذه الأعمدة ، والتي ما تزال باقية لليوم ، أوتار (أربطة) خشبية فيما بين البائكتين ، كتلك الأوتار التي ما تزال باقية ببداية الدعامات المستطيلة التي تعلو القواعد الرخامية التي تلي تيجان الأعمدة .

---

(١) أشار البروفيسور (كريزول) إلى أن هذا التخطيط يشبه التخطيط البازيليكي المكون من ثلاثة أروقة أوسطها أوسعها .

Creswell, Op - Cit, P. 196.

(٢) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١١ ـ سطر ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) نفس المرجع والصفحة ـ سطر ٢٤ .

وتجدر الإشارة إلى أنه قد جانب (الدكتور سيف النصر) الصواب حيث ذكر أن المقصود (بأركان بنيان مضعفة) هو كوشات العقود أي المساحة المحصورة على جانبي كل عقدين متجاورين من قمة العقد إلى نهايته .

نفس المرجع : ص: ١١٨ ـ هامش ٨ .

والصحيح أنه يقصد بهذا اللفظ الدعامات المستطيلة التي تمتد مسافة ٤ م أعلى الأعمدة .

(٤) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١١ ـ سطر ٢٥ ـ ٢٦ .

وفي ضوء الاستنتاج السابق لا يصح مطلقاً القول بأن هذه الكوابيل كانت تحمل عقوداً مستعرضة أسفل سقف الرواق الأوسط[1] .

أما عقود هاتين البائكتين ، فهي عقود مدببة ، ترتفع فوق الدعامات المستطيلة السابق الإشارة إليها ، ويعلو قمة كل عقد من العقود قمرية[2] مستديرة يعلوها شباكين مستطيلين[3] أسفل السقف مباشرة .

---

(١) أشار إلى هذا الرأي بعض العلماء والباحثين ، ومنهم المهندس محمود أحمد ، وأشار إلى رأيه الأستاذ حسن عبد الوهاب ، الذي ذكر بأن الكوابيل الموجودة كانت تحمل عقوداً في باطن القبو الذي كان يسقف الرواق الأوسط من إيوان القبلة .
حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ـ جـ ١ ـ ص: ١٢٠ .
أما الدكتور (سيف النصر) فقد أشار إلى أنه كانت توجد فيما بين البائكتين العموديتين أربعة عقود مستعرضة تعلو فوق مستوى عقد البائكتين لتحمل سقف الرواق الأوسط وترتكز على حرمدانات تحملها أعمدة صغيرة ملتصقة بكوشات عقود هاتين البائكتين ، وتنتهي أرجل العقود الأربعة المستعرضة أعلى مستوى قمة عقود البائكتين .
محمد سيف النصر : الوجه السابق ـ ص: ٩٣ .

(٢) القمريات : ومفردها قمرية وهو المصطلح السائد استعماله في وثائق العصر المملوكي وهي شبابيك من الجص المخرم أو الحجر أو الخشب أحياناً توضع في أشناد ومفردها شند وهي الفتحة التي توضع في حوائط المبنى لتوضع القمرية فيها ، وكانت هـذه الفتحة تغـطى من الخارج بشريط أو شبكة من النحاس .
والقمرية إما مستديرة مدورة أو مستطيلة مطاولة مقنطرة (معقودة) على حد تعبير بعض الوثائق ، ويطلق على المجموعة من القمريات لفظ قندلية أو قندلون والجمع قندليات .
عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق في خدمة الآثار ـ ص: ٢٥٣ هامش ٢ ، ص: ٢٧٠ هامش ٢ .
ويمكن تقسيم هذه القمريات والقندليات إلى أربعة أنواع وذلك على النحو التالي :
(أ) قمرية مستديرة أو مدورة .
(ب) قمرية واحدة مطاولة وتكون عبارة عن فتحة مستطيلة مقنطرة أي معقودة بعقد مـدبب أو نصف دائري أو حدوة فرس .
(جـ) قندلية بسيطة وتتكون من قمريتين مطاولتين متجاورتين تعلوهما قمـرية مستـديرة ، وفي بعض الأحيان لا توجد القمرية المستديرة .
(د) قندلية مركبة وتتكون من ثلاث قمريات مطاولة متجاورة تعلوها ثلاث قمريات مستديرة .
محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة ـ ص: ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

(٣) لم يرد في الوثيقة ذكر لهذه الشبابيك ، وعلى ذلك يبدو أنها ترجع إلى الفترة التي تم تجديد السقف خلالها على يد إما الأمير عبد الرحمن كتخدا ، أو الأمير أحمد باشا طاهر ، وقد سبقت الإشارة إلى تاريخ تجديد المنشأة في عهدهما .

ويتوسط صدر الرواق الأوسط المحراب ويجاوره منبر بسيط (لوحة ٤٧)، لا يرجع إلى عصر الإنشاء ، وإنما أضافه الأمير أزبك من ططخ ٨٨٩ هـ/ ١٤٩٤ م أثناء عمارته للمدرسة كما أضاف قبة أعلى فسقية الصحن (الدورقاعة)[١] .

ويوجد على جانبي المحراب أربعة دخلات بواقع دخلتين بكل جانب ، وبنهاية كل دخلة منهما شباك تعلوه قمرية مطاولة ، ويعلو كل دخلة أخرى معقودة بعقد مدبب بنهايتها قندلية بسيطة ، وهذه الشبابيك وتلك القمريات والقندليات تشرف على شارع المعز لدين الله .

وتوجد بالضلع الجنوبي الغربي أيضاً أربعة دخلات معقودة بعقد مدبب بنهاية كل دخلة منها حالياً شباك تعلوه قمرية مطاولة ، أما قديماً فقد كان يوجد شباكين فقط وخزانتين لحفظ الكتب[٢] ، وبأعلى كل دخلة دخلة أخرى معقودة بنفس العقد تتوسطها قندلية بسيطة أسفل السقف ، وتشرف هذه الشبابيك وتلك القمريات والقندليات على الطريق الموصل حالياً لداخل مستشفى قلاوون الرمدي والذي كان يشغله قديماً القيسارية كما سبقت الإشارة لذلك[٣] .

وبالضلع الشمالي الشرقي من الإيوان توجد أربع دخلات تشبه الدخلات المقابلة لها ، وبنهاية دخلتين منهما شباكين يشرفان على كتلة المدخل الرئيسي للمجموعة كلها ، أما الدخلتين الأخريين ففيهما خزانتين لحفظ الكتب[٤] .

هذا ويشرف الرواق الأوسط على دورقاعة المدرسة من خلال بائكة ، من مستويين ، ذات ثلاثة عقود مدببة ممتدة (لوحة ٤٣ ـ ٤٣).

أوسطها أكبرها وأوسعها حيث يرتكز على عمودين مستديرين من الرخام ذي قواعد رخامية مربعة وتيجان كورنشية ، أما العقدين الآخرين مضفيرين ويرتكزان أيضاً على العمودين من ناحية وعلى الجدران من ناحية أخرى .

---

(١) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ـ ص: ١٢١ .
سعاد ماهر : مساجد مصر ـ جـ ٣ ـ ص: ٧٠ .
(٢) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١٢ ـ سطر ٥٣ ـ ٥٥ .
(٣) راجع ص: ٥٢ ، ٧١ من الباب الأول .
(٤) محمد سيف النصر : المرجع السابق ص: ١١٢ سطر ٥٣ ، ١١٣ سطر ٥٦ ـ ٥٨ .

ويشغل المستوى الثاني ثلاث عقود أخرى مماثلة ، يعلو قمة العقد الأوسط منها قمرية مستديرة ، ويتوج هذا التكوين ككل عقد كبير مدبب بارز قليلاً يرتكز على حرمدانين ، وينتهي هذا العقد الكبير عند بداية (أرجل) عقود المستوى الثاني .

أما بالنسبة للرواقين الجانبيين ـ وهما الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي فيشرفان على الدورقاعة من خلال باب مربع (أي غير معقود) تعلوه قمريتين مطاولتين معقودتين بعقد مدبب تعلو إحداهما الأخرى ، وقد فقدتا أحجبتهما الجصية ذات الزخارف المفرغة والمعشقة بالزجاج الملون .

المحراب (لوحة ٤٧) :

تتوسط حنبة المحراب دخلة بوسط صدر الرواق الأوسط من إيوان القبلة واتساع هذه الدخلة ٢٦٧ سم وعمقها ٤٤ سم ، ونظراً للسمك الكبير لجدار القبلة فقد استوعبت حنيته كاملة داخله دون حاجة إلى عمل بروز خارجي خلفها ، ومسقطها على هيئة العقد حدوة الفرس اتساعه ١٦٥ سم وعمقه ١٢٧ سم .

يكتنف ركني الدخلة عمودان كل منهما ذو بدن أسطوانى الشكل من الرخام المجزع وله تاج كورنشكي وقاعدة دائرية وضعت على كتلة رخامية ارتفاعها حوالي ٦١ سم ، وهذه الكتلة منفذ بها منطقة تبدو وكأنها كانت معدة لكي يكتب فيها أو لتزخرف ولكن هذه الزخرفة لم تتم[١] ، وهذه الكتلة يرتكز على كتلة أخرى ارتفاعها ٣٠ سم ولعل ذلك يعود إلى قصر العمود نفسه ، وهذا يدل على أن كل منهما لم يصنع أصلاً لهذا المحراب وإنما نقلا إليه من أحد المباني القديمة ، يؤكد ذلك ما ورد في المصادر التاريخية من أن المنصور قلاوون قد نقل من قلعة الروضة ما يحتاج إليه في عمد الصوان وعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك[٢] .

ويحمل هذان العمودان عقداً حدوياً ، يعتبر في نفس الوقت عقد واجهة طاقية المحراب .

وتجدر الإشارة إلى أن استخدام العقد الحدوي في قمة المحراب يعد تطابقاً

---

(١) تذكر الوثيقة أن هذه القواعد الرخامية مفرقة بالذهب .
محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١٢ ـ سطر ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ـ جـ ٤ ـ ص: ١١٠ .
المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٧ .
ابن إياس : بدائع الزهور ـ جـ ١ ق ١ ـ ص: ٣٥٣ .

مع مسقطه ، كما أن هذا العقد لا يرتكز مباشرة على العمودين ، وإنما على حزء من كتف الجدر نأولاً . . ويلاحظ كذلك أن قمة العقد تفصل بين توشيحتيه[1] . ويعلو المحراب لوحاً رخامياً يتضمن تاريخ البدء والفراغ من عمارة المدرسة فضلاً عن ألقاب السلطان قلاوون وتذكر الوثيقة أن هذا اللوح كان مفرقاً بالذهب[2] .

الأسقف :

شغل موضوع تسقيف إيوان القبلة جانباً كبيراً من اهتمام علماء الآثار ، وأدلى كل منهم بدلوه في الصدد ، ومن بين هؤلاء (هركس باشا) باشمهندس لجتة حفظ الآثار العربية الذي وضع مشروعاً لإعادة بناء سقف الرواق الأوسط من إيوان القبلة وقد تخيله على هيئة قبو برميلي من الخشب[3] . (شكل ٨) .

ومنهم الأستاذ (حسن عبد الوهاب) الذي أيد رأي المهندس (محمود أحمد) في أنه كان يسقف هذا الرواق قبو معقود وأن الكوابيل الموجودة ، التي سبقت الإشارة إليها ، كانت تحمل عقوداً في باطن هذا القبو[4] .

والواقع أن الوثيقة قد حسمت هذا الموضوع إذ يتضح منها أنه كان يسقف هذا الرواق سقف خشبي مسطح نقياً ، كانت تزخرفه مناطق غائرة على شكل مربعات ومثمنات وقباب صغيرة ، وكلها مطلية بالذهب واللازورد والألوان المختلفة .

وكان يوجد أسفل هذا السقف إفريز من ثلاثة حطات (صفوف) من المقرنصات الخشبية ، يوجد أسفله ـ أي الإفريز ـ أزار (شريط) كتابي باللون الأبيض على أرضية لازوردية[5] .

---

(١) حسين مصطفى حسين : المحاريب الرخامية في قاهرة المماليك البحرية رسالة ماجستير ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٨٢ م ص: ١٣٤ .

(٢) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١٢ سطر ٤٩ ـ ٥٠ . وعن هذا النص راجع ص: ١٢٤ من هذا الباب .

(٣) ناقش (البروفيسور كريزول) هذا الرأي مناقشة مستفيضة حيث أن هذا الشكل من الأسقف لم يعرف في الآثار الإسلامية في مصر وأخيراً لم يرجح (كريزول) قبول هذا الرأي .
Creswell, Op - Cit, PP. 197-198.

(٤) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ـ ص: ١٢٠ .

(٥) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ٩٣ .

أما بالنسبة للرواقين الجانبيين فكان يغطي كل منهما أقبية متقاطعة من الآجر المغطى بالجص[1] .

(٣)الإيوان الشمالي الغربي (الإيوان المقابل الإيوان القبلة) (لوحـة ٤)، (شكل ٦ ـ ٧) :

ما زال هذا الإيـوان باقيـاً حتى اليوم ، وإن كـان قد فقـد كثيراً من معـالمه الأصليه ، إلا أنه يمكن اعتماداً على ما جاء بالوثيقة ، إعادته إلى حالته الأولى التي كانت عليها وقت الإنشاء .

ويتكون هذا الإيوان من مساحة مستطيلة تبلغ ٨,٢٢ م × ١٢,٤٠ ، وكان يتوج فتحة هذا الإيوان عقد من الآجر المكسو بالجص يرتكز على عمودين من الرخام ، ويتوسط صدر الإيوان بازاهنج (ملقف هواء) يكتنف فتحته عمودان من الرخام أيضاً ، وبكل من الضلعين الجانبين للإيوان فتحتـان متقابلتـان ، يكتنف فتحة كـل منهما عمودان من الرخام أيضاً ، ويفتح بالصفة اليمنى شباك يطل على الدهليز المتفرع من الدركاة ، أما الصفة المقابلة لها فلا تحوي أية شبابيك وتعلو كل من الصفتين قندلية وجميعها مغشى بالزجاج الملون المعشق بالجص .

كذلك كانت جدران الإيوان مكسوة بوزرة رخامية متنوعة الألوان ما بين الأبيض والأحمر والأخضر ، يعلو ذلك قندليات من الزجاج الملون المعشق بالجص .

أما بالنسبة لسقف الإيوان فقد كان سقفاً خشبياً مسطحاً نقياً شامياً مزخـرف بمختلف الزخارف المفرقة بالذهب والملونة بالألوان المختلفة .

وكان يجري أسفل هذا السقف أزار (شـريط) كتابي بـالخط الكوفي ملون باللازورد والأصباغ المختلفة .

وقد لحق بهذا الإيوان بفترة من الفترات كثير من التغير والتبديل إذ سد مدخله المعقود وفتح بدلاً منه باب صغير ، وأضيف إليه محراب وتحـول إلى مصلى كما يتضح ذلك من المسقط المؤرخ عـام ١٨٩٩ م (شكل ٥) أي قبـل إجراء مشـروع الترميم ، وقد ظل على هذا الحال حتى عام ١٩٢٢ م عندما شرع في إجراء ترميم هذا الأيوان[2] .

---

(١) حسين عبد الوهاب : المرجع السابق ـ ص: ١٢٠ .
محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١١ سطر ٢١ .
(٢) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ٩٩ ـ ١٠٠ .

ويوجد على جانبي فتحة هذا الإيوان بابين مربعين ـ غير معقودين ـ يؤدي الأول منهما (الباب الشمالي) إلى الدهليز المتفرع من دركاة المدخل السابق الإشارة إليها، أما الباب الثاني (الباب الغربي) فيؤدي حالياً إلى ميضأة حديثة[1] ، أما قديماً فقد أشارت الوثيقة إلى أنه يدخل من هذا الباب إلى « دهليز مستطيل معقود قبواً يتوصل منه إلى قاعة يغلق عليها زوج أبواب نقي تشتمل على إيوان معقود قبواً أمامه دورقاعة وقباله باب القاعة المذكورة باب يدخل منه إلى مجاز على يمنة من صار فيه سلم مبنى بالحجر يصعد من عليه إلى مطبخ علو فيقسم الماء بجوار المصنع المعلق ، ويتوصل من بقية المجاز المذكور إلى مرحاض ومرافق وحقوق . . . »[2] .

وكان يعلو هذين البابين قمريتين مطاولتين معقودتين بعقد مدبب ، تعلو إحداهما الأخرى ، تماماً مثل القمريتين المقابلتين لهما بأعلى بابي الرواقين الجانبين لإيوان القبلة وقد سبقت الإشارة إليهما .

(٤) الإيوانان الجانبين (لوحة ٤٩ ـ ٥١)، (شكل ٥ ـ ٦) :

أطلقت الوثيقة على كل من الإيوانين الجانبين (الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي) لفظ صفة للدلالة على صغر مساحتيهما ، حيث أن اتساع فتحة كل منهما ٣,٧٦ م وعرضه ٣,٣٠ م ، وقد اضطر المعمار إلى ذلك لوجود فتحات أبواب مساكن الطلبة والمدرسين والملحقات المشاركة في هذين الضلعين[3] .

والواقع أن وجود هذا التخطيط ـ المتمثل في دورقاعة وسطى يحيط بها إيوانين كبيرين وإيوانين صغيرين (صفتين) ـ في مدرسة المنصور قلاوون ، ينفي تماماً القول بأن النظام المدرسي المتطور لم يحدث إلا ابتداء من عصر المماليك الجراكسة[4] .

= هذا وتجدر الإشارة إلى أنه يكتمل ترميم الإيوان حتى اليوم إذ ما زالت جدرانه ناقصة ، وسقفه مكشوف ، كذلك تحول الشباك بالصفة اليمنى إلى باب يفتح على الدركاة ، وفتح في الصفة المقابلة باب يؤدي إلى الميضأة الحديثة .

(١) يذكر (البروفيسور كريزول) أنه كان يشغل موضع هذه الميضأة الحديثة فناء كبير ظل موجوداً حتى سنة ١٩١٢ م ، وذكر أنه من المحتمل أنه كان يوجد في هذا الجانب حجرة غير منتظمة الشكل ، وسلم يصعد منه إلى مساكن الطلبة مثلما هو موجود في الجانب الآخر .
Creswell, OP-Cit. P. 196.

(٢) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١٤ ـ سطر ٧٥ ـ ٧٩ .
ولعل ما ورد في هذا النص الوثائقي ينفي تماماً ما أشار إليه (كريزول) في الهامش السابق .

(٣) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١٠٠ .

(٤) محمد مصطفى نجيب : المرجع السابق ـ ص: ٢٠ .

هذا وقد كانت فتحات هاتين الصفتين غير متوجة بعقود مثل عقـود الإيوانين الكبيرين ، كما أن أسقفهما مسطحة من ألواح الخشب المدهون وكانت تزينها مناطق (جامات أو بحور) تملؤها كتابات بالخط الكوفي .

وكان يفتح بصدر كل صفة شباك ذي مصبعات حديدية ويغلق عليه مصراعين من الخشب ، وكان شباك الصفة اليمنى (الجنوبية الغربية) يطل على باطن القيسارية أما شباك الصفة الأخرى (الشمالية الشرقية) فكان يطل على الدهليز الكبير قبالة باب القبة ، وقد فتح هذا الشباك الأخير وصار يدخل منه حالياً إلى المدرسة[1] .

ونستعرض فيما يلي الأبواب التي كانت على يمين ويسار كل من الصفتين :

(١) **الصفة الجنوبية الغربية (لوحة ٤٩ ـ ٥٠)، (شكل ٧)** :

من المعروف أن معالم الضلع الجنوبي الغربي للمدرسة قد تغيرت تماماً : إذ حل محل الصفة إيوان مستطيل المساحة حوالي ١٢ × ٣½ م يشرف على الدورقاعة ببائكة ذات ثلاثة عقود حدوة الفرس ترتكز على عمودين مستديرين من الرخام في الوسط وعلى الجدران في الجانبين.

وقد أشار البروفيسور كريزول إلى أن هـذا الإيوان ، يحتمـل أنه يـرجع إلى تجديدات الأمير عبد الرحمن كتخدا ١١٩٠ هـ/ ١٧٧٦ ـ ١٧٧٧ م[2] .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان يشغل جانبي هذه الصفة ستة أبواب بواقع ثلاثة أبواب بكل جانب ، لم يعد باقياً منها سوى بابين فقط في الطرف الجنوبي من الإيوان، السابق ذكره ، ويؤدي كل باب منها إلى حجرة صغيرة ، كما يعلو كل باب دخله (مسدودة حالياً) معقودة بعقد مدبب من المحتمل أنه كانت تشغلها قمرية مطاولة مماثلة لقمريات الأبواب الأخرى ـ وهذه الأبواب الستة كانت تؤدي إلى بعض المنافع والمرافق والحقوق المتعلقة بالمـدرسة ، فبـالنسبة لـلأبواب الثلاثة الأولى ـ وهي التي كانت تقع في الطرف الغربي من الصفة ـ فيؤدي الباب الأول منها إلى « مجاز الميضأة المشتملة على فسقية وبيوت عدتها ثلاثة عشر بيتاً ومقعد ، وعلى يسرة من دخل من باب الميضأة المذكـورة سلم معقود بالبلاط يصعد من علية إلى البيوت العلوية برسم سكنى الفقهاء وإلى الـطباق العلويـة

---

(١) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١٠٠ ، ١١٤ .

(٢) Creswell, OP-Cit. P. 196.

برسم المدرسين وعدتها ثلثة (ثلاثة) مكملات المرافق والأبواب والطاقات النقي وجيعها مفروش بالبلاط مسبول (أي مغطى) بالبياض . . .)[1] .

وقد أشارت الوثيقة في موضع آخر إلى أن البيوت العلوية المرسومة لسكنى الفقهاء يبلغ عددها ٢٧ بيتاً في ثلاث طوابق ، وبكل طابق ثلاث مراحيض وكانت أرضية جميع هذه البيوت مفروشة بالبلاط وجميع جدرانها مكسوة بالبياض ، إلا أنه للأسف اندثرت هذه المساكن كلها[2] .

أما البابين الثاني والثالث فيؤدي كل باب منهما إلى حجرة برسم سكنى الفقهاء ـ وبالنسبة للأبواب الثلاثة الأخرى التي كانت تقع في الطرف الجنوبي من الصفة والتي لم يعد باقياً منها سوى بابين كما سبق القول ـ فقد كان يؤدي بابين منهما إلى حجرتين برسم سكنى الفقهاء أيضاً ، أما الباب الثالث والأخير فقد كان هو باب سر المدرسة ويتوصل منه إلى القيسارية[3] التي كانت تشغل موضع الطريق الموصل حالياً إلى مستشفى قلاوون الرمدي كما سبق القول .

وفي ضوء ما سبق ، يتضح أن معالم الضلع الجنوبي الغربي للمدرسة قد تغيرت تماماً حيث اندثرت الصفة وحل محلها الإيوان السابق ذكره ، كذلك هدمت أربعة أبواب من الأبواب الستة التي كانت تشغل جانبي الصفة ، وقد أدمج موضع هذه الأبواب (وما كانت تؤدي إليه) مع الإيوان من جهة ، ومع الميضأة ودورة المياه التي حلت محل القاعة وملحقاتها من جهة أخرى وصار يدخل إليها من الباب الكائن على يسار الإيوان الشمالي الغربي . كذلك هدم السلم الذي كان يصعد منه إلى البيوت والطبقات العلوية التي لم يعد لها أثر هي الأخرى .

(٢) الصفة الشمالية الشرقية (لوحة ٥١)، (شكل ٦ ـ ٧) :

ما زالت معالم هذه الضلع باقية على حالها باستثناء تغير طفيف يتمثل في فتح الشباك الذي كان يصدر الصفة ، واستخدم كمدخل يدخل منه إلى المدرسة (بدلاً من مدخلها الأصلي) كما سبق القول . ويوجد على جانبي هذه الصفة ستة أبواب (ما تزال باقية) بواقع ثلاثة أبواب بكل جانب ، ويؤدي كل باب منها إلى حجرة برسم سكنى الفقهاء.

---

(١) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١١٤ ـ سطر ٧٩ ـ ٨٣ .
(٢) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١٠٣ .
(٣) نفس المرجع ـ ص: ١١٥ ـ سطر ٨٤ ـ ٨٥ .

هذا ومن المرجح أنه كان يعلو هذا الضلع أيضاً مجموعة من المساكن مماثلة لمجموعة المساكن في الضلع المقابل ، في ثلاثة طوابق أيضاً ، وكان يصعد إليها من السلم الواقع على يسار الدهليز المتفرع من دركاة المدخل الأصلي للمدرسة[1] .

(٥) الزخارف :

من خلال ما ورد في حجة الوقف من وصف رائع وممتع لأدق التفاصيل الزخرفية ، وما هو موجود بالفعل حتى الآن من بقايا هذه الزخارف ، يتضح لنا أن المدرسة المنصورية كانت مشحونة بشتى أنواع الزخارف التي نفذت على مختلف المواد الخام من خشب وجص ورخام .

وإذا كانت معظم هذه الزخارف قد اندثرت ، إلا أن البقية الباقية منها ـ وإن كانت بحالة سيئة ـ تنبيء عما كانت عليه من روعة وجلال ، وتعتبر في ذات الوقت خير شاهد على دقة المستوى الصناعي والغنى الذي كان عليه الصناع والفنانين في بداية عصر المماليك البحرية .

وقد سبق أن تناولنا بالحديث زخارف الأسقف الخشبية ، ولذلك سوف يقتصر الحديث على الزخارف الرخامية والجصية فقط .

أولاً : الزخارف الرخامية :

استخدمت التكسيات الرخامية في زخرفة أجزاء كثيرة من المدرسة المنصورية ومنها الأرضيات (مثل الدركاة والدهليز والدورقاعة) ، والجدران (مثل إيوان القبلة والإيوان المقابل له) وقواعد الأعمدة السفلية والعلوية ، والمحراب ، واللوحة التأسيسية التي تعلوه وقد أشارت الوثيقة إلى أنها كانت مفرقة بالذهب كما سبق القول ، وقد تنوعت أشكال وألوان هذا الرخام ، فنجد منها الأشكال المستطيلة والمربعة والمدورة والنجمية وغير ذلك ، وقد نقشت على هذه الأشكال زخارف عديدة تراوحت ألوانها ما بين اللون الأبيض والأحمر والأخضر والغرابي ، هذا فضلاً عن استخدام التذهيب في بعض الأحيان .

---

(١) محمد سيف النصر : المرجع السابق ـ ص: ١٠٣ ، ١٠٧ .
وتجدر الإشارة إلى أنه أنشئت بالفعل ثلاثة طوابق تضم حجرات الطلبة أعلى هذا الضلع ، وذلك ضمن مشروع ترميم المدرسة ، إلا أنه لم يعاد بناء السلم مرة أخرى .

وعلى الرغم من اندثار كل هذه الزخارف الرخامية ، إلا أن ما بقي منها في محراب المدرسة ينبىء عما كانت عليه جميع هذه التكسيات من دقة وروعة وبهاء .

ونستعرض فيما يلي الوصف التفصيلي لزخارف المحراب :

(أ) زخارف بدن المحراب (لوحة ٤٧) :

تنقسم كسوة بدن المحراب إلى سبعة مستويات متتابعة ويلاحظ أنها لا تبدأ من الأرض مباشرة وإنما ترتكز على وزرة صغيرة ارتفاعها ٢٢ سم مكونة من مجموعات متماثلة في الأشرطة الرخاميه الرفيعة وكل مجموعة مكونة من خمسة أشرطة بيضاء تحصر بينها أربعة سوداء بحيث يتبادل كل شريط أبيض مع شريط أسود ويفصل بين كل مجموعتين متجاورتين شريط أكثر اتساعاً ذو لون أحمر أو أخضر بالتبادل ينغلق على هذه الوزرة ويفصلها عما يعلوها افريز رخامي يبرز قليلاً عنها تبدأ بعده كسوة المستوى الأول وهي تتكون من أشرطة رخامية متجاورة ارتفاعها ٥٣ سم ومتوسط عرض الشريط ١٥ سم . وهذه الأشرطة مزخرفة بالتبادل بمعنى أن أحدها مزخرف بينما ترك المجاور له دون زخرفة ويلاحظ أن زخارف هذا المستوى قليلة الوضوح نظراً لأن الحفر قليل البروز ولأن عليها آثار طلاء داكن يحتمل أنه كان بطانة لتذهيب مفقود الآن .

وقوام زخارف هذه الأشرطة الأفرع النباتية المزدوجة التي يخرج منها أوراق نباتية وأنصاف مراوح نخيلية وهذه الأوراق تأخذ هيئة زخرفية مثل ورقة العنب الخماسية التي استطال أحد أطرافها والتوى والتي حزت عليها بعض التفاصيل وشريط به حبيبات ومن بينها أيضاً أوراق تشبه الريشة نفذت بقاعدتها أنصاف مراوح نخيلية وحزت فيها تفاصيل بالإضافة لشريط الحبيبات وهي أيضاً ملتوية الطرف كذلك وجدت أشكال كأسية مركبة استطالت قمتها والتوت كما حز عليها زخرفة نباتية أكثر دقة يغلق على هذا المستوى إفريز رخامي بارز يعلوه المستوى الثاني الذي يبلغ ارتفاعه ٢٠ سم فقط وهو يتكون من خمس عشرة قطعة رخامية متجاورة زخرفت كل منها بالحفر الغائر على هيئة عقد مفصص ذي تضليعات تمتد في العمق لتكون شكلاً محارياً وقمة العقد مزخرفة بالحفر البارز على هيئة دائرة (ميمة) داخلها شكل حلزوني ثلاثي ربما كان وريدة . أما توشيحات هذه العقود فقد زخرفت بالحفر البارز كذلك بزخارف نباتية قوامها الأفرع التي كون منطقة شبه دائرية بها عنقود عنب كما يخرج منها أنصاف مراوح تكون مراوح كاملة عند التقاء كل نصفين على جانبي خطوط تلاقي هذه القطع المتجاورة . وهذه العقود مماثلة تماماً لعقود بوائك مستخدمة في كسوة مستويات

أخرى بنفس المحراب إلا أنها هنا غير محمولة على أعمدة ولكنها تذكرنا عموماً بمحراب جامع الخاصكي ببغداد . يغلق على المستوى السابق إفريز رخامي بارز يليه المستوى الثالث الذي يبلغ ارتفاعه ٦٢ سم وهو عبارة عن أشرطة رخامية متجاورة خالية من أي زخرفة وهي في حالة سيئة الآن ، كما يغلق عليها كذلك إفريز رخامي بارز يليه المستوى الرابع وهو عبارة عن بائكة ارتفاعها ٧٢ سم ومكونة من خمسة عشر عقداً كل منها ذو طاقية مفصصة محارية مماثلة تماماً لعقود المستوى الثاني ولكنها هنا محمولة على أعمدة صغيرة منحوتة نحتاً كاملاً أي أنها غير ملتصقة بصدر المحراب وهي ذات أبدان دائرية وتيجان وقواعد ناقوسية وقد زخرفت بعض هذه التيجان والقواعد بزخارف نباتية دقيقة بينما ترك البعض الآخر دونما زخرفة . أما كسوة داخل هذه العقود فهي مفقودة الآن ويحتمل أنها كانت منفذة بتجميع قطع الرخام الخردة على هيئة زخارف هندسية وذلك على أساس أن استخدام الأعمدة الحرة يتيح للمرخم استخدام هذه الطريقة التي تحتاج عموماً إلى أن تكون قطعة واحدة عند تركيبها بالإضافة إلى أن ذلك الأسلوب قد استخدم في محراب القبة يغلق هذا المستوى افريز بارز يليه المستوى الخامس والذي يبلغ ارتفاعه ٦٥ سم وهو مكسو بأشرطة من الرخام الأبيض غير المزخرف وهي في حالة سيئة أيضاً ويتوسطها شريطاً أكثر اتساعاً ذو لون أخضر يظهر فيه التآكل بوضوح يغلق على هذا المستوى افريز رخامي بارز . أما المستوى السادس فتشغله بائكة ارتفاعها ٥٠ سم مكونة من خمسة عشر عقداً مماثلة تماماً للعقود السابقة استخدامها من مستويات بدن نفس المحراب ولكنها محمولة في هذه المرة على أعمدة مزدوجة . ويلاحظ أن المرخم قد زخرف بداية كل تاج ونهاية كل قاعدة على شكل جديلة منفذة بالحفر البارز كما زخرف التاج الأيمن للعقد الذي يتوسط البائكة ويتصدر المحراب بزخارف نباتية مورقة بينما تركت بقية القواعد والتيجان دونما زخرفة . أما داخل هذه العقود فقد كسي بقطع رخامية مختلفة الألوان جمع أحياناً داخل العقد الواحد بين قطعتين مختلفتين في اللون ، ومن الألوان المستخدمة الأحمر والأخضر والأسود ولعلها غير واضحة الآن بدرجة كافية نتيجة لتآكلها (لوحة) يغلق على المستوى افريز رخامي بارز يليه المستوى السابع وهو منفذ بتجميع قطع الرخام الخردة والصدف على هيئة أشكال هندسية (ضرب خيط صغير) وقوامها أشكال مسدسات متقاطعة ويضم كل مسدس داخله طبق نجمي له اثنا عشر طرفاً وقد استخدم الصدف لتنفيذ حدود هذه التكوينات بينما الكندات واللوزات من الرخام الأحمر والأسود ، كما استخدمت قطع صغيرة من اللون الأصفر بالتبادل مع اللون الأسود لعمل زخرفة أكثر دقة داخل ترس كل طبق نجمي ويحدد بداية ونهاية

هذا المستوى من أسفل ومن أعلى شريط رخامي أسود . يغلق على هذا المستوى إفريز رخامي بارز[1] .

(ب) زخارف جانبي بدن المحراب :

يكسو كل جانب من جانبي بدن المحراب لوح رخامي أبيض راعى المرخم أن يجعل فيه ارتدادات في مواجهة كل مستوى تشغله بائكة بحيث يظهر منها العمود الأخير بالإضافة إلى ذلك أضاف عموداً في مواجهة المستوى الزخرفي الأول بحيث يتماثل هذا العمود مع العمود الذي يعلوه ولعل ذلك يعود إلى رغبة المرخم في المحافظة على التوازن الزخرفي لواجهة المحراب ، كما يلاحظ أنه لم يضمن على هذه الكسوة بالزخارف فقد نفذ فيها مناطق مفصصة يحددها إطارات متتابعة تنعقد في قمة ونهاية كل منها وتضم كل منطقة نباتية مركبة ومنفذة بالحفر البارز كما نفذ بها تفاصيل عن طريق الحز بينما خارج هذه المناطق قد زخرف بزخارف نباتية مورقة (أرابيسك) بهذه الكسوات آثار تذهيب .

(جـ) زخارف المنطقة الفاصلة بيم البدن والطاقية :

نتج عن عدم ارتكاز رجل العقد على قمة التاج مباشرة وجود منطقة تفصل بين البدن والطاقية وقد بدا المرخم زخرفة هذه المنطقة بعمل شريط ارتفاعه ١٧ سم وهو لا يسير بنفس هيئة حنية المحراب فقط بل يمتد إلى ما فوق تيجان الأعمدة . ويزخرف هذا الشريط شكل عقد ثلاثي مكرر يضم داخله زخرفة نباتية مكونة من ورقة ثلاثية ويخرج من قاعدتها فرعان على هيئة حلزونية يلتف كل منهما للداخل وينتهي بشكل ورقة ثلاثية أصغر ويشغل كوشات هذه العقود زخارف نباتية مورقة أكثر دقة . يغلق على هذا إفريز بارز أتبع المرخم ذلك الشريط بآخر أكثر ارتفاعاً مكون من قطع رخامية متجاورة وهي لا تخرج عن نطاق حنية المحراب وقد زخرفت بالحفر القليل البروز على هيئة أفرع نباتية مزدوجة تلتوي لتكون مناطق شبه دائرية داخلها أوراق عنب وضع على كل منها ثمرة تشبه كوز الصنوبر ، بينما نفذت التفاصيل عن طريق الحز كما يخرج من هذه الأفرع أنصاف مراوح نخيلية وأكواز صنوبر أخرى .

(د) زخارف الطاقية المحراب :

حددت هيئة الطاقية بافريز رخامي بارز بينما زخرف داخلها بالفسيفساء

---

(١) حسين رمضان : المرجع السابق ـ ص: ١٣٤ ـ ١٣٦ .

الزجاجية المذهبة (وهي الآن في حالة سيئة) وهي عبارة عن شكل إناء زهور يتوسط الطاقية وهو منفذ باللون الأزرق الداكن وبعض لمسات من الأحمر وتخرج منه أفرع نباتية ملتوية تشبه ملفات العنب وتحمل ثماراً ووريدات نفذت أجزاء منها بالصدف . ويحيط بالتكوين كله ويحدد هيئة الطاقية كذلك شكل جديلة . أما واجهة عقد الطاقية فقد نفذت على هيئة صنجات معشقة من النوع المتعاكس الجانبين والبروز فيها ذو طابع هندسي وهي باللون الأحمر والأسود بالتبادل مع الأصفر بحيث تكون الصنجة المفتاحية صفراء . ويلاحظ أن هذه الصنجات قد استمرت حتى تاج كل عمود من عمودي المحراب ويحدد الهيئة الخارجية للعقد إفريز رخامي بارز بستمر ليحدد التوشيحتين على جانبيه . وقد زخرفت كل توشيحة بالفسيفساء الزجاجية على هيئة إناء زهور بدنه باللون الأزرق وقاعدته بالأحمر المضاف إليه قطع من الصدف وهو على أرضية مذهبة وقد وضع بحيث يواجه ركن التوشيحة وذلك تغلباً على مشكلة المساحة التي يزخرفها حيث أن مساحة التوشيحة صغيرة جداً وحتى يتمكن الفنان من أن يخرج عن الإناء أفرع نباتية نفذت ملتوية باللون الأخضر المحدد بالأسود وهي تحمل ثماراً أو وريدات استخدم الصدف في زخرفتها .

يضم منطقة الطاقية كلها ويغلق عليها إطار مكون من قطع رخامية معشقة من اللون الأحمر والأسود بالتبادل . يلي هذا الإطار الشريط الخشبي الذي يسير في جدران الإيوان كله والذي ارتفع عند أحد جانبي المحراب ليسير أعلاه ويضم اللوحة الكتابية التي تعلوه ثم ينزل في الجانب الآخر ليعاود سيره في نفس المستوى الذي كان يسير فيه قبل المحراب[1] .

ثانياً : الزخارف الجصية :

حفلت المدرسة المنصورية بالعديد من المدارس الجصية المتنوعة والمتقنة التنفيذ ، ولا تقل هذه الزخارف بأي حال من الأحوال عن مثيلتها في القبة المنصورية[2] .

---

(١) حسين رمضان : المرجع السابق ـ ص: ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢) تجدر الإشارة إلى أن لجنة حفظ الآثار العربية قد أعادت تجديد زخارف كل من المدرسة والقبة على نمطها القديم .

حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ـ ص: ١٢٠ .

كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر (مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧٠ م) ص: ٣٩ .

ونستعرض فيما يلي الوصف التفصيلي لهذه الزخارف :

(أ) الزخارف الجصية أعلى واجهة المحراب (لوحة ٤٦) :

يعلو واجهة المحراب والدخلتين اللتين على جانبيه حشوة زخرفية رائعة بل ونادرة في الشكل والزخرفة ، وتتكون هذه الحشوة من دخلة متسمة معقودة بعقد مدبب يرتكز على عمودين مدمجين ، وتحوي الدخلة نافذة قندلية من ثلاث عقود مدببة أوسطها أوسعها ترتكز على أربعة أعمدة مدمجة وتعلوها قمرية مستديرة ، ويتوسط كل عقد من هذه العقود الثلاثة قمرية عبارة عن قندلية بسيطة[1] في العقد الأوسط المتسع ، وقمرية مطاولة معقودة بعقد مدبب في صدر كل من العقدين الجانبين .

ويغشى هذه القمريات أحجبة من الجص المفرغ المعشق بالزجاج الملون . وقد تنوعت زخارف هذه القمريات تنوعاً عظيماً ، ففي باطن القندلية الوسطى زخارف جصية بارزة تشبه زخرفة الدقماق ، يحيط بها إطار ضيق من الزخارف البارزة المفرغة على هيئة الحرف اللاتيني (Y) مقلوبة ومعدولة بالتبادل والذي يمتد بدوره ليحيط بعقد دخلة القندلية .

أما كوشات العقود فقد شغلت بزخارف نباتية بارزة قوامها ورقة ثلاثية محدبة الحواف ، يخرج منها أفرع تتشابك مع أنصاف مراوح نخيلية وأوراق من فص واحد ومن فصين ثقبت (فرغت) جميعها من الداخل بخطوط ورسوم نباتية متنوعة دقيقة يلي ذلك الإطار الضيق السالف الذكر ، ثم الشريط النباتي البارز المفرغ أيضاً برسوم نباتية قوامها نصفي مروحة نخيلية متقابلين يخرج منهما أفرع ملتوية لتصل بأوراق أخرى من فص واحد ومن فصين على هيئة دائرية متكررة على طول امتداد هذا الشريط . يلي ذلك تكوين زخرفي نباتي يمتد حتى نهاية العقد الرئيسي لهذه الدخلة قوام زخارفة أوراق نباتية من فصين بالحفر البارز يحيط بها أوراق وأفرع نباتية يخرج منها أوراق ثلاثية دقيقة ومفرغة البتلات من الداخل بخطوط دائرية .

أما القمريتان الجانبيتان فتأخذ كل منهما العقد المدبب هيئة لها كما أنهما

---

(١) تتكون هذه القندلية من قمريتين مطاولتين معقودتين بعقدين حدوة فرس يرتكزان على ثلاثة أعمدة أحدهما في الوسط والآخران مدمجان في جانبي الدخلة ويعلو هذين العقدين قمرية مستديرة . (لوحة   ) .

متشابهتان من حيث التكوين الزخرفي والأسلوب الفني إذ غشيت أحجبتها برسوم هندسية جصية معشقة في الزجاج الملون . يحيط بهذا الحجاب شريط زخرفي نباتي محفور حفر بارز قوامه أوراق نباتية من فص واحد ومن فصين تتشابك مع أفرع ملتوية يخرج منها أيضاً في مراوح نخيلية وزع هذا التكوين داخل مساحات متكررة تشبه هيئة العقود الثلاثية على النمط الأندلسي .

وثمة ملاحظة على هذه العناصر الزخرفية أنها خربت بعض منها خاصة التكوينات القريبة من الحجاب الجص نتيجة للترميمات الحديثة الغير صحيحة لهذا الحجاب يلي ذلك إطار بارز من الجص على هيئة خطين متوازيين يأخذ أيضاً هيئة العقد المدبب شكلاً له يخرج منه عناصر زخرفية دقيقة متقاطعة تشبه أشكال العقود النصف الدائرية . يلي ذلك مساحات أخرى شغلت برسوم نباتية دقيقة تمثل امتداداً للزخارف النباتية التي تحيط بالنافذة الكبرى الوسطى يعلو هذا التكوين مساحة معقودة تمثل امتداداً للساحة الزخرفية المعقودة لفتحة هاتين النافذتين قوامها رسوم هندسية بديعة من خطين لشكل نجمي في الوسط يحيط بها رسوم هندسية أخرى لأشكال رباعية وخماسية وسداسية محفورة حفراً بارزاً على الجدار كأنها رسمت داخل أحجبة النوافذ المخرمة . ثم يلي ذلك باطن الدخلة الرئيسية المعقودة والتي شغلت برسوم بارزة مفرغة لزخارف الدقماق . ثم الشريط الضيق الذي يحيط بحواف العقود الثلاثة لتلك الحشوة والمكون من أشكال متكررة لرسوم الحرف اللاتيني (Y) معدولة ومقلوبة بالتبادل[١] .

يلي ذلك شريط نباتي يمتد لحيط بالعقود الثلاثة أيضاً قوامه أوراق دقيقة ثلاثية البتلات مفرغة من الداخل برسوم دوائر يخرج منها فرعين يحيطان بهما حيث في النهاية تكون أشكالاً متكررة لوحدات تشبه القلوب . وملئت كوشات العقود الثلاثة بالعديد من الزخارف النباتية البارزة قوامها الأوراق والأفرع النباتية السابقة بتفريغها الداخلية .

(ب) زخارف عقود إيوان القبلة (لوحة ٤٤ ـ ٤٥) :

زخرفت العقود الثمانية التي تسير عمودية على جدار القبلة بزخارف جصية سواء في باطنها أو في واجهاتها والكوشات المحصورة فيما بينها ، وقوام هذه الزخارف رسوم نباتية بارزة متنوعة .

---

(١) جمال عبد الرحيم : الزخارف الجصية ـ ص: ١٠٤ ـ ١٠٥ .

فبالنسبة للعقود الموجودة بالبائكة الشمالية الشرقية يلاحظ فيها التخرب الشديد في بعض زخارفها كما هو الحال في العقد الأول والرابع حيث لم يتبق إلا شذرات في بوطنها وبعض التجديدات في أحجبة القمريات المستديـرة العلوية ، بينمـا ظهرت بواطن العقدين الثاني والثالث بحالة جيدة بالإضافة إلى حجاب قمرياتهما المستديرة العلوية .

ولقـد شغلت تلك البواطن بـزخارف نبـاتية بـارزة ذات مستـويين تشبـه تلك الموجودة في بواطن عقود القبة السابقة وقوامها أوراق نباتية متكررة ثلاثية الفصوص في المستوى الأول يحيط بها نصفي مروحة نخيليـة يخرج من طرفيها أفرع نبـاتية تتشابك مع أوراق من فصين مسننة الحواف تمثل المستوى الثاني (تلك الزخارف) يمتاز هذا التكوين أيضاً بكثرة تفريعاته المخرمة الداخل برسوم نباتية دقيقة وخطوط متوازية .

يحيط بواجهات هذه العقود إطار بارز ومفـرغ من الزخـارف الهندسيـة يضم أشكالاً متكررة لمثلثات ثلاثية الخطوط معدولة ومقلوبة بالتبادل أنهى الفنان طرفي هذا الإطار عند قمة كل عقد بميمة ويستمر بدوره ليحيط بالقمرية المستديرة والتي تعلو كل عقد من العقود الأربعة كما سبق القول تمتاز أحجبتها برسوم لزخارف هندسية مفرغة مزدوجة الخطوط لأشكال نجيمة وسداسية وخماسية تحصر بداخلها رسوماً مفرغة تشبه هيئة الوريدات السداسية البتلات والتي يغلب عليهـا الطابـع الهندسي عن الـطابع النباتي .

يحيط بهذا الحجاب إطار زخرفي نباتي بارز مفرغ لورقة نباتية متكررة من فصين حلزونية الأطراف ومحدبة الحواف يخرج منها فرع نباتي ليحدد تلك الورقات . يلي ذلك الإطار الخارجي لزخارف المثلثات المعدولة والمقلوبة بالتبادل وهي تمتاز بوجود وريدة ثلاثية مفرغة بداخل كل مثلث من المثلثات المعدولة فقط .

ونفس هذه الزخارف توجد على العقود الأربعة بالجهة الجنوبية الغربية مع تنوع وتحوير بسيط يجعلها تختلف بعض الشيء عن سابقتها كما أن الخراب قد حل على العقد الأول مما يلي الصحن . أما الثلاث الأخرى ففي حالة يرثى لها وقد شغلت جميع كوشات تلك العقود بزخارف نباتية مفرغة بارزة قوامها أوراق ثلاثية ومن فصين وفص واحد تتشابك مع أفرع ملتويـة يخرج منهـا أنصاف مـراوح مسننة الأطـراف

(أرابسك) يحيط بهذا التكوين إطار خارجي بارز من الزخارف التي تشبه أشكال الدقماق[1] .

(جـ) زخارف واجهة إيوان القبلة (لوحة ٤٢ ـ ٤٣) :

يشرف الرواق الأوسط من إيوان القبلة على الدورقاعة ببائكة من مستويين ذات ثلاثة عقود أكبرها أوسطها وقد غشيت بواطنها وواجهاتها برسوم من الزخارف النباتية والهندسية البارزة والمفرغة من الداخل . ومما يؤسف له أن الكثير من تلك الزخارف قد اندثرت ولم يبق إلا في زخرفة العقد الأول على اليمين من المستوى الثاني والنصف الأول من العقد الأكبر الأوسط بالإضافة إلى قمة العقد الأوسط للمستوى الثالث العلوي .

وقد رتبت زخارف هذه البائكة ترتيباً زخرفياً بحيث تبدأ من باطنها وحتى واجهاتها الداخلية والخارجية على حد سواء . فالباطن يضم زخارف بارزة ومفرغة لأشكال الدقماق كبيرة الحجم عن الموجودة في عقود الإيوان السابقة ، يلي ذلك شريط نباتي بارز لورقة نباتية مكررة لها ثماني فصوص مفرغة ومخرمة من الداخل تنتهي بأشكال حلزونية يخرج منها فرع نباتي يحيط ويحدد تلك الورقة على هيئة تشبه القلوب ملئت المساحات الفارغة بفرع نباتي يخرج منها ورقة دقيقة من فصين مسننة الحواف . يلي ذلك شريط بارز من الزخارف النباتية ذات مستويين يدور حول واجهة العقود قوامه أوراق ثلاثية مفرغة يحيط بها نصف مروحة تمثل المستوى الثاني لهذه الزخرفة يعلوها أفرع ملتوية وأوراق من فص واحد مفرغة ، يحيط بتلك الأشرطة إطار ضيق خارجي من الزخارف المفرغة من الداخل بأشكال دائرية صغيرة تشبه حبات السبحة .

الواجهة (لوحة ٥٢ ـ ٥٣، ٥٥) :

تبرز واجهة المدرسة بمقدار ١٥, ١٠ م ، ويمتد الضلع الجنوبي الشرقي منها ـ وهو المطل على شارع المعز لدين الله ـ مسافة ٢٣ م .

ويشتمل الضلع الشمالي الشرقي من الواجهة على دخلتين معقودتين بعقد مدبب ، تحوي كل دخلة منهما شباك ذي مصبعات من أسفل يعلوه بقية الطراز الكتابي المستمر على ذلك الجزء من الواجهة ، يلي ذلك دخلة معقودة بعقد مدبب تحوي داخلها قمرية مطاولة مغشاة بحجاب من الجص المفرغ ، ويلي ذلك قندلية

---

(١) جمال عبد الرحيم : المرجع السابق ـ ص: ١٠٦ ـ ١٠٨ .

(٢) نفس المرجع ـ ص: ١٠٨ ـ ١٠٩ .

بسيطة عبارة عن قمريتين مطاولتين متجاورتين يتوسط أعلاهما قمرية مستديرة ، وقد غشيت كل منهما بحجاب من الجص المفرغ .

أما الضلع الجنوبي الشرقي من الواجهة فيشتمل على خمس دخلات معقودة بعقد مدبب ، الدخلتين الأولى والخامسة منهما ممتدتان إلى الأعلى وتحوي كل دخلة شباك ذي مصبعات من أسفل ، يليه بقية الطراز الكتابي المستمر أيضاً على هذا الجزء من الواجهة حتى ينتهي بالطرف الجنوبي منها ، يلي ذلك دخلة معقودة بعقد مدبب تحوي بداخلها قمرية مطاولة مغشاة بحجاب من الجص المفرغ ، ويلي ذلك دخلة معقودة بعقد مدبب تحوي بداخلها قندلية بسيطة تشبه القندليات السابقة ، وقد غشيت أيضاً بحجاب من الجص المفرغ .

أما الدخلات الثلاثة الأخرى ـ وهي الثانية والثالثة والرابعة ـ فهي غير ممتدة إلى الأعلى كالدخلتين السابقتين ، ويتوج كل دخلة عقد مدبب ، وتحوي كل منها شباك ذي مصبعات من أسفل يليه الطراز الكتابي السابق الإشارة إليه ، يليه قمرية مطاولة ـ فيما عدا الدخلة الثالثة ـ مغشاة بحجاب من الجص المفرغ ، ويعلو عقود الدخلات الثلاثة ، ثلاث دخلات أخرى معقودة أوسطها أكبرها ، وبداخل كل من الدخلتين الجانبيتين ، الثانية والرابعة ، قمرية مطاولة مغشاة بحجاب من الجص المفرغ ، أما الدخلة الثالثة فبداخلها قندلية بسيطة مغشاة هي الأخرى بحجاب من الجص المفرغ .

هذا ويتوج هذه الواجهة أيضاً صف من الشرافات المسننة تشبه الشرافات السابق الإشارة إليها .

زخارف أحجبة القمريات والقندليات بهذه الواجهة :

زينت أحجبة القمريات والقندليات بهذه الواجهة بزخارف هندسية متشابهة ومتنوعة بعض الشيء ، إذ تتكون من أطباق نجمية بسيطة بالإضافة إلى أشكال رباعية وخماسية وسداسية .

ويلاحظ على هذه الزخارف أنها خلت من زخرفة الطبق النجمي الكامل والزخارف النباتية المتداخلة مع الزخارف الهندسية كما حدث ذلك في زخارف قمريات وقنديليات واجهة القبة السابق الإشارة إليها .

وقد أحيطت القمريات المطاولة بشريط ضيق من الزخارف النباتية تختلف عن زخارف مثيلتها في واجهة القبة ، حيث يضم هذا الشريط ورقة نباتية من فصين ،

ومحدبة الحواف بالحفر البارز ، متكررة يخرج منها فرع نباتي يلتقي مرة أخرى مع ورقه وهكذا .

وقد خلت القنديليات من زخرفة هذا الإطار الخارجي فيما عدا قنديلية واحدة[1] .

مما سبق يتضح أن الزخارف الجصية في مجموعة السلطان قلاوون بلغت حداً من الروعة والجلال سواء في مستواها الفني أو الصناعي .

---

(١) جمال عبد الرحيم : المرجع السابق ـ ص: ٩١ ـ ٩٢ .

الفصل الرابع

دراسة تحليلية لمجموعة قلاوون المعمارية

يتضح مما تقدم عرضه في الفصول الثلاثة السابقة ، أن مجموعة السلطان قلاوون تنفرد بتنوع كبير في تخطيط وحداتها المعمارية الثلاثة الرئيسية ، وهي البيمارستان والقبة والمدرسة ، وفيما تحويه تلك الوحدات من عناصر معمارية متعددة .

وقد ازدانت هذه الوحدات وتلك العناصر بشتى أنواع الزخارف الرائعة المنفذة في الجص أو الرخام أو الخشب .

ونظراً لهذا التنوع حظيت مجموعة السلطان قلاوون باهتمام العلماء والباحثين العرب والأجانب على السواء . فقد عكف هؤلاء وأولئك على دراسة وحداتها وعناصرها المعمارية والزخرفية دراسة وافية التركيز على إبراز أهم التأثيرات المختلفة التي تأثرت بها هذه الوحدات أو تلك العناصر .

أولاً : التخطيط :

(١) البيمارستان :

اختلف العلماء والباحثين بشأن تخطيط البيمارستان المنصوري بصفة عامة وتخطيط القاعة الرئيسية منه بصفة خاصة .

وتركز هذا الخلاف حول ماهية هذا التخطيط ؟ وهل يرجع إلى بقايا القصر الغربي الفاطمي أم أنشأه السلطان قلاوون ؟؟ .

وتجدر الإشارة إلى أنه ما كان لهذا الخلاف أن ينشأ لولا أنه ورد في بعض المصادر التاريخية ما يشير إلى أن السلطان قلاوون قد « أبقى القاعة على حالها

وعملها مارستاناً وهي ذات إيونات أربعة بكل إيوان شاذروان وبدور قاعة فسقية يصير إليها من الشاذروانات الماء »[١] .

وقد اختلفت آراء العلماء والباحثين ما بين مؤيد ومدعم لآراء المؤرخين ، وبين معارض ومكذب لها .

ويبرز من بين هؤلاء العلماء (ماكس هرتز باشا) ، وكان قد نشر رأيه أولاً في محاضر لجنة حفظ الآثار العربية ١٩١٠م حيث ذكر أن ما بقي من القصر الفاطمي هو تخطيط الإيوانات الأربعة وبعض الجدران ، أما الزخارف الباقية فترجع إلى أواخر ق ٧ هـ/ ١٣ م[٢] .

وفي سنة ١٩١٨ م قام (هرتز باشا) بدراسة أخرى للبيمارستان انتهى منها إلى القول بأن جزءاً كبيراً من القصر الفاطمي قد أدخل ضمن مباني السلطان قلاوون الجديدة[٣] .

وعلى النقيض من هذا الرأي يذكر (البروفيسور كريزول) أنه لم يتبق من القصر الفاطمي أي جزء أدخل ضمن بناء البيمارستان ، كما ذكر أنه ليس من الممكن أن تنسب أي جزء من الحوائط إلى العصر الفاطمي بشكل مؤكد ، والأكثر من ذلك فإن كل جزء من الزخارف الجصية وتصميم النوافذ التوأمية (المزدوجة) والأشرطة الجصية التي تزين عقد الإيوان الجنوبي ، والأحواض الرخامية للسلسبيلين الباقين يرجع إلى عصر السلطان قلاوون[٤] .

أما العلماء والباحثين العرب فقد أيدوا رأي (هرتز باشا) ومن بين هؤلاء (أ. د فريد شافعي) الذي ذكر أن هرتز كان « محقاً في رأيه »[٥].

---

(١) المقريزي : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص: ٤٠٦ .

(٢) Comité, Execice 1910, le Caire 1911, PP. 143-145.

(٣) Creswell, OP-Cit. P. 208.

(٤) Ibid, P. 210.

(٥) فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية ـ المجلد الأول ـ عصر الولاة ـ القاهرة ١٩٧٠ م ـ ص: ٤٦١ .
وتجدر الإشارة إلى ما ذكره (د. شافعي) من أنه سيناقش ذلك في الجزء الثاني من الكتاب وهو الخاص بالعصر الفاطمي ـ وهذا الجزء تحت الطبع الآن ـ .

ومنهم « عباس حلمي » الذي ذكر أن تخطيط الجزء الرئيسي للبيمارستان وهو الفناء المتوسط والقاعات حوله، يرجح أنه كان هو نفس تخطيط الجزء الرئيسي لقصر ست الملك ، بل قد احتفظت بعض أجزائه بنفس مبانيها الأصلية ، وبذلك يمكننا باستبعاد الأجزاء التي أضيفت عند إنشاء البيمارستان والقاعات والأجزاء الجانبية التي لم تثبت نسبتها إلى العصر الفاطمي الأصلي ، يمكننا بذلك أن نحصل على تخطيط العنصر الرئيسي لقصر ست الملك وهو أحد أجزاء القصر الغربي الصغير الفاطمي .

ونلاحظ أن ذلك التخطيط اتبع تقريباً نفس الأسس المتبعة في دور الفسطاط المكتشفة أو متأثرة بنفس المؤثرات العراقية العباسية من حيث وجود عنصر الفناء المتوسط المستطيل ونسبة استطالته ٢ : ٣ وعلى محورية الرئيسين أربعة إيوانات في الضلع الشمال رواق ذو ثلاث فتحات الوسطى ضعف الجانبين تقريباً وخلفه قاعة رئيسية بالشكل المعروف وقاعتان جانبيتان صغيرتان وذلك بالشكل المعروف في قصر الأخيضر وبلكوارا[١] .

وفي بحث آخر أشار (د. عباس حلمي) إلى أن تخطيط الجزء الرئيسي في القصر الفاطمي أضيف بعد تجديده وتعديل زخارفه إلى مباني بيمارستان قلاوون[٢] .

أما الباحث (سيف النصر أبو الفتوح) فقد ذكر أنه ليس ثمة ما يدعونا للتشكك فيما ذكره المؤرخون بشأن الإبقاء على القاعة الكبرى ، ذات الإيوانات الأربعة والتي يتوسطها الدورقاعة ، وأن قلاوون قد أقام بقية المنشآت أما القول بأن كل وحدات البيمارستان ومنشآته من بقايا القصر الفاطمي فهو أمر غير منطقي إذ إن القاعات والوحدات مثل قاعة المسهولين وغيرها من الملحقات ما لا يمكن أن يكون منشأ إلا لوظيفة معينة بالبيمارستان[٣] .

والواقع أن أجزاء حفائر علمية أسفل الإيوانات الباقية بالبيمارستان سوف تثبت صدق أقوال المؤرخين بشأن الإبقاء على القاعة الرئيسية ، وترجح في ذات الوقت كفة أي من الرأيين السابقين على الآخر .

---

(١) عباس حلمي : تطور المسكن المصري الإسلامي من الفتح العربي حتى الفتح العثماني - (دكتوراه مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٦٨ م) . ص: ١٥٤ .

(٢) عباس حلمي : المدارس الإسلامية ودور العلم وعمارتها الأثرية ـ (مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ مكة المكرمة ـ السنة ٣ ـ العدد ٣ ـ ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨ هـ) ـ ص: ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٣) محمد سيف النصر : منشآت الرعاية الاجتماعية ـ ص: ١٢٥ .

(٢) القبة :

سبق القول بأن تخطيط القبة المنصورية يعد فريداً في تخطيط القباب في العمارة المصرية الإسلامية حيث أنه لم يتكرر بعد ذلك .

وقد ذكر بعض علماء الآثار أن تخطيط هذه القبة يذكرنا بالعمائر الموجودة في بيت المقدس ودمشق ولا سيما قبة الصخرة المشرفة[١] .

ويضيف (كريزول) على ذلك فيذكر أنه لو كان هذا صحيحاً فإن ذلك يعني أن القبة الأصلية كانت من الخشب[٢] .

وتذكر أستاذتنا الدكتورة (سعاد ماهر) أن الفرق كبير بين قبة الصخرة وقبة قلاوون لأن تخطيط قبة الصخرة الخارجي مثمن بينما هو في قلاوون مربع ، كما أن القبة التي تعلو الصخرة تقوم على أعمدة تعلوها رقبة مستديرة بينما هي في قبة قلاوون رقبة مثمنة[٣] .

ويذكر (ريشموند) أن هذا التخطيط متأثر بتخطيط الكنائس المسيحية السورية فيما قبل العصر الإسلامي ومن أمثلتها كنيسة القديس جورج في عررا[٤].

(٣) المدرسة :

ذكر بعض علماء الآثار أن تخطيط المدرسة المنصورية متأثر بتخطيط المدارس

---

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ـ ص: ١١٨ .
كمال الدين سامح : تطور القبة في العمارة الإسلامية ـ (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ـ المجلد ١٢ ـ جـ ١ ـ مايو ١٩٥٠ م) ص: ٢٠ .
كونل (رانست) : الفن الإسلامي ـ ترجمة أحمد موسى ـ بيروت ١٩٦٦ م ص: ١٠٧ .

Lane - Pool (S), Art of the Saracens in Egypt, PP. 73-74.

Saladin (H), Manuel d'Art Musulman, Vol 1, Paris, 1907, PP. 117-118.

Hautecoeur (L.) et Wiet (G.).

Les Mosquées du Caire, Paris, 1932, PP. 260-261.

(٢) Creswell, OP-Cit. P. 194, 203.

(٣) سعاد ماهر : مساجد مصر جـ ٣ ـ ص: ٧٢ .

(٤) Richmond (E.T.), Moslem Architecture, London, 1926, P. 118.

السورية ، وأن تخطيط الإيوان القبلي منها بصفة خاصة متأثرة بالعمارة المسيحية في سوريا ولا سيما ذات التخطيط البازيليكي المكون من ثلاثة أروقة أوسطها أوسعها[١].

والواقع أنه إذا كانت المدارس المصرية بصفة عامة قد تأثرت حال نشأتها في العصر الأيوبي بالمدارس السورية ، إلا أن تخطيطها قد اختلف وتطور في مصر تطوراً محلياً حيث استمد مقوماته من التخطيط المعماري للدور السكنية الذي كشفت حفائر الفسطاط عن نماذج منه ترجع إلى العصر الطولوني وقد استمر هذا التخطيط متبعاً في العصور التالية مع ما أدخل عليه من إضافات تناسب كل عصر من هذه العصور[٢] .

ثانياً : العناصر المعمارية :

لما كانت مجموعة قلاوون تزخر بالعديد من العناصر المعمارية كما سبق أن أوضحنا ، لذلك سوف نسلط الأضواء في هذه الفقرة على بعض هذه العناصر وذلك على النحو التالي :

(١) العقود :

ظهرت في مجموعة السلطان قلاوون نماذج مختلفة من العقود يهمنا منها هنا العقد حدوة الفرس والعقود ذات الوسائد .

(أ) العقد حدوة الفرس :

استخدم هذا النوع من العقود في أجزاء مختلفة من مجموعة السلطان قلاوون سواء في الداخل أو في الخارج ، وقد قام بعض العلماء العرب والأجانب باستعراض ودراسة نماذج هذا العقد في شرق وغرب العالم الإسلامي وانتهوا إلى القول بأن ظهوره في مجموعة قلاوون يعد أحد تأثيرات الغرب الإسلامي التي تسربت إلى العمارة المملوكية في تلك الفترة وما بعدها[٣] .

---

(١) Ibid, P. 125.

Hautercoeur et Wiet, OP-Cit. P. 265.

Creswell, OP-Cit. P. 196

(٢) عباس حلمي : المدارس الإسلامية ودور العلم وعمارتها الأثرية ـ ص: ١٥٦ ـ ١٥٨ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية ـ المحلة العدد ١٢ ـ ديسمبر ١٩٥٧ م ـ ص: ٩٦ ـ ٩٧ .

قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ـ جـ٢ ـ بيروت ١٣٩٠ هـ ـ ص: ٦٢ ـ ٦٣ .

Creswell, OP-Cit P. 202.

Shafei (F), West Islamic Influnces on Architecture Egypt, PP. 33-34.

كذلك فإن تخطيط محراب كل من القبة والمدرسة على هيئة العقد حدوة الفرس يعد هو الآخر أحد تأثيرات الغرب الإسلامي في تلك الفترة[1] .

(ب) العقود ذات الوسائد Cushion Voussoirs :

ظهر هذا النوع من العقود في بعض أجزاء من مجموعة قلاوون منها عقد المدخل الأصلي للمدرسة ، وعقد المدخل المؤدي حالياً إلى القاعة التي تتقدم القبة ، ومنها عقود البدن الثاني للمئذنة .

ومن المعروف أن هذا النوع من العقود قد ظهر قبل ذلك في العمارة الفاطمية ومن أمثلته الباقية ما نراه في باب الفتوح ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م حيث يوجد على جانبي البرجين دخلة غائرة يتوجها هذا النوع من العقود . .

ومن نماذج العصر المملوكي ما نراه في جامع الظاهر بيبرس البندقداري ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م وفي مجموعة قلاوون في الأجزاء السابق الإشارة إليها ، وبعد ذلك ظهرت في بضعة نماذج منها مئذنة سلاروسنجر ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م ، ومدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير وفي قبة على بدر القرافة في قرافة السيوطي ، وقبة يونس الدوادار (أنس) بقرافة صحراء المماليك ، كذلك ظهر هذا النوع من العقود في بضعة نماذج من العصر العثماني .

(٢) الدخلات المعقودة بالواجهة :

أثارت واجهة مجموعة قلاوون ـ بما تشتمل عليه من دخلات معقودة بداخلها قمريات مطاولة من أسفل تعلوها قنديليات بسيطة من أعلى نافذة توأمية ـ مزدوجة ـ تعلوها قمرية مدورة ـ انتباه علماء الآثار فمنهم من ذكر أنها تعطي انطباعاً للتأثيرات القوطية أو الصليبية[2] ، وقد أحل البروفيسور (كريزول) الانطباع الرومانسكي محل الانطباع القوطي[3] .

وبالنسبة لدخلات واجهة قلاوون، المتوجة بعقود مرتكزة على أكتاف بارزة أسفل كل كتف منها عمود رخامي ، فقد ذكر (كريزول) أن هذه الظاهرة ظهرت

---

(١) Creswell, OP-Cit. P. 202.

Shafei, OP-Cit. P. 33.

(٢) Franz Pascha, Kairo, Leipzig, 1903, P. 54.

Saladin, OP-Cit. P. 118.

Richmond, OP-Cit P. 125.

(٣) Creswell, OP-Cit. P. 198.

بوضوح في الكنائس الصليبية ، وظهرت بعد ذلك في جامع الرملة الذي بناه الظاهر بيبرس ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٧ ـ ١٢٦٨ م بعد استيلائه على يافا ثم ظهرت في جامعة بالقاهرة ومن ثم فإن ظهورها في واجهة قلاوون أمر غير مثير للدهشة[١] .

وبعد أن استعرض البروفيسور (كريزول) نماذج هذه الدخلات في العمارة المسيحية انتهى إلى القول بأنها مستعارة من العمارة الصليبية وقد طبقها أولاً الظاهر بيبرس ومن بعده المنصور قلاوون .

أما بالنسبة للنوافذ ذات الثلاث فتحات (القندليات) فقد أرجعها كريزول إلى نوع خاص من التأثير الرومانسكي ، ومن المحتمل أنه جاء مباشرة عن طريق صقلية[٢] .

والواقع أن ظاهرة زخرفة الواجهات بتقسيمها إلى دخلات أو حشرات غائرة بينها أكتاف أو أعمدة ملتصقة بالجدران ، ويتكون منها صف أفقي أو أكثر وتتوج تلك الدخلات أو الحشوات في أغلب الأحيان عقود متتالية ، قد استخدمت في العمارة الإسلامية قبل العصر المملوكي بوقت طويل ومن أمثلتها باب بغداد بالرقة ، والجدران المحيطة بالفناء الأوسط بقصر الأخيضر ، ويبدو أن هذه الفكرة مقتبسة من العمارة الساسانية ومن أمثلتها واجهة طاق كسرى وفي قصري فيروز آباد وسرفستان وغير ذلك .

واختفت هذه الظاهرة فترة من الوقت ثم عادت إلى الظهور بعد أن اكتسبت طابعاً عربياً وإسلامياً ناضجاً وذلك في بعض العمائر الفاطمية ثم انتشرت في العصر الأيوبي وزاد انتشارها في العصر المملوكي[٣] .

أما بالنسبة للنوافذ التوأمية (المزدوجة) فتعد هي الأخرى إحدى تأثيرات الغرب الإسلامي التي تسربت إلى العمارة المملوكية في تلك الفترة وما بعدها[٤] .

---

(١) Ibid, P. 199.

(٢) Ibid, P. 201.

(٣) فريد شافعي : العمارة العربية ـ ص: ٢١٣ ـ ٢١٤ .

Shafei, OP-Cit. P. 33

(٤) السيد عبد العزيز سالم : بعض التأثيرات الأندلسية ـ ص: ٩٧ .

قرطبة جـ ٢ ـ ص: ٦٢ .

وفي ضوء ما سبق يتضح أن العناصر المستخدمة في واجهة قلاوون ـ الدخلات المعقـودة والنوافـذ المزدوجـة ـ ما هي إلا حلقـة من سلسلة تطور طبيعي لعنـاصر استخدمت قبل مجموعة قـلاوون بأربعـة قرون على الأقـل ، ولكن هؤلاء العلماء المستشرقين لم يحاولوا أن يتجهوا أولاً إلى تتبع هذه الحلقات ولم يعيروا أهمية ستة قرون ونصف مضت على الفتح العربي الإسلامي لمصر قبل بناء مجموعة قلاوون ، ولم يقدروا ما حملته تلك الحقبة التاريخية الطويلة من الأحداث السياسية والاجتماعية والتطورات العقلية والشعورية(١) .

ثالثاً : الزخارف :

(١) الزخارف الجصية :

سبق القول بأن الزخارف الجصيـة بمجموعـة قلاوون تعـد من أجمل وأروع النماذج الباقية لهذا النوع من الزخارف سواء في الأسلوب الصناعي أم في الأسلوب الفني .

ويمكن القول بأن هذه الزخارف تعتبر تطوراً مستمراً لذلك النوع من الزخرفة ، الذي وصلتنا نماذج رائعة منه في العصر الطولوني فالفاطمي فالأيوبي ، وإن كان هذا لم يمنع ظهور بعض التأثيرات المغربية الأندلسية في بعض هذه الزخارف كما سبق القول .

(٢) الفسيفساء الرخامية :

يذكر (كريزول) أن أقدم مثل باقٍ لهذا الاستخدام في العمارة الإسلامية يوجد في بيمارستان نور الدين في دمشق ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م ، يلي ذلك قبة الظاهر بيبرس في دمشق أيضاً ، وهي الملحقة في الركن الجنوبي الغربي من المدرسة الظاهرية ، وقد بنيت القبة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م .

ويضيف (كريزول) على ذلك فيذكر أن قلاوون هو الذي أدخل هذه الطريقة إلى مصر ، واستخدمت لزخرفة الجدران والدعامات في القبة المصرية ، وأيضاً في حنية المحراب وكوشات عقد المحراب ، بالإضافة إلى أحواض السلسبيلين الباقيين من البيمارستان ، وعلى ذلك فهذه الطريقة مستقـاة هي الأخرى من سوريا(٢) .

---

(١) أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ـ المدخل ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦١ م ص: ٤٢ .

(٢) حسن عبد الوهاب : مميزات العمارة الإسلامية في القاهرة ـ (مؤتمر الآثار في البلاد العربية ـ دمشق ١٩٤٧ م) ص: ١٨٦ .

(٣) **الفسيفساء المذهبة :**

استخدمت الفسيفساء المذهبة في كسوة بعض طواقي المحاريب في العمارة المصرية الإسلامية ، ومن الأمثلة الباقية الدالة على ذلك طاقية محراب كل من قبة شجر الدر والصالح نجم الدين أيوب عن العصر الأيوبي وطواقي محاريب كل من مدرسة قلاوون ، وجامع أحمد بن طولـون ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م والمدرسة الطيرسيـة بالأزهر ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م ، والمـدرسة الأقبغلويـة بالأزهـر ٧٤٠ هـ/ ١٣٤٠ م ، ومسجد الست مسكة (حدق) ٧٤٠ هـ/ ١٣٤٠ م[١] .

(٤) **الخط الكوفي المربع :**

يمتاز هذا الخط عن بقية أنواع الخطوط الكوفية بأنه شديد الاستقامة ، قائم الزوايا ، أساسه هندسي بحت ، ولا تزال نشأته غامضة وأغلب الظن أن فكرة الزخرفة بالطوب المختلف الحرق في الطرق وفارس والمعروفة (بالهذارباف)[٢] هي التي أوحت به وهو شائع في مساجد إيران والعراق[٣] .

ومن نماذج هذا النوع من الخط خارج مصر ما نراه في مئذنة جامـع ماردين ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ ـ ١١٧٧ م ، ومئذنة قطب الدين في سنجار (Sinjar) ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م[٤] .

أما نماذجه في العمارة المصرية الإسلامية فنراها في قبة قلاوون وبعد ذلك في منشأة كل من زين الدين يوسف ، والتربة السلطانيـة بقرافـة السيوطي ، والسلطان حسن والمؤيد شيخ ، وكافور الزمام ، وجانب بك بالمغربلين ، والجمالي يوسف ، وفيروز الساقي ومسجد البرديني من العصر العثماني وغير ذلك من الأمثلة[٥].

(٥) **الحجر المشهر :**

شاع استخدام الحجر المشهر في معظم المنشآت المملوكية بالقاهرة ، وتعتبر

---

(١) Creswell, OP-Cit. P. 203.

(٢) تتكون زخارف الهذارباف في وضع الطوب المختلف الحرق في أوضاع رأسية وأفقية بحيث تنشأ من ذلك أشكال هندسية وكتابية لا حصر لها .

(٣) إبراهيم جمعة : دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة ـ ص: ٤٦ .

(٤) Creswell, OP-Cit. P. 203.

(٥) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ـ ص: ٢١٨ .
إبراهيم جمعة : المرجع السابق والصفحة نفسها .

بوابة المدخل الجنوبي الغربي بجامع الظاهر بيبرس أقدم مثال قائم معروف في مصر بالنسبة لاستخدام الحجر المشهر كحلية معمارية .

وقد استخدم هذا الحجر المشهر في مجموعة السلطان قلاوون على هيئة مربعات الشطرنج وذلك في باطن العقد الدائري الذي يتوج حنية المدخل ، وفي واجهة المدرسة ، وفي جوانب الطابق الأول من المئذنة ، وتعد هذه الطريقة هي الأخرى إحدى تأثيرات الغرب الإسلامي التي ترسبت إلى العمارة المملوكية في تلك الفترة وما بعدها[١] .

(٦) الشرافات :

من المعروف أن الشرافات قد استخدمت لتتويج الواجهات قبل العصر الإسلامي في مباني الأشوريين والإيرانيين ، كذلك استعملها الرومان فوق الحصون ، وفي مصر يوجد أسفل الشرفة كورنيش بطول الواجهة على شكل رقبة معكوسة[٢] .

ومن أنواع الشرافات التي استخدمت في العمارة المصرية ـ باستثناء شرافات جامع أحمد بن طولون ـ الشرافات المسننة ، والشرافات التي تأخذ هيئة الورقة النباتية الثلاثية أو الورقة النباتية الخماسية (المركبة) ، وقد زينت بعض هذه الشرافات ، ولا سيما وجهها الخارجي ، بالزخارف النباتية المتقنة التنفيذ[٣] .

وتعتبر الشرافات المسننة بواجهة مجموعة قلاوون هي أقدم مثال باقٍ حتى اليوم استخدم في زخرفة وجهها الخارجي الزخارف النباتية المتقنة التنفيذ ، تلك الزخرفة التي بلغت ذروة نضجها في شرافات منشأة الغوري بالغورية .

(٧) المئذنة :

تمثل قاعدة مئذنة قلاوون (البدن المربع الأول) رغم ما فيها من تأثيرات زخرفية أندلسية التأثير السوري الذي ظهر أيضاً في مئذنة فاطمة خاتون (أم الصالح) .

---

(١) سامي عبد الحليم : الحجر المشهر : حلية معمارية بمنشآت المماليك ـ في القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٨٤ م ـ ص: ٣٨ ـ ٣٩ ، ٤٢ .

(٢) صالح لمعي : التراث المعماري الإسلامي في مصر ـ بيروت ١٩٧٥ م ـ ص: ٥٠ .

(٣) عن هذه الشرافات ونسبها المختلفة راجع :
دللي (جوزف ولفرد) : العمارة العربية بمصر ـ ترجمة محمود أحمد ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٢٣ م ـ ص: ٨ ـ ٩ .

وتتجلى التأثيـرات الأندلسية في مئذنة قلاوون في أعلى البدن المربع الأول إذ نرى إفريزاً من المقرنصات يشبه إفريز العقود المتجاوزة المتشابكة الذي نراه في مئذنة جامع إشبيلية وغيرها من مآذن الموحدين كذلك فإن البدن المـربع الثـاني يكشـف بجلاء عن هذا التأثير في إفريز العقود الثلاثية الفصوص الذي يعلو هذا البدن ، وفي العقد المتجاوز (العقد حدوة الفرس) الذي يتوسط هذا البـدن بأوجهـه الأربعة ، كذلك فإن زخارف البدن الثالث المستدير ، التي تمثل شبكة من المعينات ، تشبه ذلك النوع من التشبيكات التي ظهرت في واجهة بهو الجص بقصر إشبيلية وزخارف المعينات بالجيرالدا[1] .

(١) السيد عبد العزيز سالم : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني ـ الإسكندرية ـ الطبعة الثانية ـ بدون تاريخ ـ ص: ٣٠ ـ ٣١ .
القاهرة مدينة المآذن ـ المجلة ـ العدد ١٦ ـ أبريل ١٩٥٨ م ص: ٣٩ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا : الوثائق

- حجة أوقاف البيمارستان المنصوري القلاووني ونص ما جاء من أوقاف البيمارستان والقبة وما له من محلات ، ويتضح فيها استيلاء الناظر وهو عبد الرحمن كتخدا على الوقف تحت اسم التشفيع .
«أوقاف ١٠١٢».
- حجة عبد الرحمن كتخدا «أوقاف ٩٤١» .

ثانيا : المصادر العربية المخطوطة

- البلوي : (خالد بن عيسى البلوي أبو البقاء) تـاج المفرق في تحلية علماء أهل المشرق . (مخطوط دار الكتب المصرية ـ ١٠٥٣ جغرافيا ـ مكرو فيلم ٤٨١١٩ جغرافيا) .

ثالثاً : المصادر العربية المطبوعة

- ابن إياس :(محمد بن أحمد بن إياس الحنفي) ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٣ م ، بدائع الزهور في رقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٨٢ م .
- ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م الرحلة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، دار الكتاب المصري ـ دار الكتاب اللبناني ـ القاهرة ، بيروت ـ بدون تاريخ .
- ابن تغري بردي : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ١٢ جزءاً ـ تحقيق محمد رمزي نسخة

مصورة عن طبعة دار الكتب (سلسلة تراثنا) .
- ابن حبيب : (الحسن بن عمر) ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه - جـ ١ تحقيق محمد أمين - مراجعة وتقديم سعيد عاشور القاهرة ١٩٧٦ م .
- ابن دقماق : (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي) ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦ م ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار - جـ ٤ ، جـ ٥ ، بولاق ١٣٠٩ هـ/ ١٩٨١ م .
- ابن شاكر الكتبي : (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي) ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م ، فوات الوفيات - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - ٢ جزء - القاهرة ١٩٥١ م .
- ابن شاهين الظاهري : (غرس الدين خليل) ت ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٨ م زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - نشره بولس راويس - باريس ١٨٩٤م.
- ابن شاهين المالطي : (عبد الباسط بن خليل) نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين - تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٨٧ م .
- ابن العماد : (أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي) ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م . شذرات الذهب في أخبار من ذهب - جزء بيروت بدون تاريخ .
- ابن عبد الظاهر : (محيي الدين بن عبد الظاهر) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور - تحقيق مراد كامل - مراجعة محمد علي النجار (سلسلة تراثنا) الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦١ م .
- ابن الفرات : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) تاريخ ابن الفرات - المجلد السابع - تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٤٢ م ، المجلد الثامن تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين - بيروت ١٩٣٩ م .
- ابن منظور : (جمال الدين محمد بن مكرم) ت ٧١١ هـ/ ١٣١١ م لسان العرب - ٢٠جزءاً - طبعة مصورة عن طبعة بولاق (سلسلة تراثنا) .
- الدوادار : (بيبرس) ت ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة - جـ ٩ - تحقيق زبيدة عطار - رسالة دكتوراه - كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٢ م ، نشرت هذه الرسالة مؤخراً .
- الزبيدي : (محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي) ت ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩١ م شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس - القاهرة ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٩ م .

- الزمخشري: (جاد الله أبي القاسم محمود بن عمر) . أساس البلاغة ـ القاهرة ١٩٢٣ م .
- السخاوي : (أبي الحسن نور الدين علي بن أحمد بن عمر بن خلف بن محمود السخاوي الحنفي) تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ، قام بتصحيحه ومراجعته والتعليق عليه محمود ربيع وحسن قاسم الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م .
- السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ـ ٢ جزء ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٦٨ م .
- العيني : (بدر الدين) ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ـ جـ ٢ ـ حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين (مركز تحقيق التراث) القاهرة ١٩٨٨ م .
- القلقشندي : (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد) ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ ١٤جزءاً ـ القاهرة ١٩١٨ م ـ ١٩٢٢ م .
- المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي) ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م السلوك لمعرفة دول الملوك ـ الجزء الأول والثاني (ستة أقسام)، تحقيق محمد مصطفى زيادة الجزء الثالث والرابع (ستة أقسام) تحقيق سعيد عاشور ـ القاهرة ١٩٧٠ م ـ ١٩٧٣ م .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزي ـ ٢ جزء ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٨٧ م .
- النابلسي : (عبد الغني بن إسماعيل) ت ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠ م الحقيقة والمجاز في الرحلة لبلاد الشام ومصر والحجاز ـ تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي . (مركز تحقيق التراث) القاهرة ١٩٨٦ .

رابعا : المراجع العربية

- ابتسام مرعي خلف الله : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي دار المعارف ١٩٨٥ م .
- إبراهيم طرخان : النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٠ م .
- أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ، ١٩٨١ م .

- أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها - المدخل - دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .
- أحمد عبد الكريم سليمان : المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون - الطبعة الأولى - ١٩٨٤ م .
- السيد الباز العريني : الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك - القاهرة ١٩٥٦ م .
- السيد عبد العزيز سالم : - طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي - الإسكندرية ١٩٦٦ م .
- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس - بيروت - ١٣٩٠ هـ .
- المآذن المصرية - نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني - الإسكندرية - طبعة ثانية بدون تاريخ .
- حامد زيان غانم : الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر «عصر سلاطين المماليك» - القاهرة ١٩٧٦ م .
- حسن الباشا : - الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية - ٣ أجزاء - القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م .
- سيف الدين قلاوون - بحث في كتاب القاهرة - مؤسسة الأهرام ١٩٧٠ م .
- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار - طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٧٨ م .
- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية - ٢ جزء - القاهرة ١٩٤٦ .
- حسين عليوة : كرسي الناصر - بحث في كتاب القاهرة - مؤسسة الأهرام ١٩٧٠ م .
- حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية - القاهرة ١٩٦٧ م .
- سامي عبد الحليم : الحجر المشهر - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٨٤ م .
- سعاد ماهر محمد : - القاهرة القديمة وأحياؤها - المكتبة الثقافية العدد ٧٠ - أكتوبر ١٩٦٢ م .
- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - خمسة أجزاء - القاهرة ١٩٧٠ م - ١٩٨٦ م .
- الفنون الإسلامية - القاهرة ١٩٨٦ م .
- سعيد عاشور : - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك - الطبعة الأولى ١٩٦٢ م .
- الظاهر بيبرس - أعلام العرب - العدد ١٤ - القاهرة ١٩٦٣ .
- الحركة الصليبية - ٢ جزء - الطبعة الأولى ١٩٦٣ م .

ـ العصر المماليكي في مصر والشام ـ الطبعة الأولى ١٩٦٥ م .
ـ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ـ القاهرة ١٩٦٩ م .
ـ مصر في العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٨٦ م .
ـ صالح لمعي مصطفى : التراث المعماري الإسلامي في مصر ـ بيروت ـ ١٩٧٥ م .
ـ عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق في خدمة الآثار ـ المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية المنعقد في بغداد فيما بين ١٨ ـ ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧ م ـ القاهرة ١٩٥٨ م .
ـ عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر جـ ٢ ـ دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه ـ القاهرة ١٩٦٧ م .
ـ علي إبراهيم حسن : ـ مصر في العصور الوسطى ـ الطبعة الخامسة ـ ١٩٦٤ م .
ـ تاريخ المماليك البحرية ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٧ .
ـ فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ـ القاهرة ١٩٧٦ م .
ـ فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية ـ المجلد الأول ـ عصر الولاة ـ القاهرة ١٩٧٠ م .
ـ قاسم عبده قاسم : ـ دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (عصر سلاطين المماليك) ـ القاهرة ١٩٧٩ م .
ـ أهل الذمة في مصر العصور الوسطى ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٧٩ م .
ـ كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر ـ مطبعة جامعة القاهرة ـ ١٩٧٠ م .
ـ محمد أمين : ـ الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ـ الطبعة الأولى ١٩٨٠ م .
ـ وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري (ملحق بكتاب تذكرة النبيه لابن حبيب جـ ١ ـ مطبعة دار الكتب ١٩٧٦) .
ـ محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٤٧ م .
ـ محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة ـ القاهرة ١٩٣٨ .
ـ مصطفى شيحة : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية العربية اليمنية ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٨٧ م .
ـ نعيم زكي عطية : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ـ القاهرة ١٩٧٣ م .

خامساً : المراجع الأجنبية المعربة

- جان ليون الإفريقي : (الحسن بن محمد الوزان الفاسي) : وصف أفريقيا ـ ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر ـ الطبعة الأولى ـ الرباط ١٩٨٢ م .
- جومار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ـ نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه ـ أيمن فؤاد سيد ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٨٨ م .
- دللي (ولفرد جوزف) : العمارة العربية بمصر (في شرح المميزات البنائية الرئيسية للطراز العربي) ـ ترجمة محمود أحمد الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٢٣ م .
- كازانوفا (بول) : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ـ ترجمة وتقديم أحمد داج ، مراجعة جمال محرز ـ القاهرة ١٩٧٤ م .
- كونل (أرنست) : الفن الإسلامي ـ ترجمة أحمد موسى ـ بيروت ١٩٦٦ م .
-ماير (ل. أ) : الملابس المملوكية ـ ترجمة صالح الشتي ـ مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمي ـ القاهرة ١٩٧٢م.
- نيبور (كارستن) : رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ـ جـ ١ ـ رحلة إلى مصر ١٧٦١ ـ ١٧٦٢ م ـ ترجمها وعلق عليها وقدم لها مصطفى ماهر.

سادساً : الرسائل العلمية

- جمال عبد الرحيم : الزخارف الجصية في عمائر القاهرة الدينية الباقية في العصر المملوكي البحري ـ ماجستير مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٨٦ م .
- جرجس ميخائيل : السلطان جقمق وحالة مصر في عصره (ماجستير ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٧٤) .
- حسين مصطفى حسين : المحاريب الرخامية في قاهرة المماليك البحرية (ماجستير ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٨٢) .
- عباس حلمي : تطور المسكن المصري الإسلامي من الفتح العربي حتى الفتح العثماني ـ (دكتوراه ـ مخطوط جامعة القاهرة ١٩٦٨ م) .
- عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري ـ (دكتوراه ـ مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٥٦ م) .
- محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ـ (ماجستير مخطوط ـ جامعة القاهرة ١٩٨٦ م) .
- محمد سيف النصر أبو الفتوح : منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية

عصر المماليك ـ (دكتوراه ـ مخطوط ـ جامعة أسيوط ١٩٨٠ م) .

سابعاً : الدوريات العربية

- السيد عبد العزيز سالم : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية ـ (المجلة ـ العدد ١٢ ـ ١٩٥٧ م) .
- آمال العمري : دراسة جديدة على ضريح المنصور قلاوون بالنحاسين (مستخرج من مجلة دراسات آثارية إسلامية ـ هيئة الآثار المصرية ـ المجلد الثالث ١٩٨٨ م) .

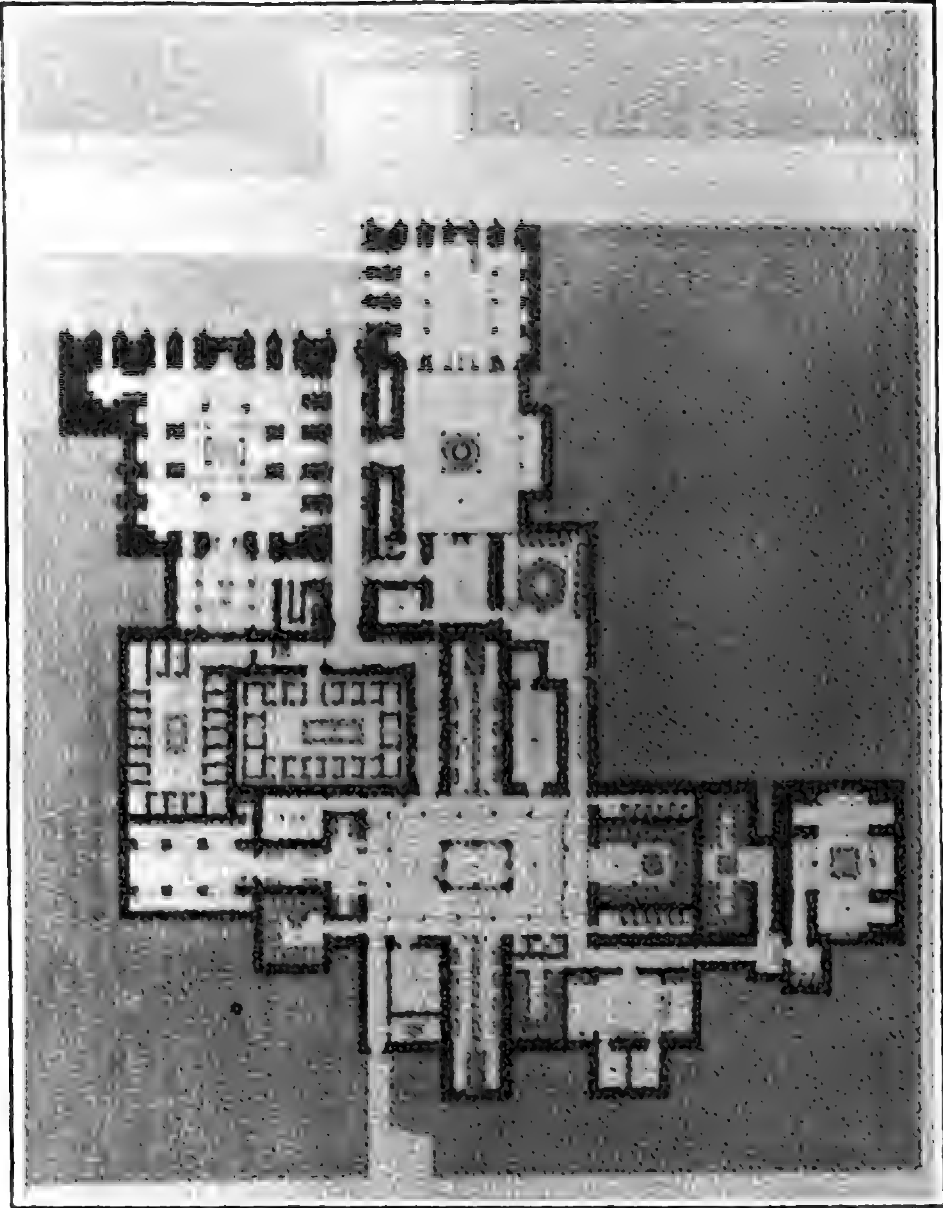
موارد المياه وتوزيعها في بعض المنشآت الدينية السلطانية بمدينة القاهرة ـ مجلة كلية آداب سوهاج ـ جامعة أسيوط ـ العدد ٧ ـ ١٩٨٨ م .

- حياة ناصر الحجي : ـ العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق ـ (حوليات كلية الآداب ـ جامعة الكويت ـ الحولية الثانية ـ الرسالة الثامنة في التاريخ ـ ١٩٨١ م) .
- البيمارستان المنصوري منذ تأسيسه وحتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ـ (المجلة العربية للعلوم الإنسانية ـ جامعة الكويت ـ المجلد ٨ ـ العدد ٢٩ شتاء ١٩٨٨ .
- دريد عبد القادر نوري : سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية في بلاد الشام ـ (مجلد آداب الرافدين ـ تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الموصل ـ العدد ٩ ـ ١٩٧٨ م) .
- سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى (المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد ١٤ ـ ١٩٦٨ م) .
- عباس حلمي : المدارس الإسلامية ودور العلم وعمارتها الأثرية نشأتها وتاريخها وتخطيط عمارتها ـ (مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ مكة المكرمة ـ السنة ٣ ـ العدد ٣ ـ ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨ هـ) .
- كمال الدين سامح : تطور القبة في العمارة الإسلامية ـ (مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ المجلد ١٢ ـ جـ ١ ـ مايو ١٩٥٠ م) .
- محمد سيف النصر أبو الفتوح : مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين بالقاهرة دراسة أثرية في ضوء وثيقة جديدة (مجلة كلية الآداب ـ جامعة صنعاء ـ ١٩٨٤ م) .
- محمد مصطفى نجيب : نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة

وتطوره خلال العصر المملوكي الجركسي ـ (الكتاب الذهبي ـ جـ ٢ ـ عدد خاص من مجلة كلية الآثار ـ ١٩٧٨ م) .
ـ مصطفى شيحة : أضواء على تاريخ العمارة الدينية في عصر بني رسول بـالبمن ـ (مجلة المؤرخ المصري ـ يصدرها قسم التاريخ بآداب القاهرة ـ العدد ٢ ـ يوليو ١٩٨٨ م) .

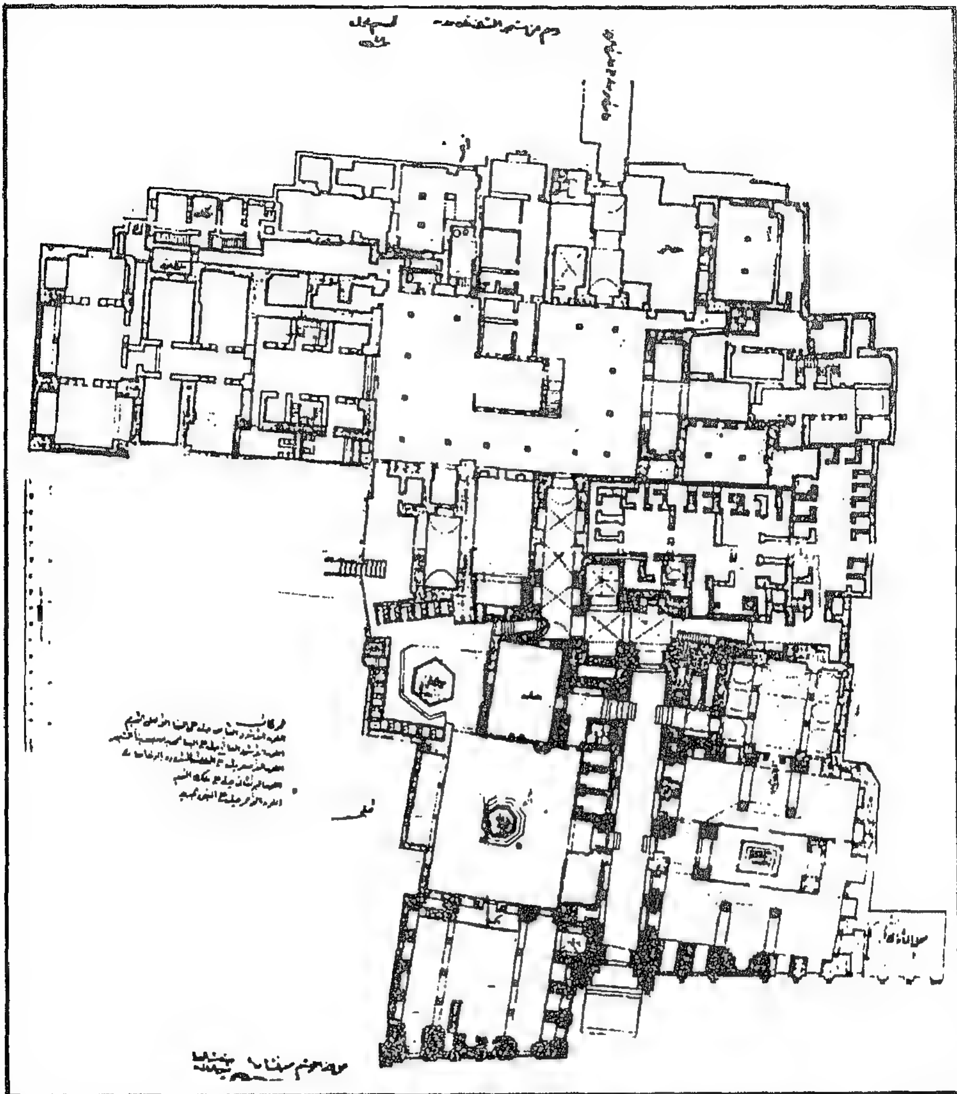
ثامناً : المراجع الأجنبية

- Berchem (M.V.)
  Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. Premiére Partie (Paris, 1894).
- Comité De Conservation Des Monuments De L'Art Arab, Exercice 1910, Le Caire, 1911.
- Coste (P.)
  Architecture Arabe An Monuments Du Kaire, Paris, 1839.
- Creswell (K.A.C.)
  - The Works of Sultan Bibars Al-Bunduqdári In Egypt, Le Caire, 1926.
  - The M S n Architecture of Egypt, Vol 2 - Oxford, 1959.
- Franch Pascha
  kairo, Leipzig, 1903.
- Hautecoeur (L) et Weit (G.)
  Les Mosquées du Caire, Paris, 1932.
- Lane - Pool (S)
  Art of the Saracens in Egypt, Reprint, Beirut.
- Mehren (A.F)
  Cáhirah og Kerâfat, Kjobenhavn, 1869-1870.
- Prisse D'Avennes
  L'Art Arabe D'aprés Les Monuments Du Kaire, Paris, 1811.
- Richmond (E.T)
  Moslem Architecture, London, 1926.
- Saladin (H)
  Manuel D'Art Musluman Vol 1, L'Architecture, Paris, 1901.
- Shafei (F)
  West Islamic Influnces on Architecture in Egypt - Before the Turkish Period, (Reprint from the Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo, University, Col XVI, Part II, December 1954) Cairo University, press 1955.



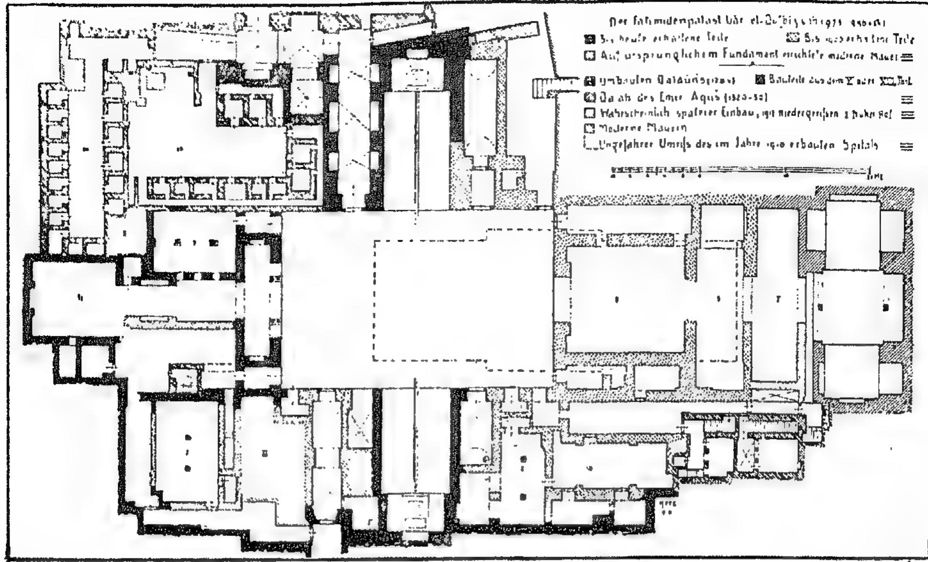
شكل رقم (١)
مسقط أفقي لمجموعة المنصور قلاوون
«البيمارستان والقبة والمدرسة»

عن (Coste)
Architecture Arab An Monuments Du Kaire, Paris, 1839



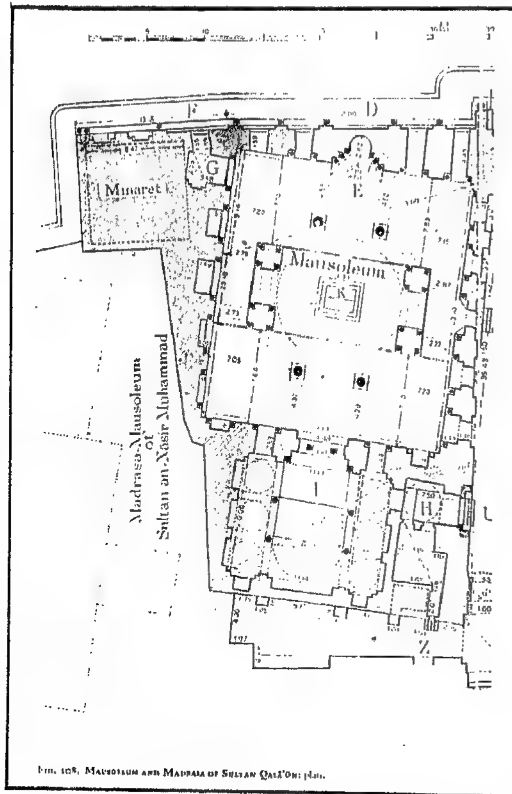
شكل رقم (٢)

مسقط أفقي لمجموعة السلطان قلاوون   عن لجنة حفظ الآثار العربية



شكل رقم (٣)

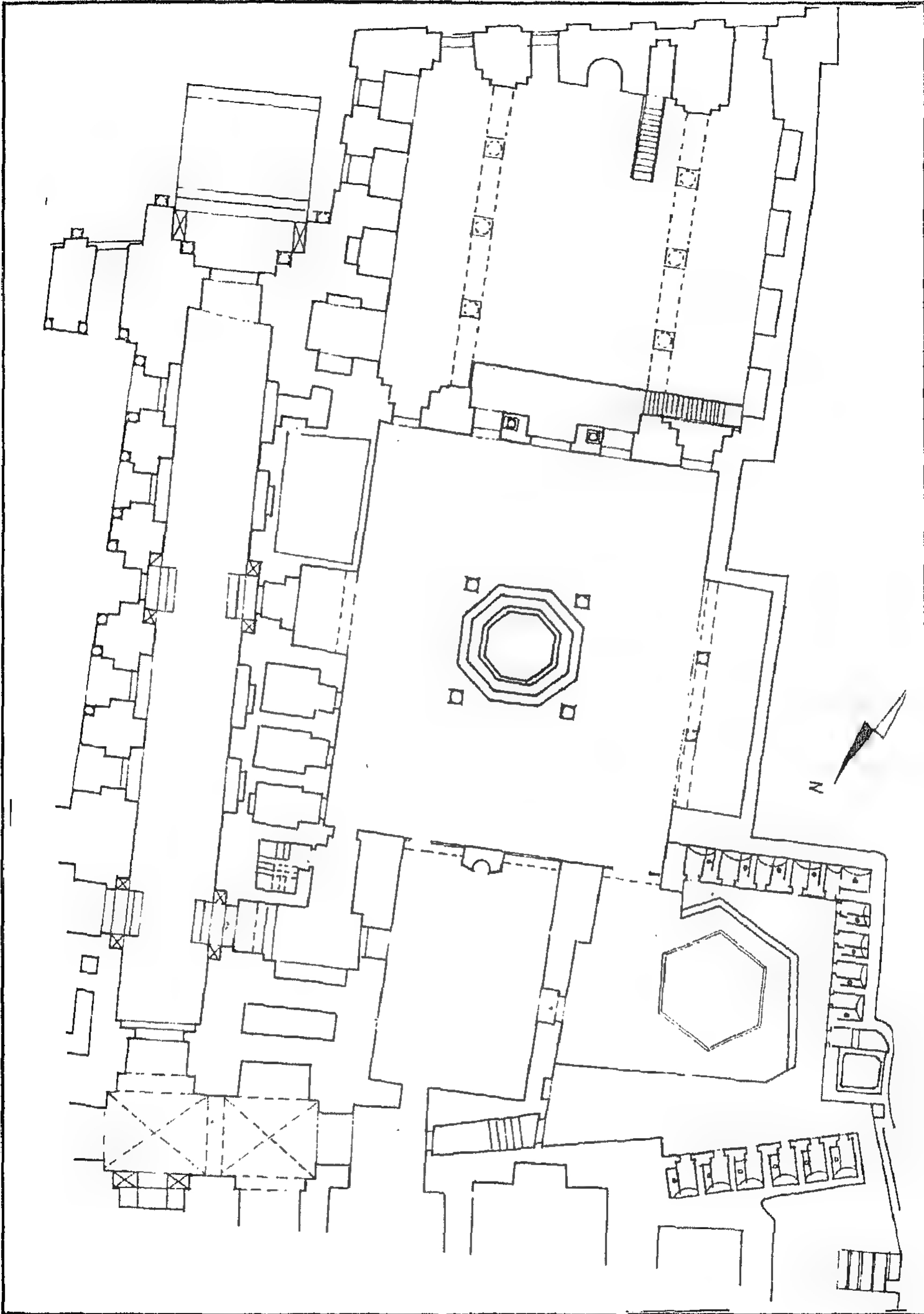
مسقي مسقط أفقي للبيمارستان المنصوري. قام برسمه هرتس باشا ١٩١٣ م. عن «كريزول»



شكل رقم (٤)

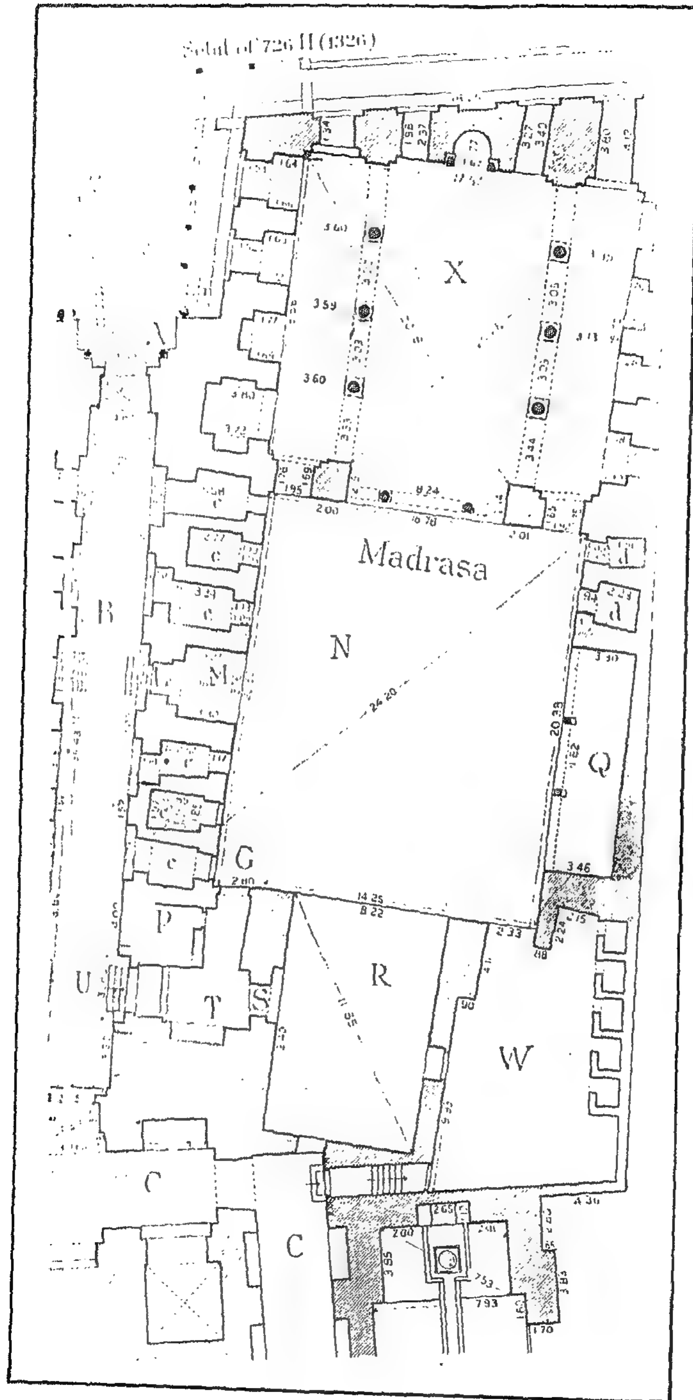
مسقط أفقي للقبة المنصورية

عن «كريزول»



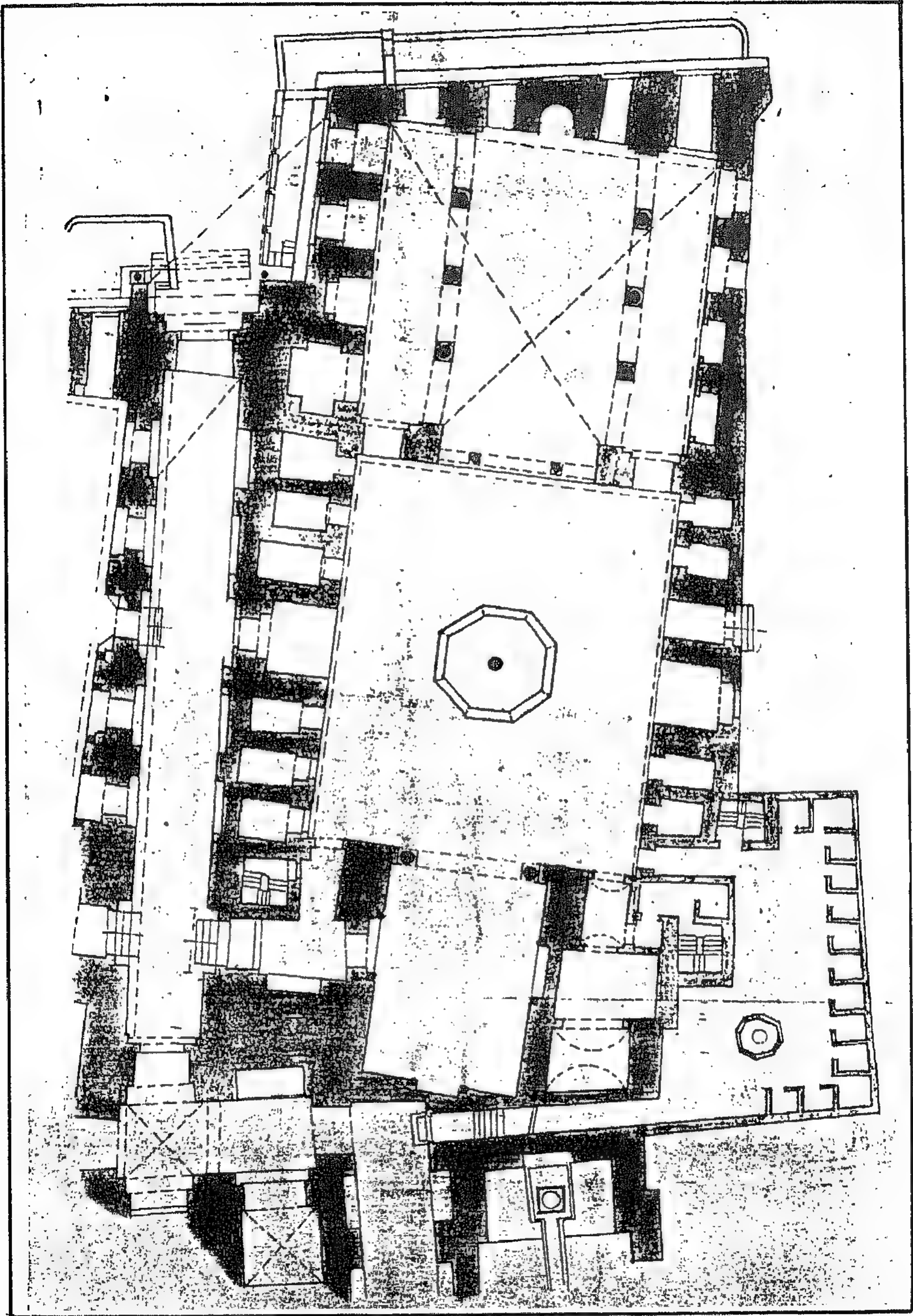
شكل رقم (٥)
مسقط أفقي للمدرسة المنصورية

عن «لجنة حفظ الآثار العربية»



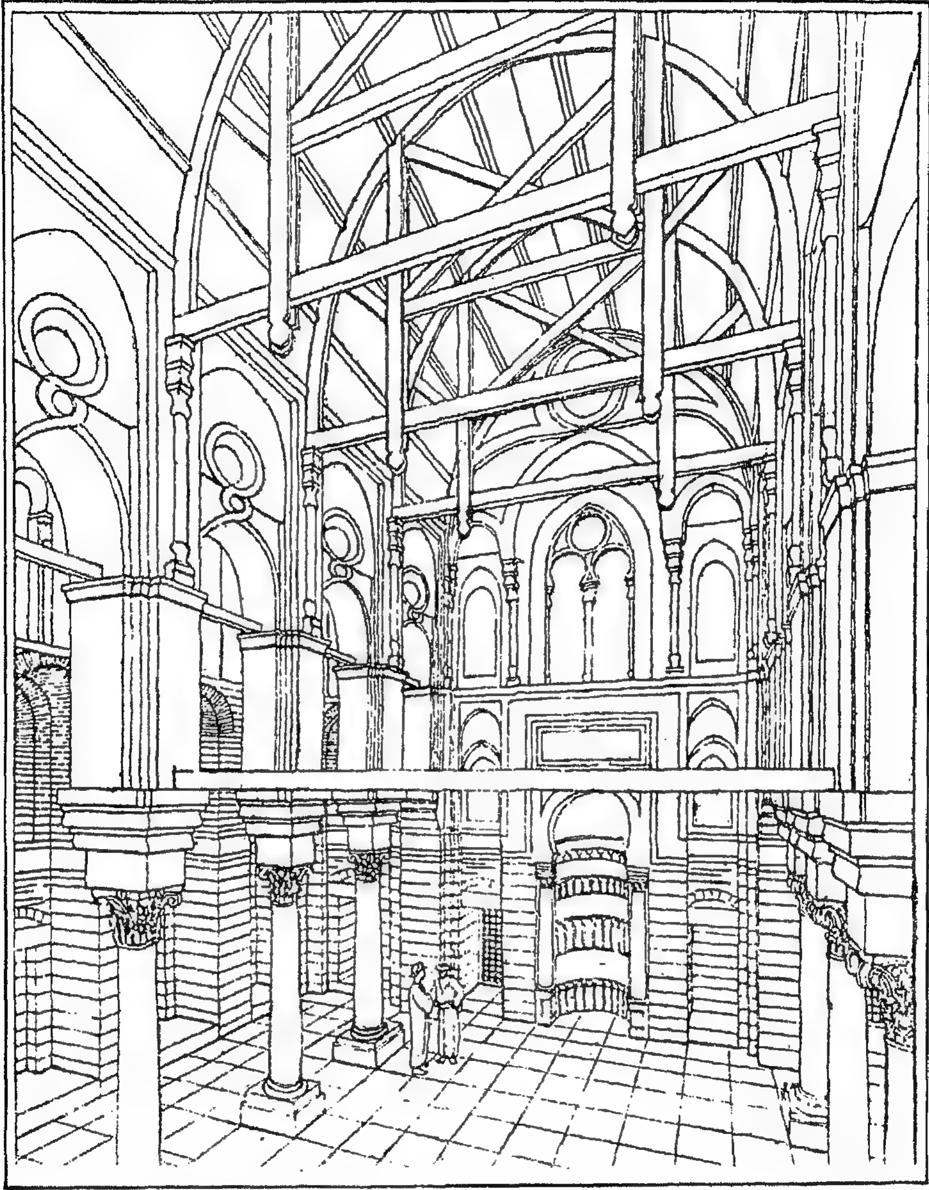
شكل رقم (٦)
مسقط أفقي للمدرسة المنصورية

عن «كريزول»



شكل رقم (٧)

مسقط أفقي لما كانت عليه المدرسة المنصورية وقت إنشائها عن «سيف النصر»



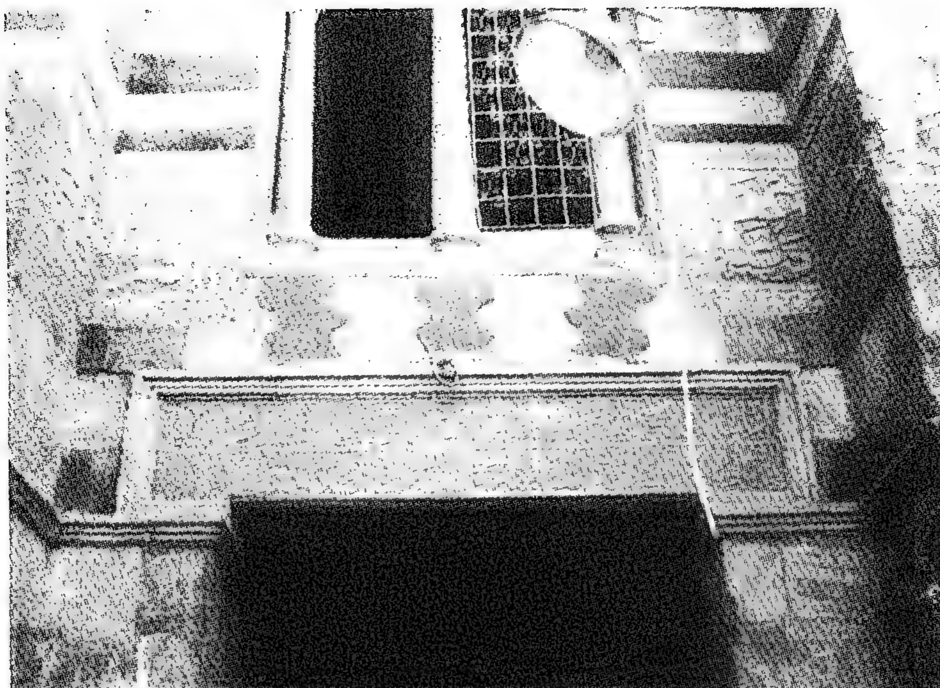
شكل رقم (٨)

تصور هرتس باشا لسقف إيوان القبلة للمدرسة المنصورية — عن «كريزول»

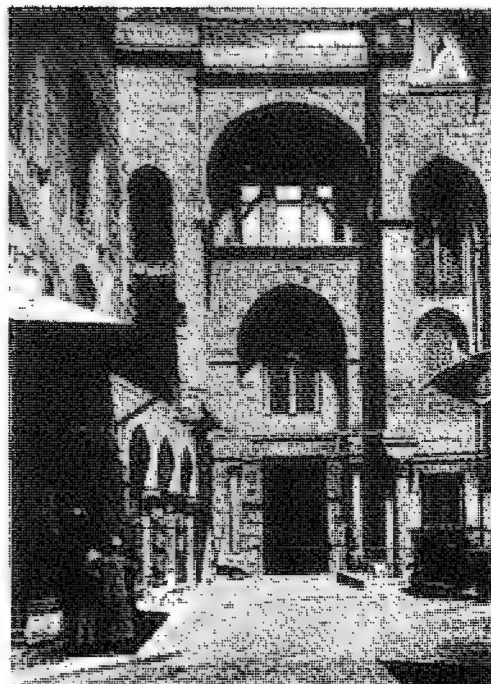


لوحة رقم (١)
المدخل العام (الرئيسي) لمجموعة السلطان قلاوون

تصوير الباحث

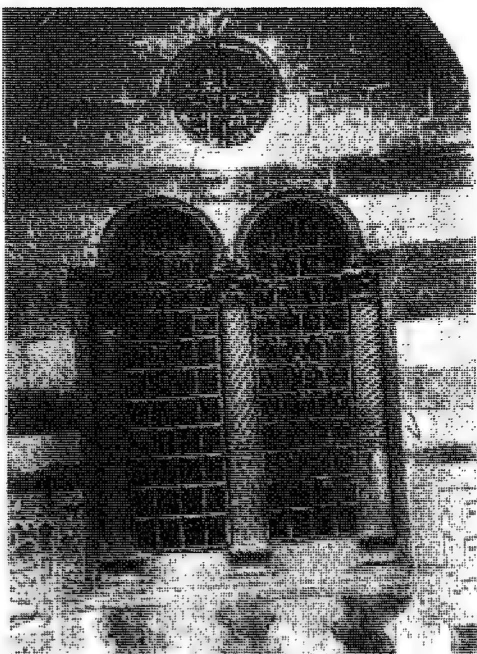


لوحة رقم (٢)
تفصيل لمدخل قلاوون



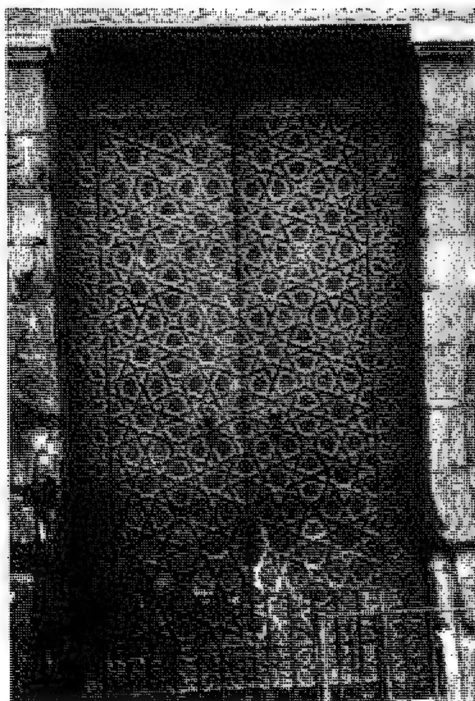
لوحة رقم (٣)
المدخل العام لمجموعة قلاوون

عن : Creswell (K.A.C)
The Muslim Architecture of Egypt. Vol. 2
PL. 66 B.



لوحة رقم (٤)
القندلية البسيطة بصدر المدخل العام لمجموعة قلاوون

عن : Creswell: OP. Cit.
PL. 66 C.



لوحة رقم (٥)
الباب الذي يغلق على المدخل العام لمجموعة قلاوون

عن : Ibid.
PL. 67 A.

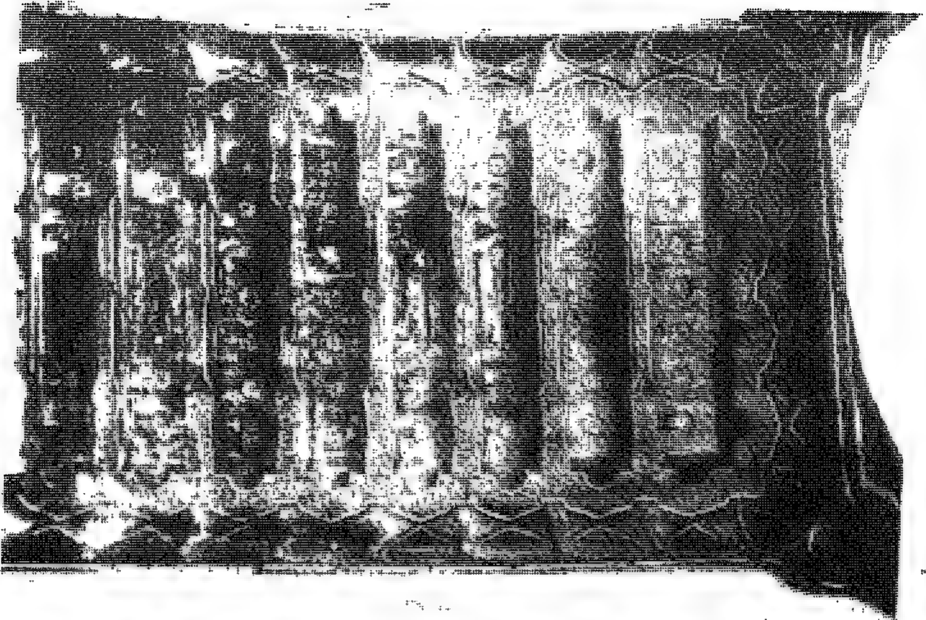


لوحة رقم (٦)
الدهليز الرئيسي المتفرع من المدخل العام لمجموعة قلاوون

تصوير الباحث

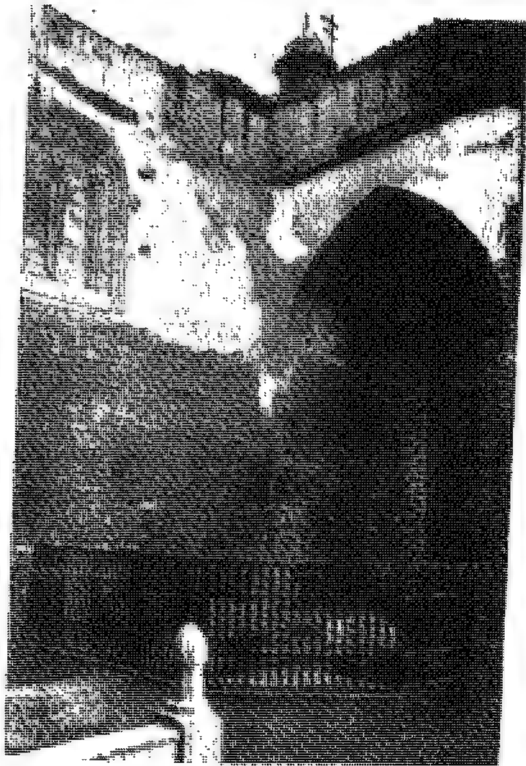


لوحة رقم (٧)
الدركاه المتفرعة من المدخل الموجود بصدر الدهليز الرئيسي السابق ومنه يتم التوصل
إلى البيمارستان وملحقاته المختلفة تصوير الباحث



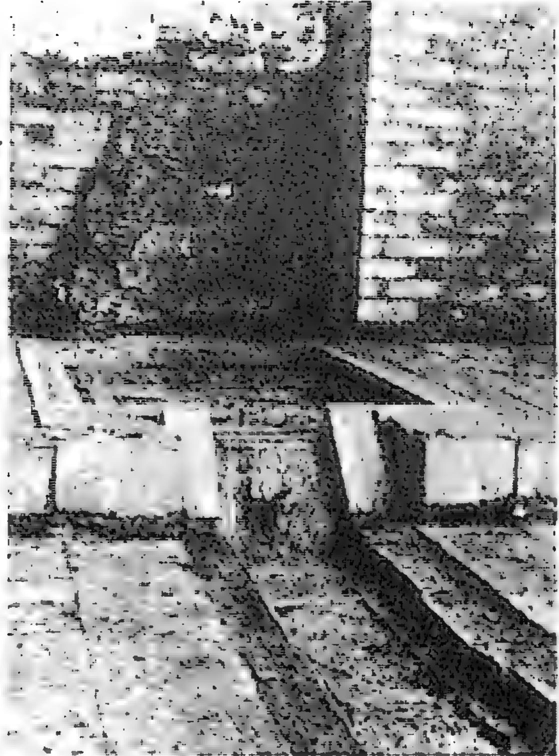
لوحة رقم (٨)
سقف الدهليز الرئيسي السابق

عن : Creswell: OP. Cit. PL. 676.



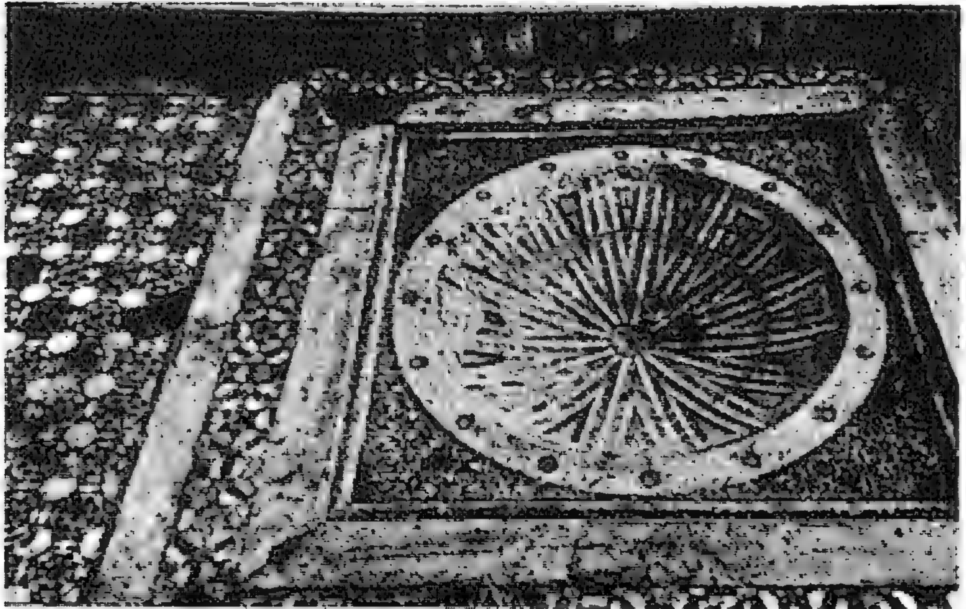
لوحة رقم (٩)
الإيوان الجنوبي الشرقي من البيمارستان

عن : Ibid: PL. 62 A.



لوحة رقم (١٠)
دخلة الشاذروان بصدر الإيوان

عن : Creswell: OP. Cit. PL. 636.



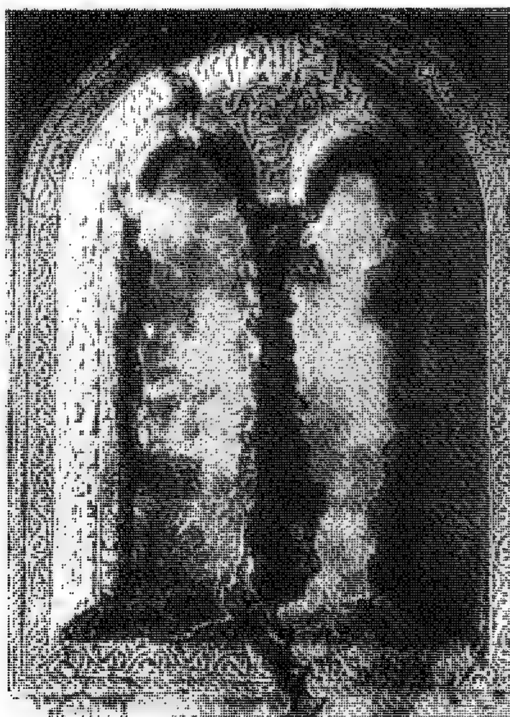
لوحة رقم (١١)
تفاصيل من حوض (فسقية) الشاذروان السابق

عن : Ibid: PL. 630.



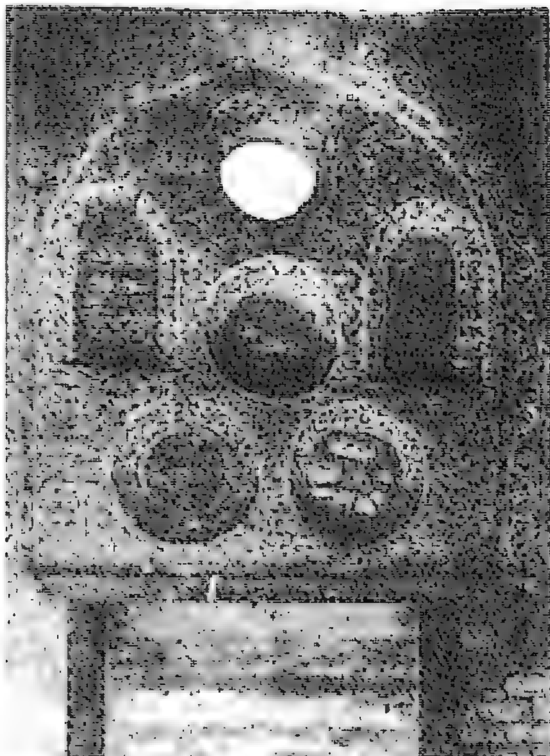
لوحة رقم (١٢)
النافذة القندلية التي لا تزال باقية بأعلى الجدار الشمالي الشرقي من الإيوان السابق

عن: Creswell: OP. Cit. PL. 62 C.

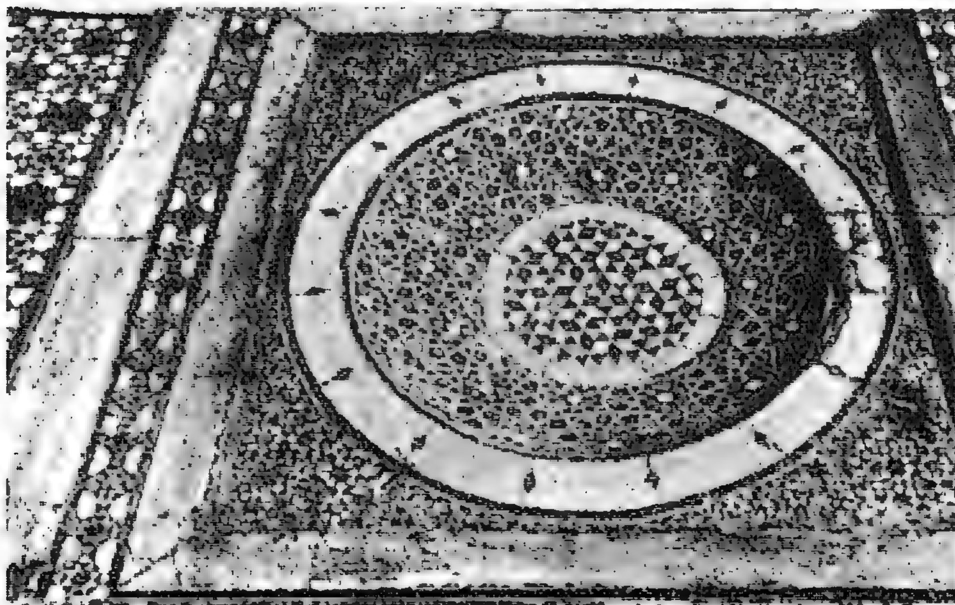


لوحة رقم (١٣)
النافذة القندلية التي كانت تقابل النافذة السابقة (غير موجودة)

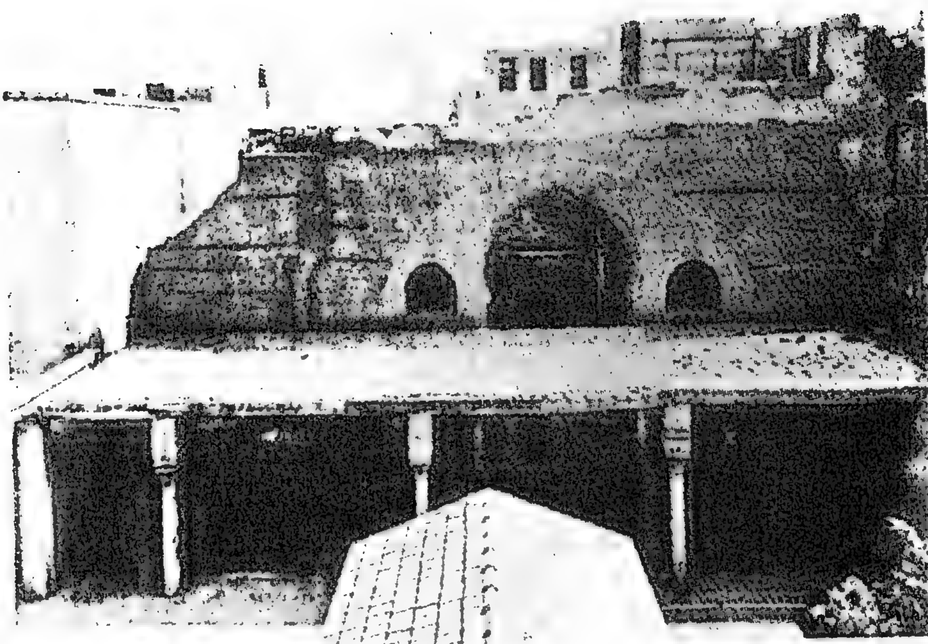
عن: Ibid: 62. D.



لوحة رقم (١٤)
الحشوة المعقودة بأعلى دخلة الشاذروان السابق
عن : Creswell: OP. Cit. 62. B.



لوحة رقم (١٥)
تفاصيل من حوض (فسقية)الإيوان الشمالي الغربي
عن : Ibid: PL. 63. A.



لوحة رقم (١٦)

الإيوان الشمالي الشرقي للبيمارستان

عن: Creswell: OP. Cit. PL. 63. E.



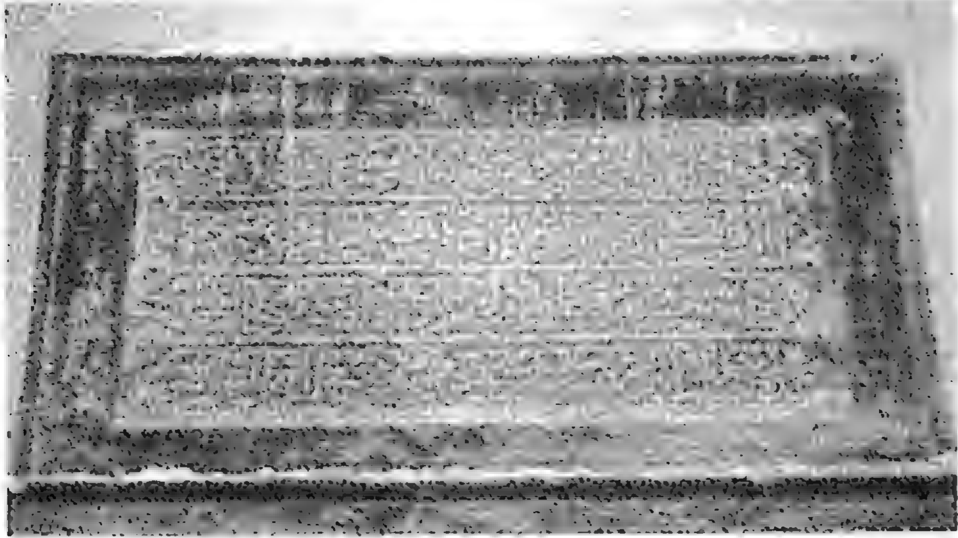
لوحة رقم (١٧)

الإيوان الجنوبي الشرقي للبيمارستان

عن: Ibid: PL. 66. A.



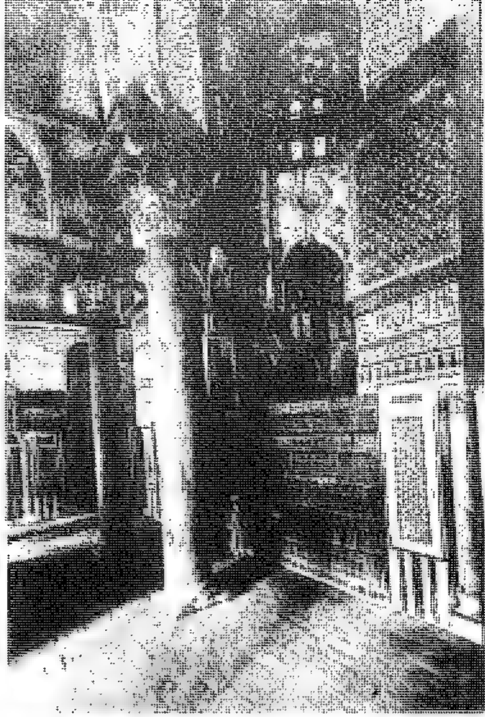
لوحة رقم (١٨)
الألواح الخشبية التي وجدت في بيمارستان قلاوون وتشتمل على مناظر مختلفة للحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي
عن: زكي محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٦ شكل ٣٤٣ .



لوحة رقم (١٩)
النص التأسيسي للقبة المنصورية
تصوير الباحث

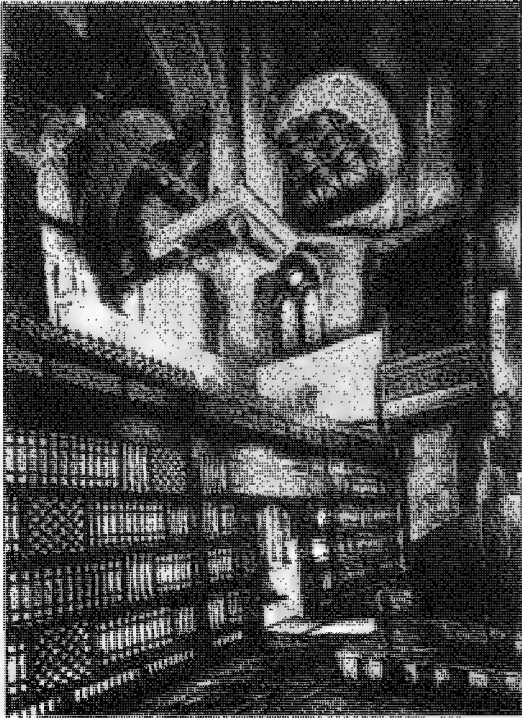


لوحة رقم (٢٠)
القاعة التي تتقدم القبة ويظهر بها العقود والقباب الضحلة التي تغطي أروقة القاعة
تصوير الباحث



لوحة رقم (٢١)
القبة المنصورية من الداخل

عن : .Creswell: OP. Cit. PL. 69 A

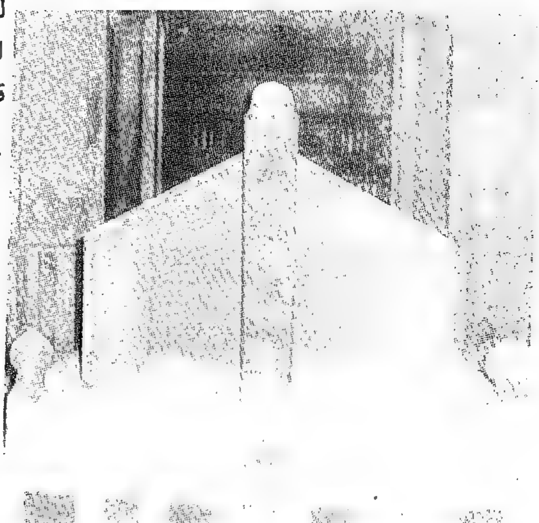


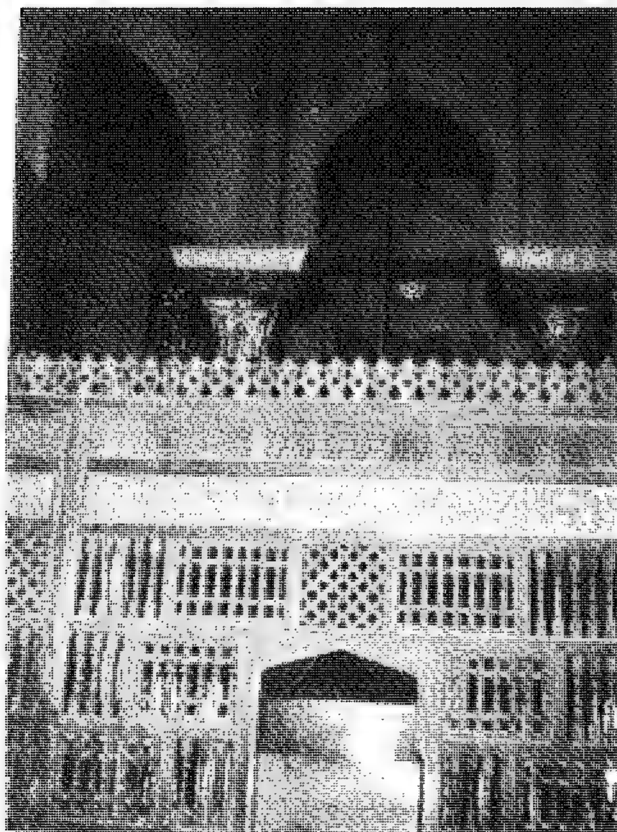
لوحة رقم (٢٢)
القبة المنصورية من الداخل

عن : .Ibid: PL. 69 B

لوحة رقم (٢٣)
التركيبة الرخامية التي تعلو قبر السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد وحفيده

تصوير الباحث



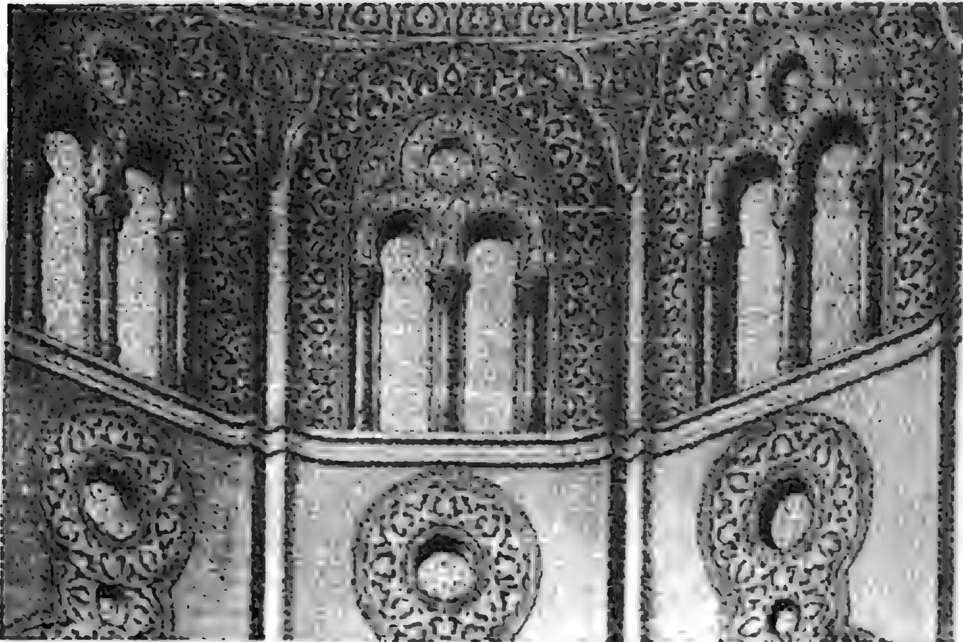


لوحة رقم (٢٤)
المقصورة التي تحيط بالتركيبة السابقة

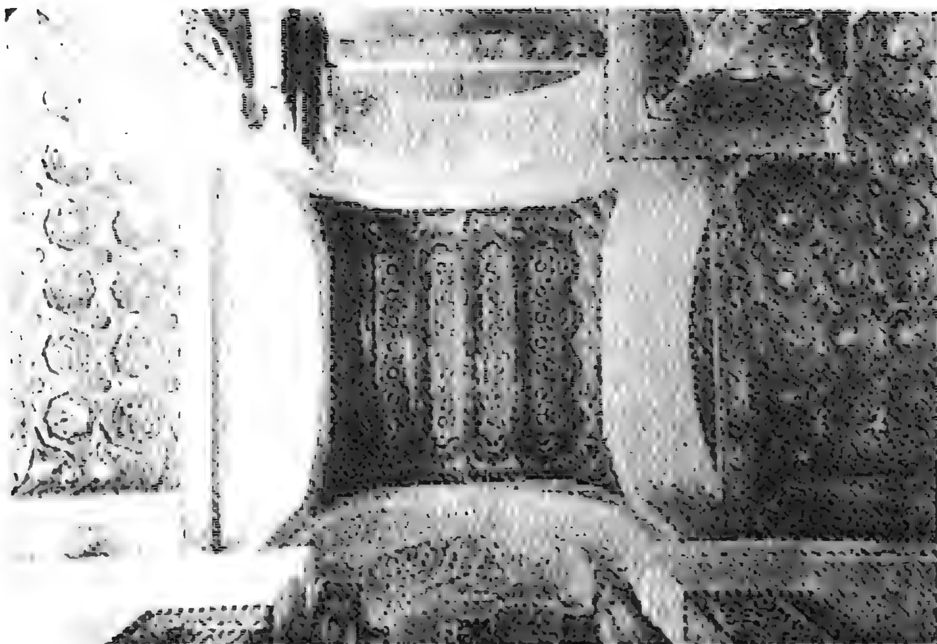
تصوير الباحث



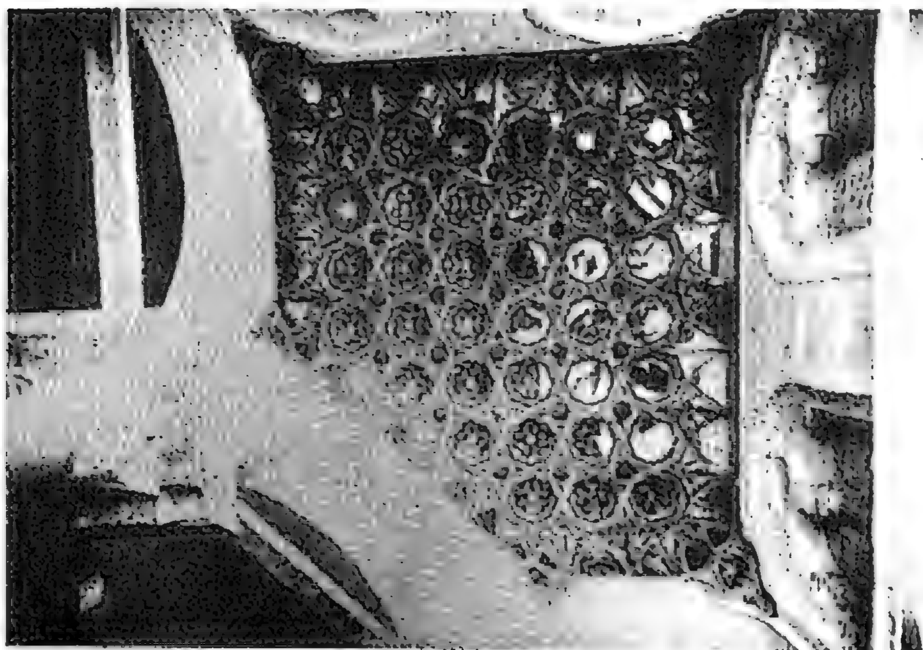
لوحة رقم (٢٥)
العقود التي تعلو الأعمدة والدعامات   تصوير الباحث



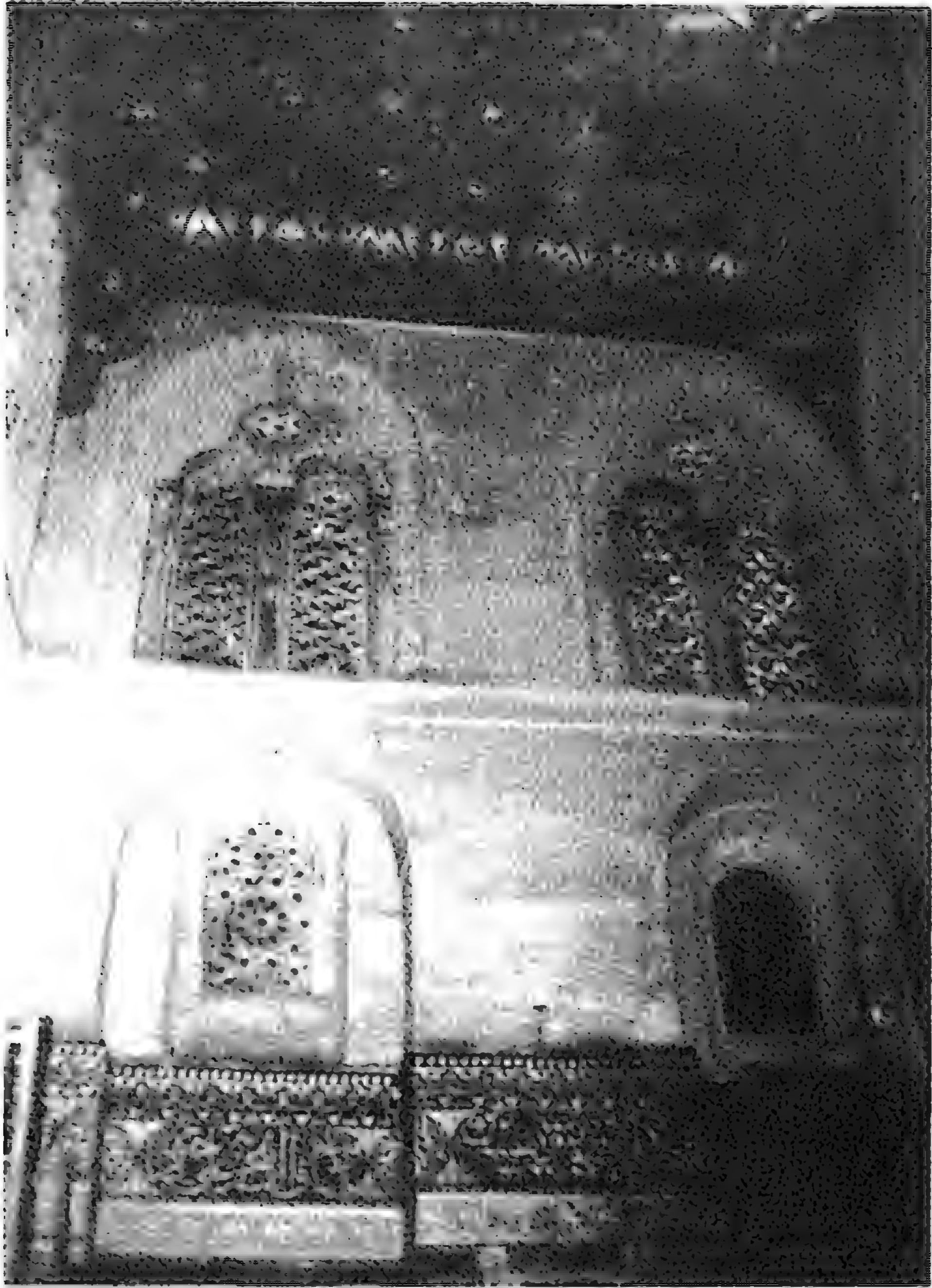
لوحة رقم (٢٦)
زخارف القمريات والقندليات بأعلى العقود السابقة   عن : Prisse D'avennes: L'art Arabe
Paris PL. 61.



لوحة رقم (٢٧)
زخارف الأسقف فيما حول القبة
عن: Creswell: OP. Cit. PL. 73 B.



لوحة رقم (٢٨)
زخارف الأسقف (القصع)
عن: Ibid: PL. 73 A.



لوحة رقم (٢٩)
القمريات والقنديليات البسيطة وزخارف القصع الخشبية
تصوير الباحث



لوحة رقم (٣٠)
المحراب بصدر مربع القبة

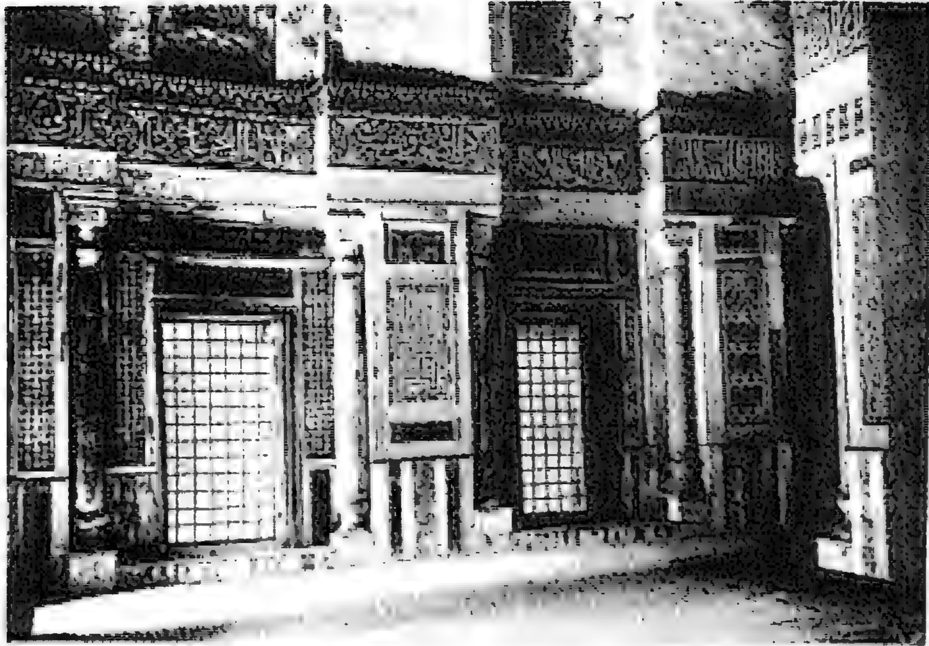
تصوير الباحث



لوحة رقم (٣١)

زخارف بعض الدعامات بجدران القبة

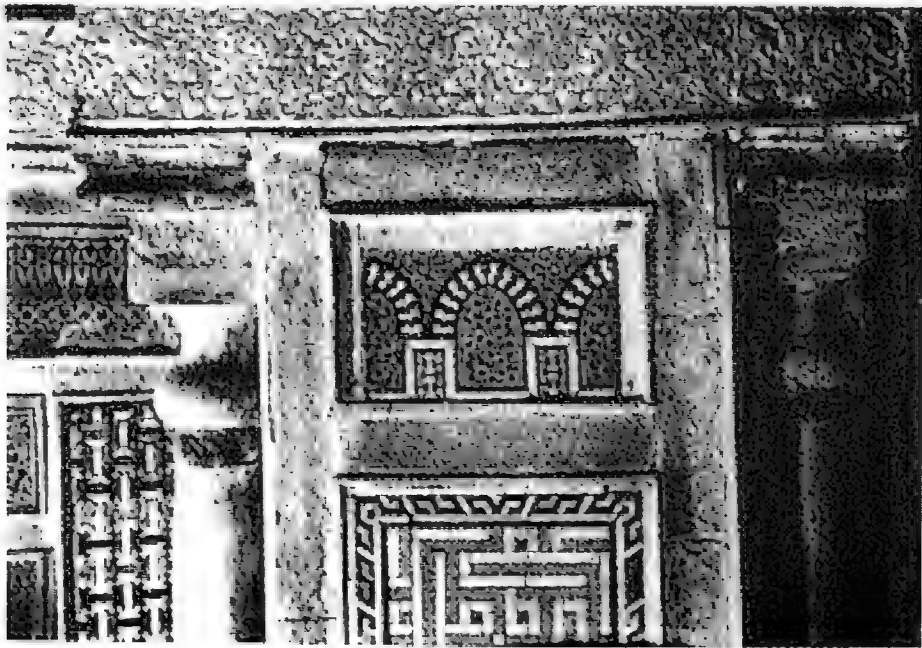
تصوير الباحث



لوحة رقم (٣٢)

الجدار الجنوبي الغربي من مربع القبة

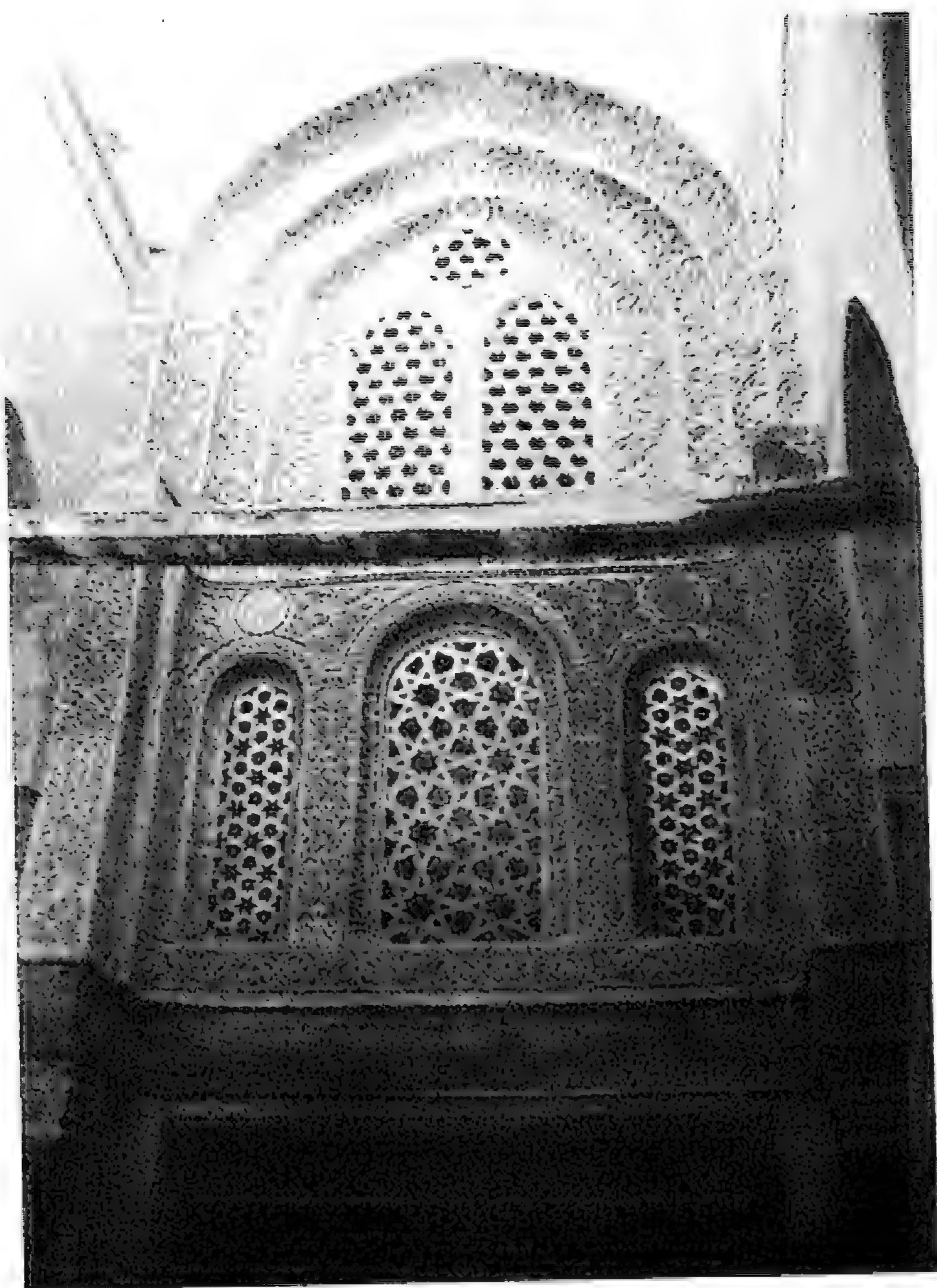
عن: Creswell: OP. Cit. PL. 10 a.



لوحة رقم (٣٣)

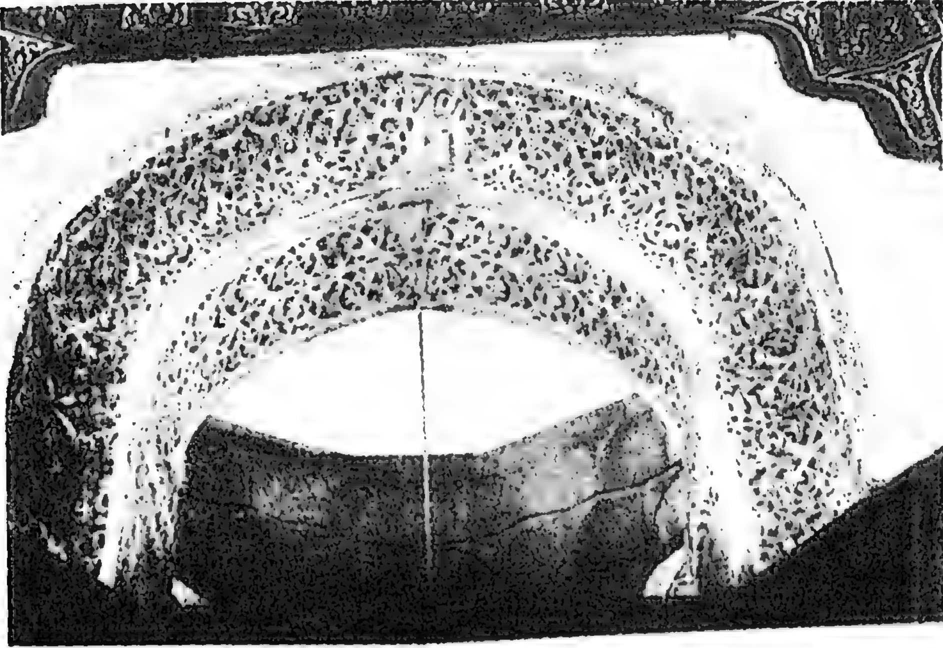
تفصيل زخارف بعض الدعامات بجدران القبة

عن: Ibid: PL. 10 B.



لوحة رقم (٣٤)
زخارف واجهة القبة المنصورية من داخل القاعة التي تتقدمها

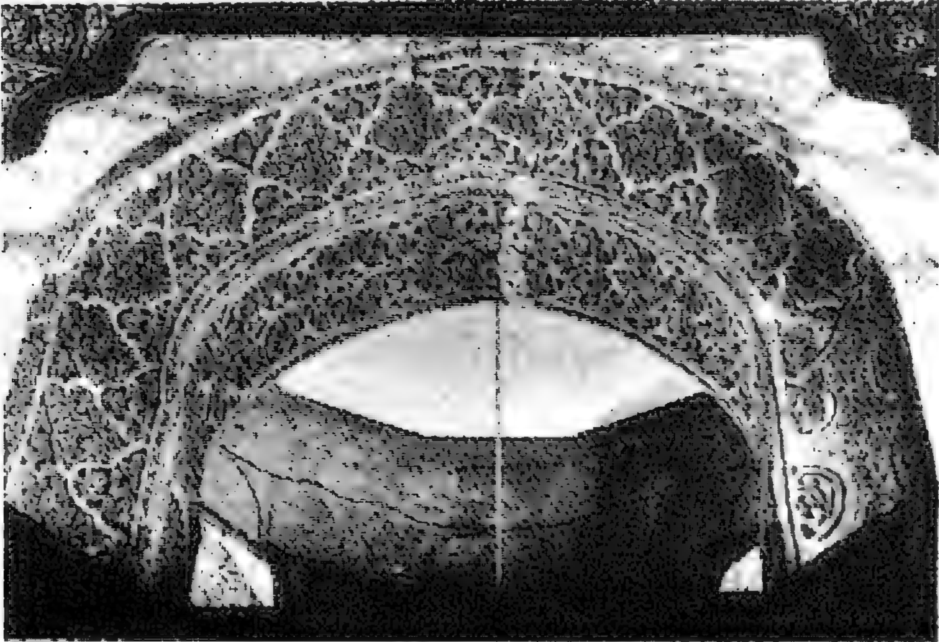
تصوير الباحث



لوحة رقم (٣٥)

تفصيل من زخارف العقود بالقبة

عن: Creswell: OP. Cit. PL. 72 A.



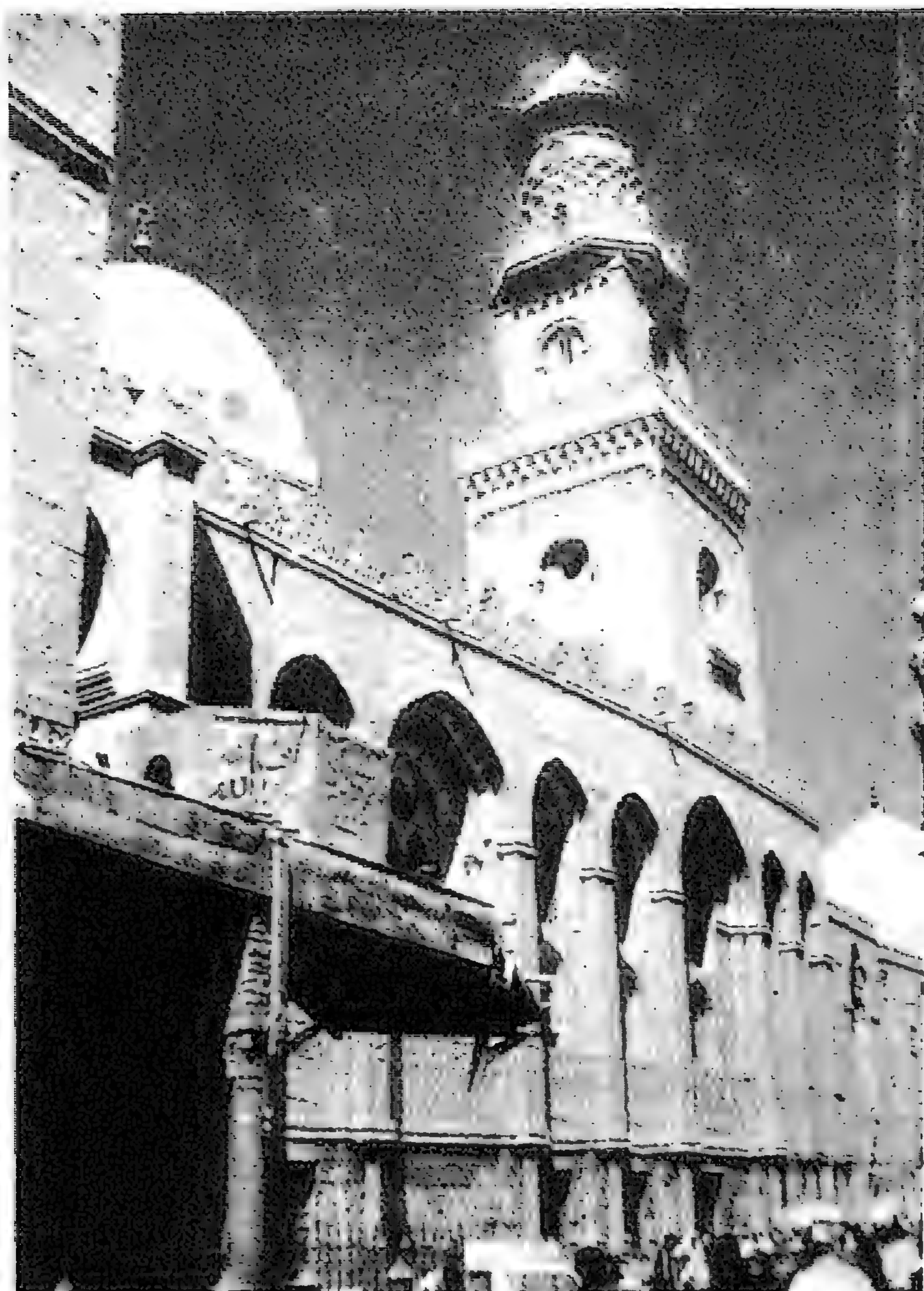
لوحة رقم (٣٦)

تفصيل من زخارف العقود بالقبة

عن: Ibid: PL. 72 B.



لوحة رقم (٣٧)
واجهة القبة المنصورية وبطرفها الشرقي المئذنة
تصوير الباحث



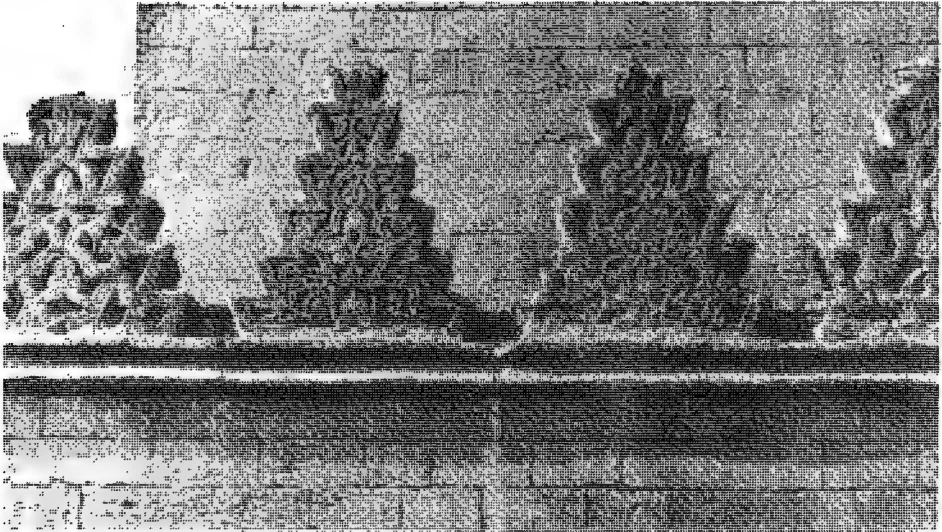
لوحة رقم (٣٨)
واجهة القبة المنصورية وبطرفها الشرقي المئذنة — تصوير الباحث



لوحة رقم (٣٩)
المئذنة المنصورية
تصوير الباحث

لوحة رقم (٤٠)
المئذنة المنصورية
تصوير الباحث





لوحة رقم (٤١)
الشرافات المسننة بالواجهة

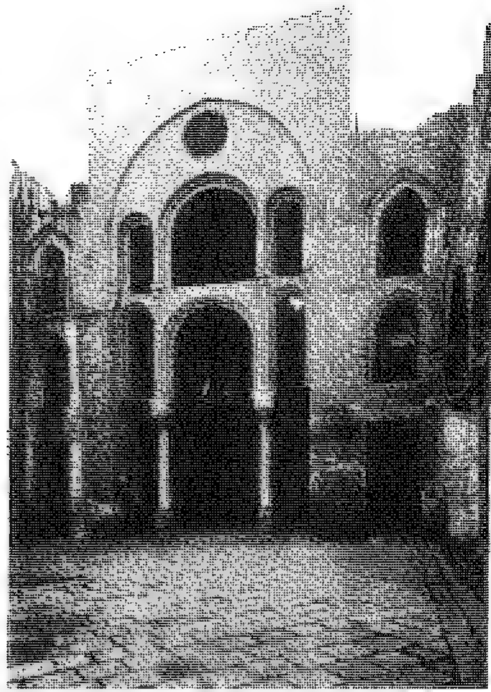
عن: Creswell: OP. Cit. PL. 76 A.

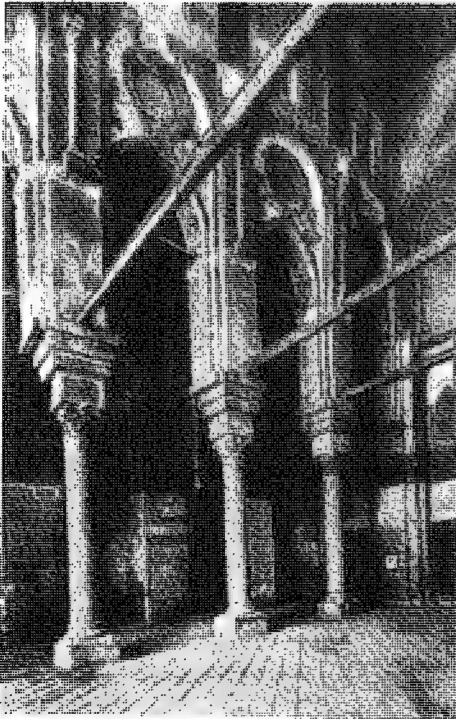


لوحة رقم (٤٢)
واجهة إيوان القبلة بالمدرسة المنصورية تصوير الباحث

لوحة رقم (٤٣)
واجهة إيوان القبلة السابق والبابان على جانبيه

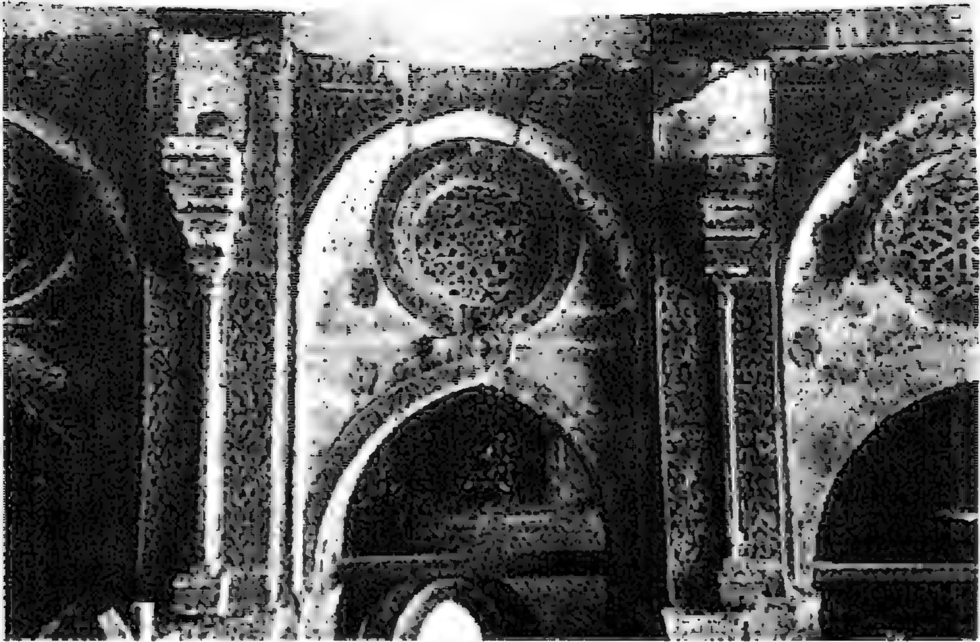
عن : Creswell: OP. Cit. PL. 74 A.



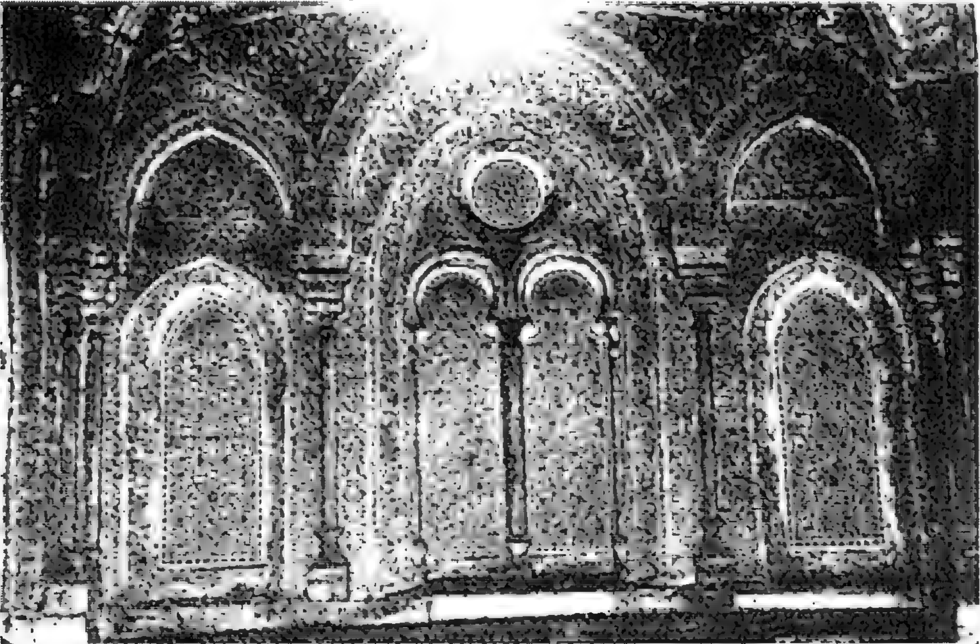


لوحة رقم (٤٤)
إحدى بائكات (البائكة اليسرى) بإيوان القبلة

عن : Ibid: PL. 74 B.



لوحة رقم (٤٥)
العقود التي تعلو البائكات بإيوان القبلة وأركان البنيان المضعفة فيما بينها
عن : Creswell: OP. Cit. PL. 15 B.

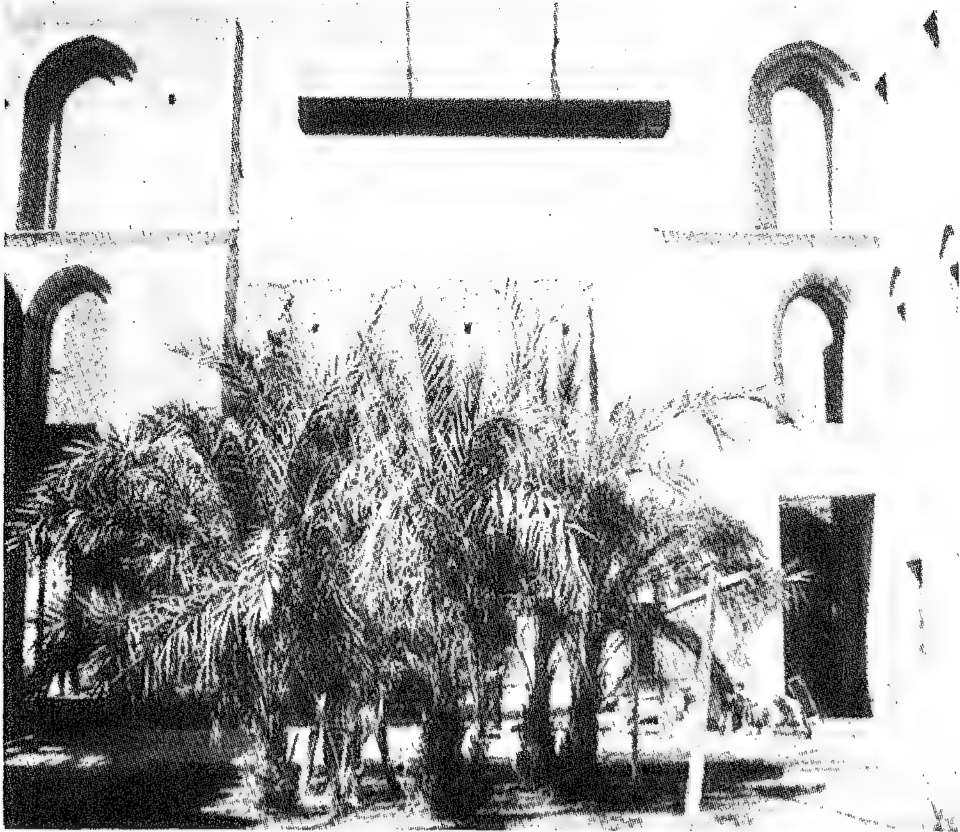


لوحة رقم (٤٦)
الحشوة الزخرفية التي تعلو المحراب
عن : Ibid: PL. 75 A



لوحة رقم (٤٧)
محراب المدرسة المنصورية

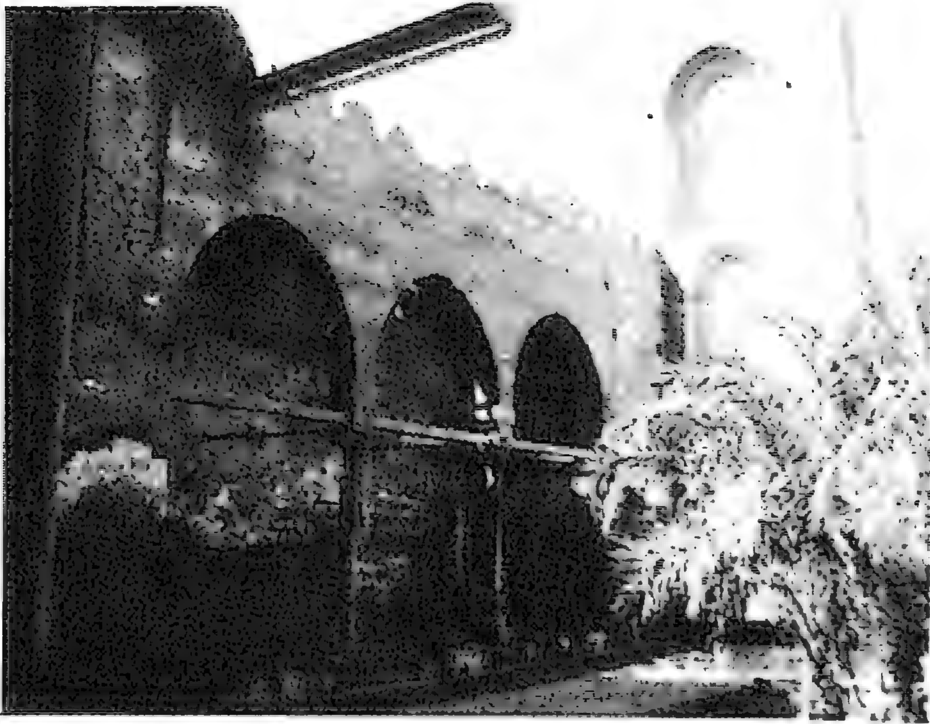
تصوير الباحث



لوحة رقم (٤٨)

الإيوان الشمالي الغربي للمدرسة

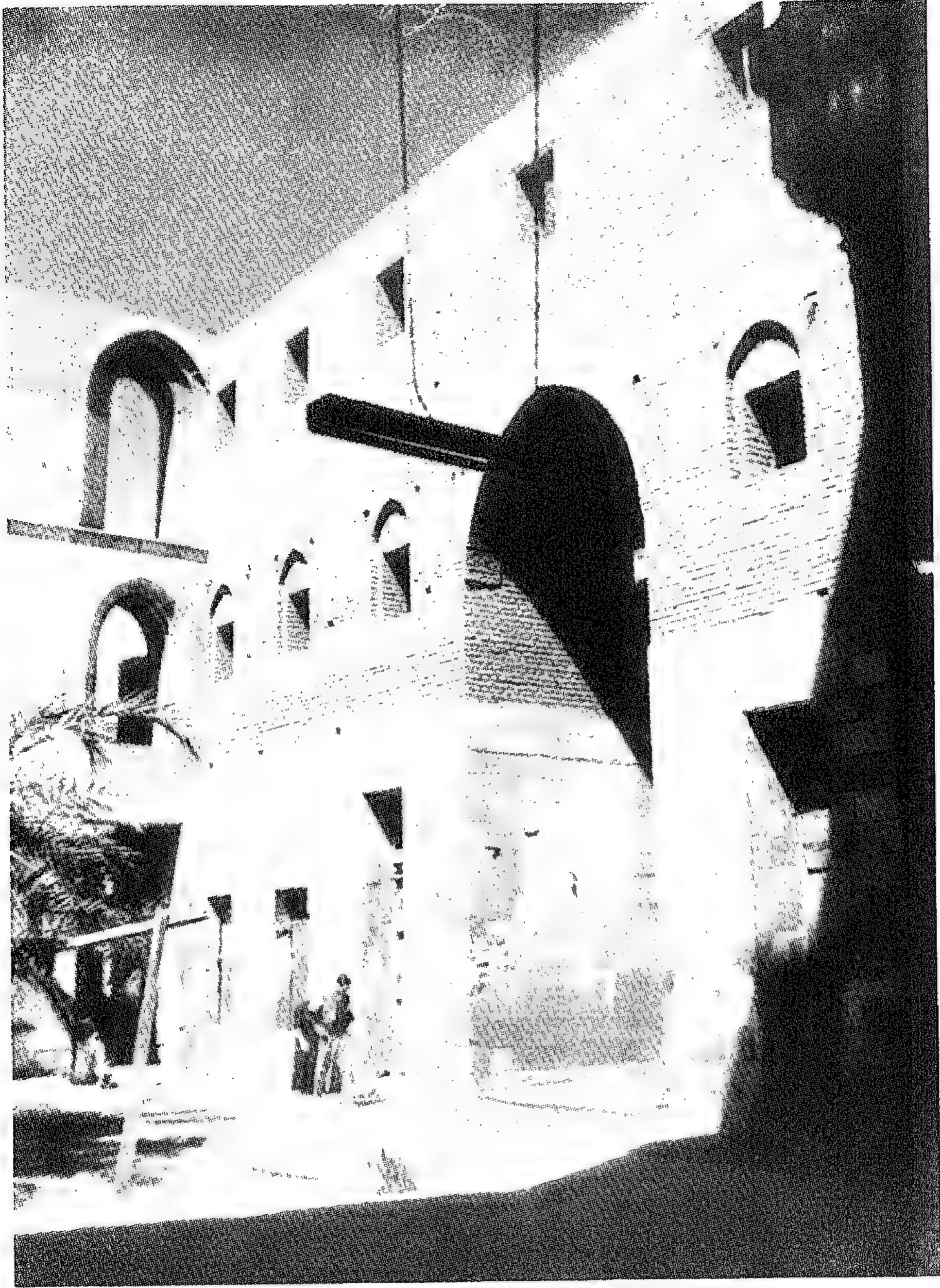
تصوير الباحث



لوحة رقم (٤٩)
الإيوان الجنوبي الغربي للمدرسة تصوير الباحث



لوحة رقم (٥٠)
الإيوان الجنوبي الغربي والبيتان بالطرف الجنوبي عن: Creswell: OP. Cit. PL. 76 c.



لوحة رقم (٥١)
الصفة الشمالية الشرقية للمدرسة

تصوير الباحث

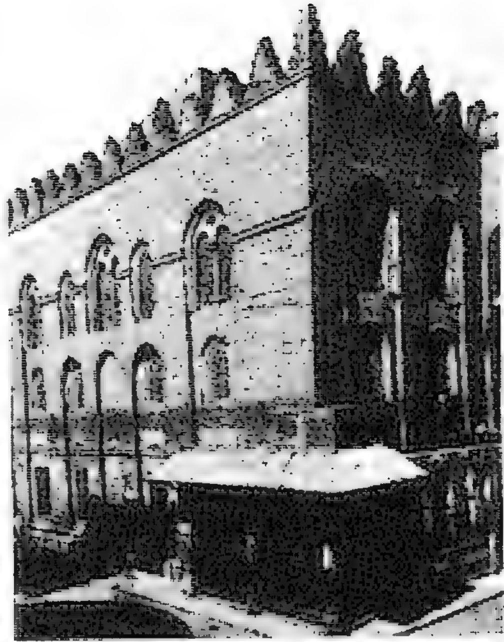


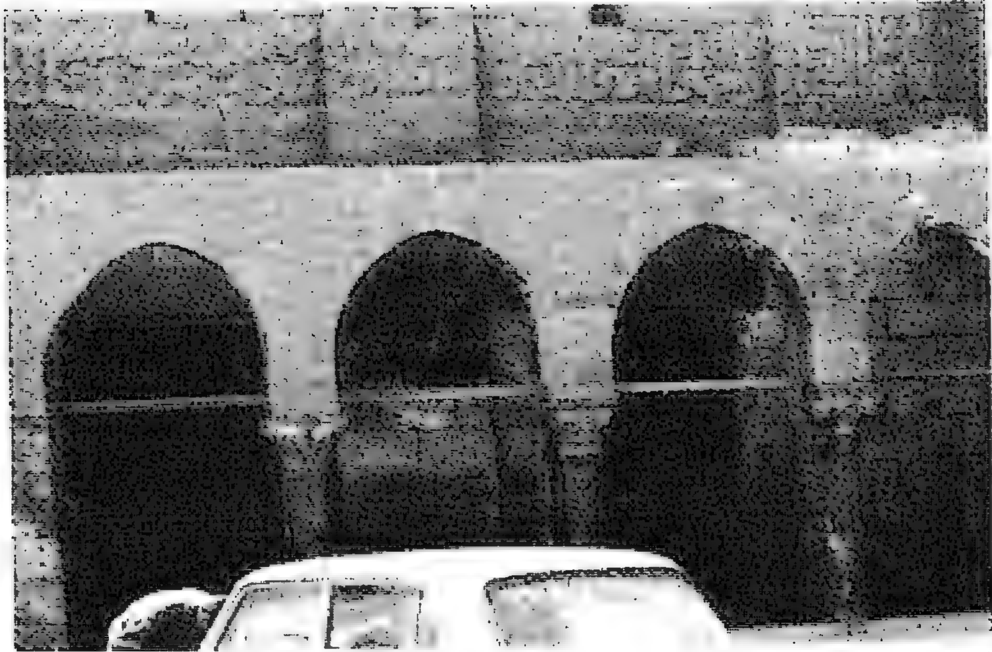
لوحة رقم (٥٢)

واجهة المدرسة (الضلع الجنوبي الشرقي) تصوير الباحث

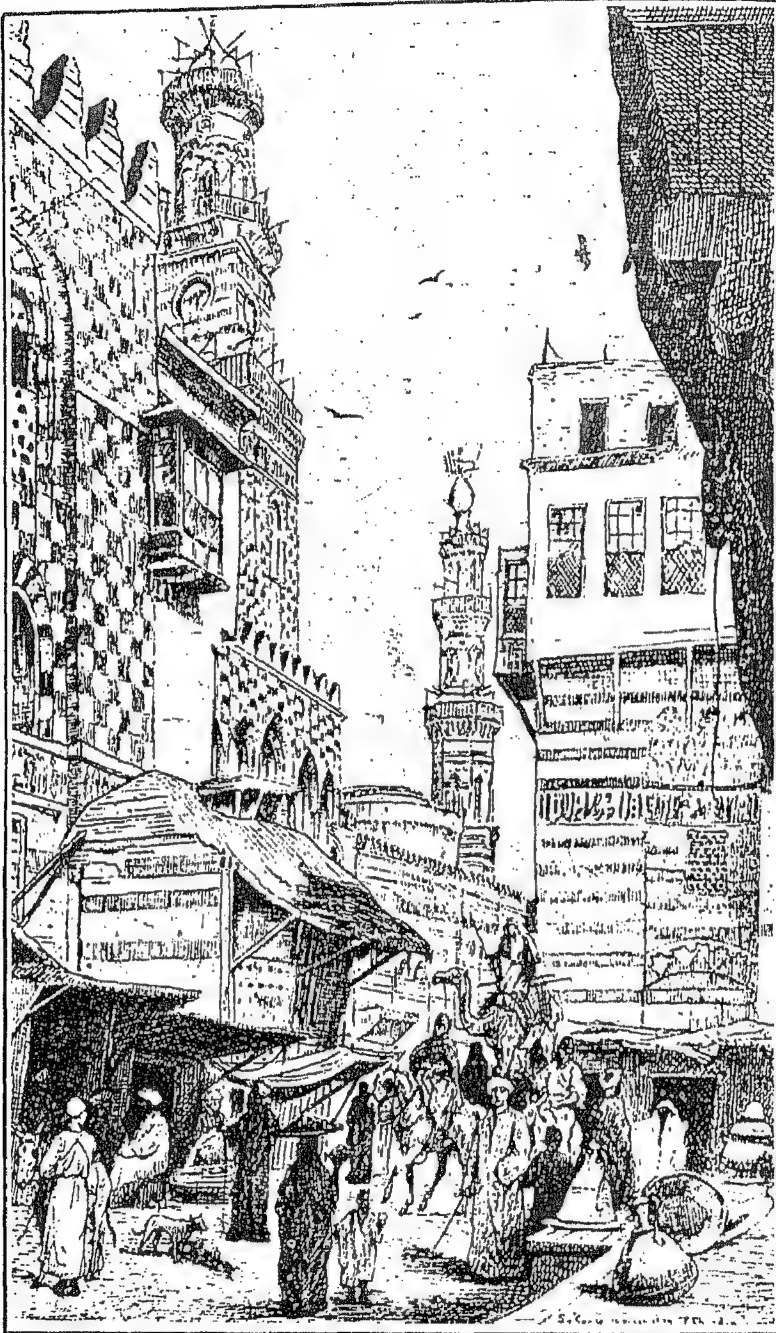
لوحة رقم (٥٣)
واجهة المدرسة (الضلع الشمالي الشرقي
والجنوبي الشرقي)

عن: Creswell: OP. Cit. PL. 65 A.





لوحة رقم (٥٤)
واجهة المدرسة (الضلع الشمالي الشرقي)
وتتقدمه البائكة التي تحدد موضع حوض الدواب الذي حل محله سبيل الناصر محمد بالركن الشرقي من واجهة المدرسة
تصوير الباحث



لوحة رقم (٥٥)

واجهة مجموعة قلاوون الرئيسية وتظهر بها تربيعات الشطرنج

عن: Creswell, The Works of Sultan Bibars, Fig. 2.

مسابقة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة
مجموعة المنصور قلاوون ـ دراسة تاريخية وأثرية

صاحب البحث : د. محمد حمزة إسماعيل الحداد

يتألف هذا البحث من مجلدين منسوخين على الآلة الكاتبة ، المجلد الأول يقع في ١٩٣ صفحة ، عدا قائمة المصادر والمراجع . والمجلد الثاني يضم الرسوم الهندسية لمجموعة المنصور قلاوون والأشكال واللوحات والصور ، عددها ٥٥ .

أما المجلد الأول فينقسم إلى قسمين . يتألف القسم الأول من بابين عالج الباحث في الباب الأول الجانب التاريخي المرتبط بالسلطان المنصور قلاوون وأحوال مصر في عهده ، فقدم دراسة طيبة متكاملة لسيرة السلطان قلاوون حتى ارتقائه مذهب السلطنة ، ثم لأحوال مصر في عهده سواء داخلياً أو خارجياً . وبعد ذلك انتقل إلى الجانب الأثري فتتبع تراث السلطان المنصور قلاوون وما تبقى من عمائره مختتماً هذا العرض بالمجموعة المعمارية بشارع المعز لدين الله بالقاهرة .

أما القسم الثاني فقد ركز فيه الباحث على تلك المجموعة المعمارية ، فقدم دراسة جديدة طيبة عن مراحل تشييد هذه المجموعة وقسم هذه المراحل إلى ثلاث مستدلاً في ذلك على شواهد ونصوص تاريخية مستمدة من أمهات المصادر المعاصرة . وبعد ذلك انتقل الباحث إلى مؤسسة من المؤسسات التي تتألف منها تلك المجموعة ، فتناولها بالوصف والشرح ، موضحاً كل ما يتعلق بالتخطيط الهندسي والعناصر الزخرفية ، والوظائف المتباينة التي تؤديها ، وما وقف عليها من أوقاف ، وما خصص لها ولموظفيها من نفقات .

وقد تتبعنا بإعجاب شديد منهج الباحث وهو منهج علمي سليم ، والأسلوب الذي كتب به وهو أسلوب عربي صحيح ، وتخلل هذا وذاك من قدرة على ربط الأفكار والعبارات بعضها ببعض . يضاف إلى ذات الحواشي الدسمة التي ذيل بها الباحث كل صفحة من صفحات بحثه والتي اعتمد فيها على عدد ضخم من المصادر المعاصرة ـ بعضها مخطوط ـ فضلاً عن المراجع الحديثة من ناحية وعنصر المشاهدة على الطبيعة من ناحية أخرى .

ونحن نرى بكل أمانة وموضوعية أن هذا البحث يستحق بجدارة أن ينال الجائزة الأولى في السابقة المعلن عنها .

سعاد ماهر محمد

أ . د.
سعيد عاشور
١٩٨٩/٤/١٥

هـذه السلسلة تضـم :

مكتبة مدبولي **MADBOULI BOOKSHOP**

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت ٥٧٥٦٤٢١ 6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421